إسلام عكرية

زهر الشوق

رواية

دار الأركان للإنتاج والنشر

إسلام عكرية

زهر الشوق

رويدا رويدا غابت المباني وبقي المبنى العالي ينظر إليّ مودعا ومنظره يتعهد لي بأنه سيحفظ لقاءنا إلى الأبد ... وغابت الجامعة متوارية خلفنا يصحبها أجمل فصل في حياة فتاة أحبتك يا عمر ... هناك، وفي لحظة غيابها ودّعت قلبي الذي تركته فيها أردّد بأعماق نفسي بألم وحزن: إلى قلبي، سلام ووردة ... سلام ووردة!

الجرح هو المكان الذي من خلاله يدخل النور إليك

الرومي

ISBN 978-965-572-820-0

زهر الشوق

رواية

إسلام عكرية

زهر الشوق

روايـــــــة

إسـلام عـكرية

لوحة الغلاف: للفنانة سماح شحادة
لوحة داخلية: أمية شقور

إصدار:
دار الأركان للإنتاج والنشر

صفحة الرواية على فيسبوك: زهر الشوق
الموقع الأدبي للكاتب على فيسبوك: Islam Akaria
الموقع الأكاديمي للكاتب math.haifa.ac.il/iakaria
البريد الألكتروني: islam.akaria@gmail.com

-2019-

لَا تَحسَبِينِي بِنَارِ الحُبِّ مُدَّعِيًا

إنِّي لَعَمرِي كَتَبتُ الشَّوقَ مِن أَلَمِي

لَولَا بِقلبِي رِيَاحُ الوَجدِ قَد عَصَفَت

مَا كَانَ يَومًا لِيَجرِي بِالهَوَى قَلَمِي

إهداء

في عالمٍ تملكه

أنت أضعف من فيه

رغم أنّك تسن قوانينه

وتختار ساكنيه

تشقّ عباب الكتب

تعلو فيه

تجدني أضعه في صندوقٍ

أعيده لها، وأهديه

عالمي وما فيه ... فاطمة !!

إسلام

البداية

الجرح هو المكان الذي من خلاله يدخل النور إليك

الرومي

فاطمة

سيكون لديك الكثير الكثير لتكتبيه يا فاطمة، وستتراكم في صدرك الكلمات أكواما كقطع الليل المظلم على أطراف هذا الكون الفسيح وفي زواياه المنسية، لن يجلوها عنك إلا القلم، ولن يُجلِّي درب الخلاص منها غيره، تعلمي فقط أن تُصادقيه. كُلي يقين بهذا، فهذا أنت، وأنا من ربّاك وكبرتِ على عينه، وهذا ميزان الحياة وقسطاس الحظوظ، ضُبط منذ الأزل، وشُدَّت ضوابطه على ما هو عليه فلا خلاص ولا تغيير، لن يغير منه التحدي ولن تثنيه الثقة ولن يحمله العقل الفريد. لكن القلم سيخفف عنك كل ذلك ويحط من أثقالك، ويمتص ألمَكِ وحزنك لينسج من خليطهما الحرف المؤنس والكلام السمير، ويُحِيلُهُمَا يدا تمتد بين خصلات شعرك شابكة إياها بين أناملها الرقيقة، فتنساب من خلالها لتلامس بأطرافهن فروة رأسك، تاركة إياك وذاك الشعور الودود العليل، ليثلج صدرك - هنيهة لربما - كما يثلج البدر صدر تائه في بيداء عند إطلالته في ليله الأدهم. للقلم سحر يعلمه البؤساء من أصدقائه، فهو الذي يكتبهم، وهو الذي يرسم وجوههم الحزينة وقلوبهم المفطورة

وأدقَّ التفاصيل، وحتى الأرواح الغائبة خلف دهاليز القدر والعيون المطوية بطبقات الخيبة التي لا نديم لها إلا المنى، ولا رفيق لها إلا الأحلام، ولا مأوى لها غير الأمل. هناك على نقطة التقائه مع الأوراق، حيث يتناهى إليها وجع بلون الحبر، تستقبلهُ فاردة أسطرها بِقَدَرِ اتساعها، كأخاديد متناسقة صغيرة أُحكمت جوانبها إغلاقا لتجري فيها عَبَرَات حارَّة بلون الخريف وطَعمِ طغيان القَدَر، مرتّبة مصفّدة فلا تنزلق منها فتعيب جمال القصيد، رونق الحرف، وصدق كلمة وليدة الإحساس، هناك حيث يتَّصل القلب بالأنامل، لتترجم نبضك من خلاله وتُسمع صوتك المكبوت تحت وطأة الأحمال والاوزار التي تركتها الأيام، فيتحوّل جام الفكر إليهما ويُشَدُّ البصر إلى مكان نزول أول قطرة حبر، ليشهد بعدها انهمار الكلمات وغزارة الأحرف، فيعصف في ظلّها الوجد وتتجلّى أمواجُ الألم فتنقضُّ دافعةً سُفُن الجوى لترتاح في خليج النثر والشعر ... لا مرسال ... لا عنوان ... ستبقى الرسائل في الدُّرجِ القديم، لن يمر عليها أحد ... ربما العناكب ... وربما سأحيا لأعطيك إياها يا صغيرتي ... أو ستختمر الجروح والكِلام، ويتعتّق النبض الحزين فيها، تاركًا ذكرى إنسان كان

يظن يوما أنها له، وأنه لها، فقد أحبته مثلما أحبها، ووهبته الحياة بعدما ظن نفسه مات قبل الأوان، فتعاهدا - رغم تشابك أمرهما - ألا يفرقهما إلا الردى والقضاء، فمثل هذا الحب سيدفعهما لجرف كل عائق وحائل قد يقف بينهما، ولأجله سَيَلينُ كل صلب وصلد أو مستحيل، لكنها هُزمت ... هزمت في أول نزال وأعلنت الاستسلام والخضوع، ولم يستطع لومها، ولم يأتِ لإنقاذها كما أرادت ... كما تمنَّت ... غلبهما المكان ... غلبه ... وأنهى أحلامهما الزمان، ووقّع إعدام الحلم الرأيُ الذي لا يلين، وإن لم يكن على وجه حقٍّ وليس ما يدعوه للقسوة والصلابة.

هذا نحن، لذلك يا فاطمة، رغم جمال روحك، ونقاء فكرك، يا ملاكي الصغير، وبيتي الأخير، وملاذي الأثير وعالمي المنير، لا بد أن يلقى فؤادك إحباطا من البشر، هذا إن لم يُفسد عليك أبوك الرجال، فليس هذا الأمر عليه بجديد، أحبَبتُها مُذ رأيتها ولم أدرك آنها بأنه الحب، اعتقدتُ أنه مجرد شعور متوّلد من الأسى الذي كنت فيه آن ذاك، والذي طاردني سنين وأحاطني من كل جانب بظلامه الدامس في دهاليز سُدّت فيها كل المخارج، حينها رأيت

العالم بلونين فقط، سوادُ ما أنا فيه، وبياضُ كُلّ آخر ألحظُهُ، فظننتها بخضمّ ذلك البياض ...

*****

كانت مجموعة رسائل طويلة مؤثرة، وأخرى قصيرة غزيرة وعميقة المعاني، وُقّعت بتواريخ مختلفة بين الأعوام 1999 و2000، كتبها والدي بخطه المتناسق الجميل المشرق، ذي الإنحناءات المتقنة التي أحب، والتي لا تتناسب مع فحوى الرسائل وأسباب وجودها من حيث الشعور، وقد أهدانيها مؤخرا بعدما تسلمت رسالة قبول من الجامعة. أنا الآن بمطلع التاسعة عشرة من عمري، من عائلة مرموقة وأسرة ميسورة الحال، أبي عُمَر محاضر جامعي بقسم الرياضيات، اكتسب شخصية عميقة بالتجربة، شخصية لا تلفت الأنظار إلا بهدوئها وصمتها، فمن شأن صمته كشف الكثير عنه، على خلاف الكلام الذي أتقن الإختباء وراءه بجميل العبارات والأشعار الرنانة، فأدركت حزنه وغضبه مثلما أدركت فرحه ورضاه من صمته، عنوان واحد وعشرات الروايات.

بدأ أبي حكايته عندما أعلن في بداية سنواته العشرين تمرّده على ظروف رثّة أحاطته من كل جانب، وحالت دون أحلامه وطموحاته، ليُقابل بعدها سلسلة إخفاقات صقلته حتى غدا ما هو عليه الآن. كثيرا ما جلست إليه يحدثني عن بداية مسيرته، وعن نجاحاته التي سررتُ لها وتركَتْ بِيَ الحماس أن أحذو حذوه. كما حدثني عن إخفاقاته التي عجبت منها ومنه، كيف له أن يتحملها، وكيف لبداية صاخبة كهذه نهاية هادئة؟ عجبت لهذا، أوليست النهايات تحكمها البدايات! - كما كان يردد على مسامعي - لكني كنت أتعجب بطمأنينة أستقيها من وضعنا الحالي، وضعنا الذي أدركت لاحقا بأنه ليس بالاستقرار الذي كنت أراه وألمسه، ولا بالهدوء الذي يسوده التفاهم والرضا. زاد من عجبي قبوله بأي وضع مر به واتزانه أمام العواصف مُتَيَقِّنًا هدوءها واستقرارها عما قريب، كان كالذي يبحث في ثنايا الدجى وطيَّاته عن النور بيقين من سيجده، وإيمان مطلق لوجوده، وكثيرا ما كان يردّدُ ويعيد أمامي مقولة، أظنها خلاصة صبره وزبدة إيمانه ورضاه: "لولا هذا الظلام ما عرفنا النور ولا قدّرناه".

أمي أحلام مديرة مدرسة، تختلف شخصيتها عن شخصية

والدي، فهي نشأت في بيئة مختلفة بمدينة مختلطة - بالعرب واليهود - قريبة من مكان سكنانا، وتماما بعكس أبي، لم تملك أمي تلك الجلادة أمام ضغوطات الحياة ومحتماتها، ولم تكن بقوته وثقته، فألقَتِ الحمل عليه على الدوام، حتى غدا في كل صغيرة وكبيرة مفتاح خلاصها وقِبلَةَ ملاذها، ورغم أن والدي كان راضيا ولم يتكلم عن هذا مُطلقا، إلا أني كنت أرى بأن مكانتها لا تخلو من لمساته، وأنه لا بد مَن كان لها سندا. هي كذلك لم تذكر هذا أبدا، ربما لأنها رأت أن من واجبه فعل ذلك، أو أنها تستحق ما يفعله لأجلها وما فعله، لكن الأمر لم يخفَ ولاحظته في جيل مبكرة، لكني ظننته أمرا طبيعيا، فوالدي تماشى معه كما لو كان كذلك، وكذلك فَعَلت.

حدثني والدي ذات مرة أنه رأى أمي أول مرة في دكان والدها، وشدت انتباهه عندما كانت طالبة بالكُليّة، فتزوجا بعد بضع سنين تقسّمت على فترة زياراته لها في الكلية تلتها فترة الخطوبة. كُنت أفرح كثيرا لقصصه هذه، وأتلهف أكثر لمثل هذه التجربة، حتى وإن انتهى بِيَ المَطافُ لحياة هادئة يَسُود فيها القُبول أكثر من الحب، ويستولي الروتين على قسمها الأكبر، مثلما هي حياته

الآن، فقد كنت أرى بأن الزواج الناجح هو ما استقر به الأمر إلى ما آلا إليه أبي وأمي، وإن خلا من مشاعر متأججة، فقد حَفَّهُ التفاهم كما الهدوء، وميزته الرتابة، كل منهمك بعمله، ونجتمع في آخر اليوم، فهذه طبيعة الزواج الناجح والعلاقة المتينة، كما كنت أظنّ! كل تفكيري هذا تغير بعد رسائله، وبدأت تبدده تساؤلات صادمت واقعي البريء، فتلك الهالة والغيمة التي تقطنُ في أبي، شتاؤها جاف الآن ليس سوى البرد والبرود فيه. جَلَسْتُ أياما أقرأ الرسائل والقصائد التي كتبها، وقلما كنت أستريح، لم أقرأ بهذه الكثافة يوما، رغم حرص أبي على أن أقرأ دائما، وحرصه أيضا على برنامج مطالعاتي الذي أشرف عليه بلا كلل أو ملل، يناقشني بما أقرأ ويستمع إليّ، إلا أن هذه المرة كانت مختلفة، فقد تجردت فيها حقيقة لرجل قريب، وخالطها ماض ليس غريبا. ورغم أن رسائله مُبهمة وعميقة بعض الشيء، إلا أنها أثارت فضولا استدعاني لقراءتها أكثر من مرة، فضولا أذكاه تنبّهي لجزء من الرسائل وَجَّهَهُ أبي إليّ وأنا لا زلت طفلة، مما أثار فضولي ودهشتي حد العجاب. كان شيئا مشوقا أن يوجّه إليك رجل من الماضي رسائله، فكم بالحري إذا كان هذا الرجل هو

أكثرهم حبا لك، وأكثرك حبا له. أدركت حينها أن والدي كان يرى بي صديقته منذ صغري، ورفيقته التي ينتظرها أن تكبر ليحدّثها براحته، تماما مثلما ينتظر البَحْرُ اكتمال القمر بَدْرًا ليمتدّ ويلقي بأطرافه على جارته البسيطة. سُررت لوهلة انتهت عندما جال سؤال في خاطري، ما الذي استدعاه لكل هذا، ولمَ آثَرَ أن يكتب لي على أن يشارك أحدًا ما وقتها، ثم أين هي أمي من هذه الأحداث، وأين تلك الفتاة التي يذكرها بقصائده، والتي شغفته حبا ... من الواضح أنها ليست أمي ... أكان والدي غير الذي أعرفه الآن!!

تلك الفتاة هي التي وجّه أبي إليها باقي رسائله وتحدّث إليها من خلالها ووسيطه القلم، والتي أتت على شكل قصائد مفعمة بلوعة، تركت بذهني كثيرًا من الأسئلة المحرجة والمقلقة، وصرخت برأسي صرخات مدوّية، فاختلجني إثر ذلك شعور غريب، ولبستني الحيرة عندما انتهيت من قراءتها، وبين شعوري هذا وحيرتي تلك، كنت أرى عالما يمرّ فيه خَطَّانِ بوضوح ... عبر الفؤاد والبصر والنهى ... أحمران قانتان بلون الدم ... الحب ... والألم!!

لاحقًا أخذت أتصرّف أمام أبي كأني لم أقرأ الرسائل بعد، إذ اعتَقَدْتُ أنه أعطانيها لأمر ما أراد أن يُخبرني به، أمر بدا لي أنه مهم بنظره، فلولا اعتقاده بأهميته، ما كان ليفشي عليّ أسراره هذه، كما أني لم أشأ إفساد أمره هذا بتسرُّعي ولا بحيرتي المتزايدة الآخذة بالتفاقم في خلدي وذهني، فقد أخذتِ الرسائل مني معظم تفكيري وسلبت وقتي حشاشته، كذلك فعلت القصائد المُشبعة بلوعة الاشتياق، فأتعبت خاطري وأثارت تعاطفي، لدرجة أني تخيّلت نفسي معه حينها، وأنا بجيل الثالثة، أعاونه كي لا يؤُول به المطاف إلى هذه النهايات من كل قصيدة. تخيلت نفسي جالسة أمامه، تفصل بيننا تلك الطاولة التي شغلت مكانا في قلبه قد تجلى في رسائله، وأنا أستمع لكلامه باهتمام بالغ، وأنظر إلى عينيه، ولسان حالي أنا معك، تخيلت الفراغ يحيطنا فلا يظهر في الصورة إلّاهُ، لكن ما الفائدة، فقد كنت صغيرة، وقد انتهى كل شيء وطويت صفحة هذه الأحداث، وهو الآن يعيش حياة هادئة وديعة، لا شائبة فيها كما أعتقد.

تمالكت فضولي، ولجمت أسئلتي بعناء، واستمر بي الحال أسبوعا، أنهيت فيه قراءة الرسائل، كما عدت على قراءتها مرارا.

فضولي هذا دفعني إلى والدتي لأفتعل معها حديثا وصلت به إلى تساؤلي عن كيف التقت والدي، فسألتها مبتسمة ووجهي لا يخلو من براءة:

- هل أنت من سعى خلفه أم هو من فعل ذلك؟ وهل كان دافع زواجكما الحب أم هكذا جرت المقادير؟
- هو من أتى إلي وسعى ليزورني في الكليّة، ولكنه كان يراني قبلها بدكان جدّك، كان يحبني كثيرا، وقبلت الزواج به بعدما تقدّم إليّ.

قالت كلماتها هذه وعيناها تبتسم، كانت كمن وجد شخصا ليحدّثه بكلامٍ كبته في صدره حتى كاد ينساه.

- وماذا حصل بعدها؟
- ماذا حصل! تزوجنا! وأنجبنا طفلة صغيرة اسمها فاطمة الجميلة، أصبحت صبيّة الآن، وستتعلم وتتزوج وتصبح أحلى عروسة إن شاء الله!

ابتسمت لها، ثم بدّدتُ ابتسامتي بداعي الفضول، وطرقتُ لبّ ما أنا في صدده فسألتها:

- لماذا فقط فاطمة؟ ألا تحبون الأولاد؟

- هذه مشيئة الله يا ابنتي، ثم لماذا تسألين، أتريدين أخا؟

ضحكَت بعدها بلطافة، وتناولت هاتفها من جوارها، ثم أخذت تقلب فيه منشغلة عني، كأنها تريد أن أنهي الحديث، أو ربما أرادت البحث عن خبر ما لتغير به مجرى الكلام.

ربما طرقتُ الباب الخطأ، ولكني خرجتُ بسلام، سأقف عند ظنها بأني أريد أخا. لم أعد لسؤالها، ولكني بقيت على غير سجيّتي في ذلك الأسبوع، فانتظرت من أبي إشارة لأبدأ الكلام، وأروي ذاتي لأتخلّص من عطش أصابها من حرّ سؤالي، استمر بي هذا الحال واشتد العطش بأن أكلمه، وَحِيلَ العطش عُطاشا، ورغم هذا كنت في كل ليلة أتناول إحدى الرسائل وأقرؤها مجددا وكأني لا أريد لهذا الشعور الذي بداخلي أن يبرحني، أردت أن أعيشه وأتفحصه وأتذوقه، أردت ما كان به أبي، فقد كنت شبه أكيدة بزوال شعوري هذا عندما أجلس معه ويفصِح مكمون رسائله ... هو بارع في مثل هذا ... فاستمتعت بالجوع والعطش قُبيل اجتماعي الوشيك به، تماما كما يفعل الصائم عندما

يجلس قبيل وقت الإفطار أمام أشهى الطعام، وينتظر أي صوت يصدر من مكبرات الصوت في المساجد مجيزة له ما لذ وطاب من نعمة الله وحسنات الرحمن. ونادى المنادي، ومَثَلتُ في تلك الليلة بين يديه بكل جوارحي، وأهديته إحساسي وإصغائي عندما بدأ الحديث حول الرسائل ومكنون القصائد، وكَشْفَ الأحداث المختبئة خلفها.

كان مساء الاثنين، جلسنا إلى طاولة المطبخ ننتظر وجبة العشاء، خيّم الصمت على أبي، وأنا لبثت أنظر إلى الطاولة مطرقة رأسي أتقفى أثرا عليها، كما لو كنت أسعى خلف أناس مرّوا على سطحها، فقد كانت زجاجية السطح وتحمل من آثار الأصابع والأيادي ما لا تفوتك ملاحظته، ورغم عيبها هذا، اختارت أمي ألا تغطّيها بشرشف أو ملاءة، لألا تخفي جمال الزجاج الذي يتخلّله بلورات صغيرة، أشك لجمالها ورتابتها أنها من صنع الإنسان، وفَضَّلَتْ تكرار تنظيفها وتلميع زجاجها، كلما سنحت لها الفرصة.

جلسنا بترتيبنا المُعتاد، أبي برأس الطاولة، وأنا على يمينه، بينما أُمي من الجهة المُقابلة من الطاولة أزاحت كرسيها إلى الخلف قليلا، يحول دونها والجلوس جلب الصحون ووجبة العشاء من ركن المطبخ، حيث تنبعث منه وتسبقها رائحة الطعام الشهية التي يتبعها الجوع اللذيذ في نداء البطن واستعداده، وقد بدت مستاءة بعض الشيء، لكن أحدا لم ينتبه لذلك بكامل الجد، فقد اعتدنا على مزاج أمي المتقلب كشتاء البلاد، واعتدنا على خلطها أمورا من شأنها وطبيعة حالها الانفصال، إذ طالما سمعتُ أبي ينبّهُهَا بأن تُبقي مشاعرها حيال ما يحصل في العمل خارج البيت، أراد أن يكون البيت -في ساعات المساء على الأقل- مرقد راحة، لا ساحة اعتراض وبرلمان تشريع لكل سحابة عابرة. إلا أنه هذه المرّة لم ينبس عن بنت شفة، بل أخذ يحرك ملعقته بكأس الحساء فور وصوله إليه واستقراره من يد أمي أمامه، وكأنه يريد الهروب من أفكاره، وقد لاح عليه بعض الهمّ والتعب، وحدي كنت بحيوة أكتمها داخل صدري في ذلك المساء، فأخذني المشهد إلى يوم أخبرني بضرورة بدأ الطعام بالحساء، أو بكوب ماء، لتتهيأ المعدة لدسم الطعام، كان ذلك في رمضان قبل بضع

سنين، ما كنت لأتذكر هذه الكلمات لولا أتبعها حينها بجملة وهو يرفع نظره إلى لا مكان، في منظر غريب، كأنه يكلم أحدا ما جثم أمامه، جملة أدركت لاحقا أنه نهلها من ماضيه، وأنه وجهها لنفسه، فليس هذا الذي تخيله أمامه ونظر إليه الا هو - "نعم! كذلك هي حياتكَ، ستتعسّر إن بدأتَها بدسم الدنيا، كيف وإن لم تملك الأسنان بعد".

هو ذاته ذاك الرجل ... كأنه لا يتغيّر ... لقد ولد كبيرا ... وكذلك حبي له ... لا أتذكر متى بدأ، ربما مع أول خفقانٍ لفؤادي، أو ربما كان أزليا، أدركته عندما سقطتُ فور ولادتي بسحابة وردية، بين عدة سحابات صُبغت بجميع ألوان المودّة والعطف، وما انفكت إلى الآن تجذب إليها عصافير المودة المغردة الصغيرة، من فؤاد والدي وقلبه الحنون ... أيقظني من تفكيري هذا شعور أشبه بالذي ينتابك فور ظنك بأن أحدا ينظر إليك ويراقبك، تلفّتُّ إلى أمي، وقد كانت مقبلة تحمل بيديها صينيّة يعلو منها البخار، فأعدت انتباهي ونظري إليه، إلى أن رفع رأسه ووقعت عيناه عليّ وابتسم، كانت ابتسامته بصيغة سؤال إن كنت قد قرأت الرسائل، وعلى الفور أهديته ابتسامة مشابهة وألقيت على

مسامعه جملة غير مسبوقة بحديث، وقلت له بأن الرسائل جميلة جدا، ولأعبِّرَ له عن إعجابي، استدركت الكلام وسألته إن كان يُمانِعُ أن أنتهج نهجه بالكتابة. وهناك رأيت تساؤله باقتطاب حاجبيْهِ، وإمالة رأسه قليلا، فاخبرته بأني عازمة على كتابة رواية مستوحاة من الرسائل. ابتسم ولم يُبدِ مانعا، بينما أمي لم تسأل كعادتها عما كنا نتحدث أنا وأبي!

أنت لم تكن واضحًا برسائلك! لكنّي رأيت روعة وصدق الكلمات، رأيت النغمات والأدب بالقصائد، أدهشني ذلك، أنت بارع يا أبي، لكن من تلك التي كتبت لها كل هذا - همست له أميل بجسمي نحو موضعه - ولماذا لا زلت تحتفظ بالرسائل؟ ألم ترسلها إليها، أم أعادتها هي إليك؟ ثم تتابعت أسئلتي لأبي بعد أن أفضينا جالسين بمكتبه بعد وجبة العشاء.

كنت أريده أن يتحدث، كنت أنتظر من أعز أصدقائي وأكثرهم صمتا أن يبدأ الكلام ... تكلم يا أبي ... أسيأخذ مني العمر كله أن أسبر معانيك ... تكلم يا صديقي ... رأيت علاقتي وأبي علاقة نادرة، نسيت بكثير من المواقع والمواضع في ظلها أنه أبي، وشعرت

بداخلي دائما بأنه صديقي القريب جدا، إذ كان يمتاز بالقبول والتغافُل والتِمَاس العُذر، وهي خصال علمني إياها فعلا وقولا، فدأبْتُ على الاقتداء بها، لا بل رأيت في هذه الثلاثية سحرا يخلق المحبة وينميها حتى في وسط صحراء جرداء فوق الكثبان، ويجعل الماء الأُجاج عذبا زلالا، وبها لن تواجه أي صعوبة بأي علاقة اخترتها لتربطك بأحد.

محظوظة أنت يا فاطمة ... محظوظة بأب بمركزه واهتمامه ومحبته وتفهمه ... أكثر ما أحببت فيه هو صدقه وتفهمه، فقد كان يفضي إليّ بأمور لا يفضي بها أي أب إلى ابنته، وما كان هذا إلا ليُعزّز من ثقتي به، ويشعرني بالطمأنينة على الدوام، وما أحوجنا للطمأنينة، وما أحوجنا للسلام في هذا الزمان وهذه البلاد التي لا تستريح ولا تطمئن، وكأن التوتر فيها حركة كونية كبزوغ الشمس من المشرق، أو اختلاف الليل والنهار.

رغبتي بكتابة الرواية أو الكتابة عموما، مصدرها هو قبل الرسائل، فكثيرا ما رأيتُهُ يكتب ويقرأ، وكثيرا ما أطال جلوسه إليّ في صغري ينظر إلى الحروف الأولى التي أكتبها، هو من علمني أنّ

قبل الصفر أعداد سالبة حين كنت بالخامسة، فانطلقت خيول حبي للأعداد والأرقام لحظتئذ، وأحببت بعدها الأقلام والكتب، حتى الصفراء أوراقها والمتهالكة منها، لأنه أحبها، لكن حبي للكتابة، كان أكثر ما أجّجه بقلبي وفجّر ينابيعه بخافقي، هي رغبتي في أن أهديه ذات الشعور بالسعادة والفخر الذي يغمرني في كل مرّة أنظر فيها إلى كتبه التي كتب في أولى صفحاتها "إلى فاطمة".

بأدب وابتسامة وجّهتُ كلامي إليه وقلت له: أودُّ أن تكون الرواية واقعية أقرب ما تكون إلى الحقيقة، إن شئتَ كتمتُ بعض الأمور والتفاصيل، أخبرني فهذا حقك، وأريدك أن تعلم أنني ربما أضيف عليها من خيالي، أو أجري على الأحداث بعض التعديلات اللازمة، سواء على المواقع أو الشخصيات، حتى لا أمسّ بخصوصية أحد. أدركت أن هذا سيقنعه ... صدقا، لا أعتقد أني بحاجة لإقناعه، فقد أرادني مثله ... ثم أضفت: طبعا لن أنشرها إلا بموافقتك في نهاية المطاف.

وكان هذا تعهدي قبل أن يبدأ أبي الكلام موافقا على اقتراحي، ومُتيحا لي التجوال براحتي في ذهن من دارت روايتي في فلكهم الشائك الشائق ... فطفقت أطوف بين كلماته وخلف عوالمها، لأجلب من مكنونها خيوطا أنسج منها روايتي ... روايته ... حكايته التي أدهشتني حدَّ العُجاب، وأبقتني في مكان لم أتخيل ولم أرَ نفسي فيه يوما، فاغرة فمي، أقف عُرضة لأمواج التساؤلات الفارعة، تلاطم وجنتي الناعمة، وتبلل ثيابي الطفولية، تاركة إياي في قبضة الريح، مُعلَّقَة بين محبّتي له وإعجابي الشديد بشخصه، وبين قلقي وخوفي مما أشهده من إزالة الستار عن شخصية رجلٍ أعرفه بأدقِّ التفاصيل، وجميع الجوانب، إلا ذلك الجانب الذي سيظهر ويتجلّى أمامي عما قريب، ليخبرني بلا تريّث ولا انتظار... مؤكدا جهلي وعدم معرفتي بذات الرجل ... وجميع التفاصيل!

الجُزء الأوّل

الـرّواية

سافر من نفسك إلى نفسك أيها السيّد، فمن هذا السّفر
صار التّراب منجمًا للذّهب.

الرّومي

عمر

مرت الأيام لا أدري كيف، لكني لا زلت أشعر بخطواتها الثقيلة على صدري، وأعباء خلّفتها فوق كياني، لأحمل بؤسها بين راحتيَّ، عشتُ كل تلك السنين بقلب مكسور، كدت أعتاد عليه، لا بل أردت ذلك في لحظة ما وتمنيته، أردته بعدما فقدت الأمل بخلاصٍ من الدائرة التي وجدت نفسي فيها، ومن النفق المظلم الطويل الذي لم أرَ فيه بصيص أمل يوحي بمخرج، وكأن نهاية هذا النفق التصقت ببدايته فلا مخرج منه، لتدور فيه إلى الأبد. دكدّست محتمات الحياة عليّ فوق بعضها كظلمات في بحر لجي، وحاز التعب جوارحي وعمل فيها كما يعمل المنشار في الخشب، والمنجل في السنابل الذهبية، لا قوة لي لمحاولة أخرى، ولا حول لي ولا طاقة لما أعانيه وأكابده، وقد أنهكني الإخفاق، وشدتني بأرض البؤس خيبات الأمل، لذلك اخترت مرغما الإذعان والاستسلام، بعدما فقدت روح القتال وحب المنافسة والتصدر، فأودعت أسلحة العزيمة مخزن الإحباط، واحتفظت فقط بدرع يوفي غرض الإستمرار، درع المضي في حياة حتما ستنقضي يوما مسدلة بانقضائها على البؤس ستارا، لتعلن بهذا

نهايته -البؤس- أو تقضي إحالته لآخر، وسيزول مع انقضائها كل إحساس.

تمنيتُ لو أنام سنين فأصحو وقد حط عني الزمن أحمالي وأوزاري، أو أصحو لأجدني طفلا صغيرا لا يبالي، أصبحت أماني المعجزات أنيسي الوحيد، فدأب ذهني على زيارتها مقلّلا من روابطي بواقع سقيم، ومن علاقاتي وأصدقائي وزملائي، وحتى رغبتي في الوجود في مكاني هذا. لا مهدئ لإحباط يشاركك الحياة ويقاسمك الفِراش، ولا تملك خلاصا منه غير الإيمان والرضا ... هذا نصيبك يا عمر... أذعن للقدير، فهي ليست المرة الأولى التي تقسو بها يد القدر عليك ... قد ترأف بك ذات اليد يوما، وتُبدّل أيامك ولياليك وأحوالك للأفضل، وإلا فما معنى الإيمان؟

وقفت يومها أدخن سيجارتي بالخارج بين مباني الجامعة، وكانت لحظة سأهرول بعدها إلى سيارتي باتجاه البيت الذي لا أريد. كانت ساعات المساء تدنو جالبة معها وقت رجوعي إلى البيت، اعتدت أن أبقى لهذه الساعات بالجامعة هربا من واقع مرير، واقع دفعني إلى مزيد من حب الجامعة، وأروقتها وكل شيء فيها،

واقع يدفعك لا محالة إلى التأمل، وملاحظة كل حصاة في هذا الكون الفسيح، من شأنها حرق الوقت أو انتزاعك من ذاتك ونفسك المُرهَقة إلى لا شيء ... تُرى كم شهدَت هذه الجدران تعساء وبؤساء، وتلك البناية الشاهقة تعلو جبل الكرمل، هل تلاحظ البشر، أم أنها أخيذة جمال البحر الذي طوقها في أجمل منظر رسخ في ذهني ليرأب قلبي الجريح، مع كل لقاء لنا ... كم هذا المكان مريح ... ليس عليك الصعود لأعلى البناية لترى البحر على بُعد بضع كيلومترات منك، فيسبح إليه بصرك في فضاء صاف، ويرجع بعدها محمّلا بأكوام الراحة ... يكفيك الجلوس على العشب خلف الجامعة من جهتها الشمالية الشرقية، لتهديك الطبيعة بِدَورِهَا وإجلالا للكرمل، فضاء نقيا يأخذك فيه الجمال إلى البحر، فوق الأشجار وخليج عروس البحر حيفا، حيث تَمُدّ قدميها في البحر، ويلاطفها هو بأمواجه، ويبدّدُ وحدتها بأخبار تتناقلها السفن، آتية بها عبر جوفه من الغرب السحيق.

في تلك اللحظة تسلّل إلى قلبي شعور بدا غريبا لوهلة، لكن حلاوته، وانقشاع غمام القلب في إثرها، أكدا لي حميميته ودفأه، فتساءلتُ لمَ عليه التسلّل؟ كنت لأرحب به أجمل الترحيب لو

أعلن، فهو أنيسي الذي غادرني من سنين خلت، وأعوام مضت، وهو ليس غريبا، ولا ليكن ما أتخن بي غيابه الطويل، أقبَلَتْ إليّ بابتسامة كأنها إشراقة شمس بكهف اعتاد الظلمات، وألِفَ الليل وقتامه، ونَظَرَتْ إليّ بذات العينين البُنّيّتين، اللتين كتبتُ فيهما أجمل قصائدي لاحقا، كانت تقترب مني مثل شاطئ بحر هادئ، تعلوه سماء صافية، يسطع فيها بدر جلي بليلة دافئة من ليالي الصيف، جالبا معه الحُسنَ في صباها، ولوحة لأبهى صور الحياة. لا زلت أذكر جمالها وأناقة ملابسها، ارتدت حينها قميصا أبيض تتخلّله خطوط وردية، وبنطالا أزرق قريبا إلى السواد، ومع كل خطوة تقترب بها إليّ بقامة جميلة، وقدٍّ ميّاسٍ ممشوقٍ كما يصحُّ، ومُكتنزٍ حيث ينبغي، يتّضح جمال عينيها البنّيّتين أكثر وأكثر، وقفتُ معلّقا نظري إليها، أتلقّف من جمالها موجات تصيبني في كل موقع، كقابع تحت صَيِّبٍ نافع، دون غطاء أو سماء، كما ينبغي لي أن أكون، وقد زاد من الحُسن حُسنا شعرها الأملس بلون الليل، الذي أسدلَ على ابتسامتها أبهى أمسياته، تلك الابتسامة التي تجلّت أكثر مع اقترابها بوجهها الأبيض

المستدير ... وما هي إلا لحظات ... حتى طويت المسافة بيننا سريعا، لأستيقظ من حلمي على وقع صوتها الرقيق تقول:

- مرحبا استاذ، كيف حالك؟ بتتذكّرني؟
- أهلًا نور، بالطّبع، بتذكّرك!
- إنت بتتذكّر اسمي كمان!
- الصراحة، ما كُنتِش أعرف اسمك لَحَتّى أتذكّره، خمّنته من لائحة أسماء الطلّاب يلي بعلِّمهِن لَمّا شُفتِك بيناتهِن بدرس اليوم.

عاودَتِ الابتسامة، لكن بذهول بدا جليًّا بِرَفع حاجبيها الرقيقين، وإمالة قامتها الهيفاء للخلف قليلا، فأهديتها ابتسامة رقيقة لتُبَدِّد ذهولها فتستدرك الكلام، لتضيف مبتسمة بعد اعتدالٍ مُمِيلة رأسها: "لم أكن أتوقع أن أراك ثانية، لكني لا زلت أتذكرك بلباسك الأنيق أيام المدرسة، أنت لم تُعلمني حينها لكني أتذكرك، كان الجميع يتحدث عنك ويذكر روعتك".

أردت أن يستمر الحديث، أردتها صديقتي القريبة في ذات اللحظة، تلك التي أُفضي إليها وأحدثها مليا، شعرت باحتياجي

لهذا الجانب، شعرت بوحدتي ... كم أنت وحيد يا عمر... ألهذه الدرجة! ... لكني إذ شعرت لوهلة بأني حيٌّ، لم أشأ أن أفسد هدية السماء لتلك الليلة، فهززتُ رأسي برفق أشكر الخالق، وأودّعها بعدما عرضتُ عليها أن تسألني إذا احتاجت أي مساعدة بتعليمها، ثم استدرتُ وهممتُ متّجها نحو سيارتي، بعد تمنياتي لها بالنجاح.

في طريقي القصير إلى موقف السيارات، رافقتني صورة عينيها وثغرها الباسم، وأنا ألعب برزمة مفاتح من جملتها مفتاح السيارة، فتساءلتُ خلف أفكاري عن قولها اللطيف "بلباسك الأنيق". أتراها قصدت ذلك، أم هو على سبيل المجاملة! ما ألطفها!

كانت تلك الليلة استثنائية، أتَتْ كغيث شقّ حرّ صيفٍ طال مكوثه بشمسه الملتهبة فوق وجداني. عدتُ أثر لقائي بنور إلى البيت، وجلست بزاويتي المعتادة من غرفتي، على كرسي منفرد تقابله طاولة صغيرة مستديرة، تعلوها منفظة زجاجية مربعة الشكل لا تخلو أبدا من بقايا سجائري، أمسكتها بيدي أدنوها إلى ناحيتي على الطاولة، ثم أشعلت سيجارة وهربت بأفكاري أتطاير

وأتمايل مثل الدخان المنبعث منها، وسبحتُ بتخيُّلاتي التي تمنيتُ أن أحوّلها إلى واقع، وكنت أدرك أن أمنياتي وتخيُّلاتي ما هي إلا هروب من واقع يُرهقني، تفعل فعل دواء مخدّر ليس إلا، لذلك قليلا ما كنت أكترث لمخيلتي، لكني كنت ألوذُ بها كثيرا بقدر هروبي إلى أوراقي، لأُطلق قلمي فوقها فيكتب أي شيء ... في كل كلمة مواساة ... والكلمات رحمة من الخالق ببؤساء تنتزعهم من واقع أليم إلى حيث المنى ... وما أشهى المنى، كرائحة الخبز المحمص والكوروسون المثخن بالشوكلاتة الشهية التي تنساب من أطرافه مع كل قضمة، تلك الرائحة التي ألفها كل طالب وأستاذ، لانبعاثها كل صباح من الكفيتيريا في البناية القابعة بطرف الجامعة من الجهة الغربية في ساعات الصباح، فتنعش مدخل البناية، وتدقّ ناقوس البطن فاتحة شهية الجميع باكرا. تذكرني هذه الرائحة بالمخبز الذي قبع على الجهة المقابلة من دكاني القديم في البلدة العتيقة، ورغم اجتهادي لأنسى تلك الأيام البائسة، إلا أني لم أنس كيف اختلطت رائحة الخبز مع ذلك المسكين الذي واعدها من كل صباح، تماما كما أواعد المنى ... قليل هم الذين ينتبهون للفقير خائر البطن، وما تصنع به هذه

الرائحة الشهية ... ما أفقرك يا فؤادي ... أتشبعك رائحة الخبز أيها المكلوم ... أذكر في تلك الليلة أني كتبت أُولى قصائدي بنور، ورأيت قلبي يرقص على نغمات أحرُفي، كفتاة صغيرة تتمايل على ألحان الحب، وأناشيد الوداد ... انطلق أيها الحزين، قد أُنيرَت لك الطريق وأُضيأت، انظر النور حولك يثني طبقات الليل، ويطوي الظلام، ويمسح على جروح الماضي بحنّية ورفق ... أأنت أنتَ ... الأمل الذي ضَيَّعت ... هب العمر تقلُّبا وتَغَيُّرًا ... ليته يقف على عين لحظتك تلك فلا يتغيَّرا ... كم أنت دافئ، وكم اشتاقت عيناي إليك ... ومع دفء مشاعري وسعادتي في تلك الليلة، أخذتِ الكلمات تنساب مني على قصاصة الورق، أمام قلب يرقُص حبا، كما تنساب مياه الجداول من ينابيعها فوق رؤوس الروابي والأطوار، في أخاديد خُطَّت لها، تحت أغصان الأشجار الفارعة الفارهة، وأوراقها الراقصة المتساقطة باتجاهها ... هكذا وُلِدَت الأبيات الأولى لنور، وحولها حواس مبتهجة جذلى، تحث على ولادتها باتقاد حبورها أناملَ سعيدة فرحة، مسرورة أيما سرور، ولدت ببراءة الأطفال، وجمال الشباب وهدوء الكهول

ولطفهم، ولدت لأُردّدها بتبسُّمٍ وبشاشة وغبطة، أكثر من مرة، بعدما أفضيت منها:

جَاءَت تُعَادِي الأَسَى فِي قَلبِ مُكتَئِبِ
بَانَت لَهُ فَكَأنَّ السَّعدَ لَم يَغِبِ

ألـقَت سَلامًا وَأجلَت دمعةً مَكَثَت
في مُقلتي فَنَسِيتُ المُرَّ مِن وَصَبِي

آيَاتُ لُطفٍ تَبَارَت فِي ابتِسَـامَتِهَا
وَالحُسنُ فِيهَا يَفُوقُ الوَصفَ فِي الكُتُبِ

مَـاذَا أقُـولُ إذَا قـابلتُ فَـاتِنَتِي
الحرفُ تَاهَ ورُشدِي ضاعَ من عَجَبِي

يا لسحر تلك الأحرف إذا رُتِّبَت لتحاكي ما اختلج به الصدر، وضاق منه الفؤاد ... من قال إن الأدوية مركبات وأعشاب فقط ... قد يكون الدواء قلما وقصاصة ورق!

توالت بعدها الأيام، وكُنت أرى نور في الجامعة بفترات متقاربة، تطرح عليّ السلام حينا، وتسألني عن المحاضرة بعد انتهائها حينا آخر، وقد بدا تعاملها معي مألوفا ولطيفا، لكني أدركت أن بنور إعجابا بي، كيف لا! وقد كان كل طالب يرى بمحاضر شاب شيئا من المُبتغى، ويتخيل نفسه بمكانه، أو تتخيله لها زوجا ربما، أو صديقا، علاوة على أن عينيها قالتا عنها الكثير، لكن إعجابا كهذا كان مألوفا لدي، ولولا مصدره نور ما كان هذا ليلفت نظري بقدر ما يفعله الطلاب الذين يشعرون بالجوع حيال نجاحات عالية، ويَهِمُّون صعودا اتجاهها. لكن هذا ما كانت عليه نور أيضا، كانت عطشى لإنجازات كبيرة، وتجاهلت كل شيء قد يؤخرها، كما اشتعلت بحماسة مرور الطريق الطويلة، نحو النجاح والتألق، وبرزت بحضور جليّ لا يخفى على ناظري، ولا يمرُّ دون أن يطرق باب فؤادي ويلقي عليه كَمًّا جَمًّا من أثير الشعور.

رأيتها مرة تدخل إحدى القاعات، عندما كنت أفرغ حقيبتي من محتواها منتظرا الساعة أن تأذن لي ابتداء محاضرتي، برزَتْ رغم عدد الطلاب واتساع القاعة، وسلبَتْ انتباهي لأدقِّ

التفاصيل والمزايا ... جميلة حقيبتها الزرقاء ... تُرى أي كتاب ذاك الذي تحمله بيدها ... يبدو كأنه كتاب حساب التفاضل والتكامل ... لماذا لا تضعه في حقيبتها ... في هذه اللحظة نظرتْ نور صوبي - كأنها سمعت تساؤلي، أو كأنها جالسة مع نفسي المتسائلة خلف جدرانها، قريبة لتسمع همسي وإياها - وهي تعبر بين الطاولات الخشبية، الملتصقة ببعضها تحاول الوصول إلى الوسط، أتت عيني بعينها، كسهم انطلق من يد أمهر الرماة، يتفادى كل شيء برشاقة وليونة إلا غايته، فأهدتني عندها ابتسامة، لم يقلّل من تأثيرها وجمالها ووضوحها انبساط وتمدّد المسافة بيننا، عندها تقلّص الزمن قليلًا، فبدأت المحاضرة قبل أن تأذن الساعة بثوان!

حافظت على تركيزي وسير المحاضرة، وليس هذا بالأمر العسير لتمرسي، لكني أيضا أبقيت لنور الحضور بعيني دون إبراز الأمر لها، وبالتأكيد لسواها ... جميلة أنت يا فتاة ... هذا ما كان قلبي يردّد في كل مرة يجول فيها نظري في القاعة بين الطلاب، ويمرّ بنور كما لو كان صدفة.

لله در حروف الضاد في قطَع

بين القصيد قد ازدانت بما اخترت

فيها تحيرت من حسن قد اشتملت

شافي النفوس وما في غيرها احترت

فيها الدواء ومنها روح كاتبها

أحيا كأني طويت الهم واجتزت

يا لسحر تلك الأحرف إذا رتبت لتحاكي ما اختلج به الصدر وضاق منه الفؤاد ...

انتهت المحاضرة ... انتهت سريعا ... وأذنت للطلبة بالانصراف، ثم أخذت أعيد أوراقي المتناثرة على الطاولة الرحبة أمامي إلى حقيبتي، التي تكوّرت بعد افراغها محتواها على المقعد بين الطاولة والصبُّورة، وفي هذه الأثناء، تقدّمت نور إليّ مع جملة قليلة من الطلاب، يريدون الاستفسار والسؤال كما جرت العادة، واختارت هي أن تقف جنبا، يفصلها عني متران أو أقل، منتظرة لينهي الجميع أسئلتهم فتكون هي الأخيرة، وقد سرني أنها فعلت ذلك، لرغبتي بإعطائها من الوقت ما شاءت، دون أن يعكر ذلك أو يحول دونه تذمر طالب ينتظر دوره بعدها.

استقبلتها بنصف ابتسامة، ورسمية خفيفة، ظهرت بعقد حاجبيّ كأني أتأهب لأسئلتها، تماما مثلما استقبلت مُسبقا أسئلة غيرها، أدركت فورها بأني بالغت قليلا، فلو كانت طالبة عادية ولا يخصها قلبي بِجُلّ نبضاته، لابتسمتُ لها أكثر، لذلك ضاعفت بسمتي وأذنت لحاجبيَّ بالنزول، وتحوّلتُ من العبريّة للعربيّة، لأشعرها بالراحة، فَذَكَرتُها باسمها إذ قلت:

- كيف حالك نور؟

- الحمد لله ... الله يسعدك دكتور!

هذه المرة شعرَت بالراحة، فاسترسلت وأطالت الأسئلة وتنوّعت، وسألَت عن تسلّق القمم، وسلّم النجاح، وقد تطرّقَتْ إلى مسيرتي التعليمية، تسألني عنها ببعض الخجل، بدت وكأنها فكرَتْ كثيرا في كيفية الطرح والسؤال، لكن أمرا ما أعاقها، فتابعت بأسئلة فهمت مرادها من حركات يدها، وجدّية بوجهها الصبيح ... ربما هو الإعجاب ... لا ... لا تتسرع أيها الظمآن ... ما هو إلا خجلها من مكانتك التي تفسد عليك القرب الوشيك ... أخذت أحدثها تباعا لأسئلتها. كان لدي الكثير لأتحدث عنه، نجاحات كثيرة تودّ التهامها، وتسمعها بشهية مفتوحة ... لكن ما هذا أرَدتُ ... أنت جميلة ودافئة يا صغيرتي ... همستُ بنفسي وأنا أنظر إلى شفتيها الورديتين، ووجنتها الملساء، وذقنها الأسيل وحركتهم البديعة مع جريانها بالكلام. بحديثي معها نبّهني قلبي أنه من المُؤسِفِ أن تنحصر علاقَتُنا بعلاقة طالبة بمحاضر، فقررتُ أن أكسر حاجزًا بيننا، وكان قراري سريعًا، دفعتني إليه لغة جسدها من حيث لا تظن هي، تمايلتْ بقامتها وعقدت يديها وتكلم كل موقع في وجهها الحسن كجوقة أتقنت أجمل

المعزوفات، وأروع الأناشيد، بإختلاف أن انسجامهم كان دون اتفاق منهم، كما لو غنّى كلٌّ على ليلاه، وقال قصيدته في الغنج والحسن والدلال، فكان قراري الذي صممت على تنفيذه فورا، وأقدمت دون حساب مسبق وبغير تخطيط وتفكير، لا مجال للرجوع بعد هذا الشعور، بقي عليّ أن أصطدم بالماء بعدما ألقيت نفسي من أعلى الجبل نحو البحر... حمقاء هي القرارات السريعة ... مخجلة كذلك ... لكنك -في لحظتها- تظنها الأفضل دائما إذا هواها قلبك، واستساغتها نفسك ... إن الجائع يشتهي كسرات خبز جافة ... لكن حتى كسرات الخبز قد تَفِي بالغرض ... قُلت لها حينها أنني على عجلة من أمري، وأني أودُّ أن أتم حديثي معها لاحقا، وإذا ما فرغتُ من أمري يسعدني الكلام معها، وبتردّدٍ حاولت قدر المستطاع إخفاءه، وتلعثم عزّيته بالتحديق جانبا وبانشغال فكري بأمر تركت لمنصبي ووظيفتي والرياضيات أن يخبروها ما هو، وأظنني أحسنت. سألتها عن رقم هاتفها لأتصل بها إذا ما فرغت باكرا.

كان سؤالي مباغتا لها، رأيتُ ذلك خجلا وَرَّدَ خديها، وبعض ارتباك منها ... ربما تتساءل لماذا قد يتصل بي أو يهتم، ليس هذا

من الفروض ... أعطتني رقمها ودونته على هاتفي، واتصلتُ بها ليظهر رقمي على هاتفها. ظهر عليها بعض القلق، أو ربما الإرتباك حينها، لم أدرِ مما بالضبط ولم أشأ التفكير بهذا ... أو ربما كنت أعلم ... لكني تناسيت كيف يفكر طالب أمام أُستاذه ... طالب لم يتجاوز الفصل التعليمي الأول بعد ... لم أرهق نفسي بنكش الماضي، فقد مرّت عليّ سنون ضاعفتها أحمالي التي لم تكن بسيطة لترهق ذاكرتي الضيقة أصلا، مع هذا فإني أدرك أن طَلَبًا كهذا وإن كان لطيفا، فقد يبدو غريبا بعض الشيء من محاضر، كم بالحري إذا كان شابا، مع ذلك فقد أفاد طلبي بالغرض، إذ كسر الحاجز الذي لم أرغب به، لكنه كسر معه أيضا أمورا أخرى، وخَشيتُ أن تكون الثقةُ في بَوتَقَةِ تلك الأمور.

لم اتصل بها بعد لقائنا هذا، إذ لم يكن هذا هدفي، فكل ما أردت هو كسر حاجز الأستاذ والطالبة، وأن يكون بحوزتها رقمي على أمل أن تتصل هي بي، فهذا أسلم لمثل علاقة كعلاقتنا التي لم تولد بعد سوى في خيالي وأمنياتي. لاحقا أخذت أراجع نفسي بما فعلتُ ... يا لغبائي ... ماذا دهاني ... ما هكذا تورد الإبل يا عمر ... وماذا صَنَعتَ! كل ما هناك أنك طلبتَ رقمها ... ماذا في الأمر،

نحن في بلاد منفتحة وحولنا اليهود يفعلون أكثر من هذا، أما تراهم يلاعبون بعضهم البعض في الساحات العامة، ولا يتوانون عن القبلات الحارة أينما كانوا، ما فعلتك إزاء هذا ... يا لتعقيداتي ... ربما أتناسى!!

المثير أن الذي حصل هو ما قلقتُ منه لاحقا وتوقعتُ حدوثه، لقد أصبحتْ تتجنَّبني، وتتفادى لِقَائِي، حتى أنها لم تعد تحضر إلى المحاضرات كالمعتاد، وإن حضرت لمحاضرة فقد حَرِصَت على المغادرة قُبيل انتهائها، كيلا يكون مجال للكلام بيننا. حاولَتْ عدم اظهار تصرفها هذا واعتدالها عن عادتها، أمّا أنا فقد انتبهت للتغير الحاصل وما تفعله نور، والتزمتُ الصمت والتغافل حتى أضناها ذلك ... رهيب فعل الصمت ... فكان اليوم الذي تمنيت.

في ذلك المكتب غرقتُ بالتفكير بشرارة الانطلاق من الأعداد البسيطة والمعادلات إلى علم الجبر، فَرَاقَ لي الإسهاب في التمعّن بحياة ذاك الألمعي وكيف نجح عصره في الكشف عن مسائل ومفردات استباح عقله تفكيك شيفرتها وترتبت على ما هي الآن عليه من علوم وأدوات ... لولا اكتشافاتهم ما كانت لتضيء

شاشة الحاسوب على مكتبي الآن ... مذهلة هذه الآلة رغم انزعاجي من حجمها ولونها، فقد حازت مكانًا على يمين الطاولة، تُعاند بلونها الرمادي المائل إلى البياض نظافة الغرفة ... لطالما لم يعجبني ذلك اللون ... أيعقل أن هذه العلبة الذكية تحركها الأعداد والرياضيات ... وبينما أنا أتجوّل على محور الزمن تارة في غابر الماضي وتارة في حاضري والمستقبل، أخرجني للواقع رنين جوّالي المفزِع، يعلن انتهاء الرحلة التي أحب، وباستياء نظرت إليه فأنستني أحرف قليلة وأرقام ظهرت عليه كل استياء. استبدلتُ شعور الإستياء بالرضا، لا بل بالسعادة والدهشة، وما تَنَبَّهتُ لهذا ولا تذكرته إلا لاستمرار ذات الشعور المختلط بعد انتهاء المكالمة، فقد شُدّ قلبي وذهني إلى تلك الأحرف التي كَشَفَت على شاشة الهاتف الرقمية اسمها الجميل الأنيق المتناسق مع أي مكان وأي لون، فأسرعت متناسيا كل ما أحاطني أو اعتراني، أخيذَ الدهشة والفضول والسعادة، لألقي التحية مُخفيا وراء هدوء صوتي واتزانه كل أحاسيسي ومشاعري وما اختلج بصدري:

- أهلًا نور

- أهلا أستاذ! بتتذكر إنّك عَرَضِت عليّ المساعدة؟ أنا بحاجة لمساعدتك بمادّة الجبر، مستصعبة شوي، طبعًا إذا فيهاش غلبة.

قالتها بِرِقّةٍ وارتباك شديد، فتسنّى لي أن أجيب بكل لَطَافة تُشعِرها بالراحة التامة، ضاربا عصفورين بحجر واحد، إذ أردتُ منها أن تتكلم وتقول ما تريد بكل أرتياح، كما أردتُ شعورها بذات الراحة حين اللقاء، فأوحيت لها إمكانية حدوث ذلك ... ما أجملها من مكالمة ... رغم قصرها ... أعادت الأمل والنور ... وأزاحت جبل القلق وفرَّقت حيرتي شذر مذر... هي ليست منزعجة ... ومع انتظاري اليوم المرتقب للقائها، سرى بحواسي سرور بِغَدٍ مشرق، أشبه بشعور يربو بصدر صَبيٍّ ينتظر أمه أن تصحبه إلى دكان الألعاب، وفاء لوعدها له قبل أيام، حَسِبَهَا هو أعواما لفرط شوقه وفيض اشتياقه للدكان.

جاء اليوم الذي دخلت نور فيه مكتبي ... ادخلي ... قلت لها بعد أن طَرَقَتِ الباب برقّة فتاة صغيرة لم تبلغ الحلم بعد. ثم شقّت الباب ببطئ تنتظر كما أنتظر المشهد في الجهة المقابلة، وتريَّثَتْ

قبيل دخولها تنظر إليّ خلف طاولتي في الجهة المقابلة لها، غير بعيدٍ عنها، فأرسلت رجلها اليمنى أمامها ودخلت، ودخل معها النور إلي، وبخجل جليّ ألقَتْ التحية بعدما دنت قليلا من مكان جلوسي، وانتصبت واقفة تتأبّط كتابين وتحمل حقيبتها على ظهرها، وانتظرَتْ أن أتسلّم زمام الحديث، وآخذ عنها عبء أول لقاء، وبداية الحديث والكلام، فرددتُ بغبطة أكتم جلّها سلاما، وألقيت عليها التحيّة تباعا، وأشرت لها إلى الكرسي أن تجلس.

هاتيك الجلسات التي كنا نجلسها لأقدّم لها المساعدة في مادّة الجبر في مكتبي، بدأنا نَألف بعضنا، وبدأتْ بعض الحواجز التي جثمت بيننا تتلاشى وتختفي، وسريعا غدا أمرنا وبان شِبْهَ مؤكد، هي تريد ذلك، وأنا لا أخفي أمري، لكن انتظرتُ أن تهديني المحادثات والابتسامات في أحضان الأجواء الهادئة المطمئنة فرصة أكيدة للقرب، والكلام المباشر في لُبِّ المُراد. لكن بقي شيء ما، لم يتجانس وقلبي، شيء كان يُشكّل حاجزا لها، ويصدّها عمّا ترغَبُ وأرغَب، يلزمها مكانها فلا هي ظافرة ما تريد، ولا هي على دربه سائرة، ما تراه يكون ... أدركت ما هو عندما سألتني عن صور الطفلة التي على مكتبي، قلتُ هي بُنيّتي "فاطمة" ... ولم

أنتظر منها جوابا، ولم أتوقف، بل التفتُّ إلى الصورة تبرق عيناي حنينا، وتلبسني ابتسامة الأبوة، وقلتُ هذه فاطمة الجوريّة، وملاكي الصغير. ثمّ أعدتُ لحُسنِ نور انتباهي، لكنه تغير، إذ تلبّدت في سمائه غيوم الارتباك، لتمطر قولها بمزيج من الخيبة "أنا لم أعرف أنك متزوج، لا شيء يدل على ذلك."

قالتها بألم جليٍّ، وبحيرة بدأت تتسلل إلى قلبها ... أهي لحظة تبخر الأحلام، أفي محراب المُنى ضريحها ... لا تقلقي يا صغيرتي، لن أتوقف هنا، لن يمنعني خوفي ولن يثنيني جرحي، كيف سيثنيني وهو ما كشف لقلبي سناك ... أمهليني رويدا ... وَجَدتُ بسؤالها الباب الذي قررتُ أن أدخُلَهُ، وإن بدا سيئا جدا، فقد رأيت دخوله أفضل بكثير من ترك الحديث لينتهي بحيرتها وارتباكها وهالات الآلام. أنذرَتْ تعابير وجهها بساعة اتخاذ القرار... إما أن تبقى على ما أنت عليه يا عمر، وإما أن تطرق باب المجهول ... نور أمامك ... وهي كل ما تريد ... ترجّل يا صاح، فما زاد حالك حال، وليس الأمر بالمحال ... أطرقتُ رأسي بعد تنهيدة من صدر رجل حمل الجبال، وصبر صبر الجمال، وعلّقتُ بصري على ذراع كرسيها بجواري، وشَرَعتُ الحديث، وعندما رفعت رأسي أنظر

لوجهها الجميل، رأيت المسافات تتقلص بيننا ثانية ... أما زال الحلم ... ربما هو الأمل ... حدّثتُها عن بيتي وعائلتي وأبديتُ لها من الحزن الذي حملته، وبصعوبة بدت عليّ، وكلمات بلعتُ منهن أحرفا، صارحتها أني أرى فيها الأمل!

لم تستطع إخفاء الصدمة، وملامح الدهشة ... أما كانت تتوقع ذلك! ... وقالت حازمة:

- هذا شيء مستحيل، كيف، لا يمكن، أنت متزوج! عُذرا، عليّ المغادرة الآن.

مع ذلك لم تفعل، وبدا عليها الإبطاء بلمّ أغراضها من على مكتبي إذ تلكّأت، ولاحظتُ ذلك وأنا أنظر بشيء من الحزن إلى بعض الأوراق أمامي، لا لشيء حزني، إلا لخيبة الأمل والرجاء ... مرتبكة أنت يا فتاتي ... قد لا أقول لها فتاتي ثانية ... ما بال القدر يسوق إليّ الأريج ويهديني بعده الشوك، أليس الأريج إعلان الأقاحي والتوليب وجميل الزهور وأحلاها؟ ... أدركتُ حينها أنها تَوَدُّ سماع كلمة "ابقي"، لكني آنها لم أقل شيئا، والتزمت الصمت ... قد أكون مخطئا ... لكنه الصمت ... الصمت يا عمر، صديقك

الأثير... لُذ به فما خيّبك مرة، وما ندمت عليه مرة ... انتَهَتْ من لمّ اغراضها، وحملت حقيبتها، تهمّ بالذهاب متّجهة صوب باب الغرفة، ثم توقفَتْ بمرمى خطوة من الخروج ... هي لحظات ويسدل الستار، وتعود إلى كهفك أيها المسكين التعيس ... لكن عودتك هذه المرة ليست لحال سابق، بل هي أسوء، فقد خسرت الأمل ... هي خطوة ويُدَقُّ المسمار الأخير في نعش حلمك ... ستشيِّعه إلى الأبد، وستجلس في كهفك تضم ساقيك الى صدرك، معطيًا فتحة كهفك المظلم ظهرك، فلا تفكر يوما بالخروج ... كانت واثقة بأني سأقول لها شيئا، ولم أفعل ... ولماذا أفعل ... بائس أنا ... والخسارة ليست بجديد ... عادت خطوة إلى الوراء، وافتعَلَتْ سؤالا أزال عني غيمة البؤس التي غطتني للحظات، والتي حجبت شمس الأمل عني، وخلتُ خلفها القدر يقتله، كما بدّد الدجى وامتصّ الظلام، فاتسع المكان، وعدت لأرى الأمل يشرق من جديد ... الأمل ... أتختبرني أيها القدر... أرجوك، ما عدت أحتمل.

- لماذا لا تتخلّص ممّا أنت فيه أوّلًا قبل أن تنطلق لشيء جديد؟

قالت كلماتها هذه معاتِبة أكثر منها سائلة ... وما أجمله من عتاب ... وما العتاب بجانب العذاب ... أدركت حينها أنها لا تريد المغادرة، أو تريد لحظات أخرى بجانبي. فتح سؤالها هذا باب الحديث بيننا، فتعلّلتْ قائلة بعد سؤالها:

- لا أريد أن أكون سببًا في مشاكل قد تواجهك.
- عن أي مشاكل تتحدّثين؟
- قد يتطور الأمر، لا أريد أن أكون سببا في مشكلة محتملة في بيتك.
- المشكلة موجودة، وربما تكونين السبب في خلاصي.
- قد لا تسعد!
- لست بسعيد يا نور، لكنك قد تساعديني على أن أكون كذلك.
- أتظنُّ ذلك؟
- لا أظن! بل أجزم!

قلت هذا وأهديتها ابتسامة سلبت منها حيرتها، وحولت الحديث إلى حيث تشتهي القلوب، وتطيب النفوس، إلى مكان ينهل الثغر

منه جميل البسمات، فطال لساعات، تمنيت لو يقف العمر على ناصيتها ولا يتقدّم، أعجبتني بها كل هذه الشجاعة والقوة، سألتني إن كنت قد لاحظت تغيّبها عن المحاضرات مؤخرا، وسُرَّتْ لصدقي عندما أجبت بالإيجاب، وأضفت وهل يخفى على البشر غياب الشمس ... أنت يا فتاتي تُشرِقين ... ما دافعك؟ ... عجيب أنت يا حب ... لله أنت يا قلب!

بعد مرور الأيام وتوطيد العلاقة بيننا أخذنا نرسم لوحة جميلة لقادم أجمل. أعجبتها مهارتي بتقديرها والتعامل اللطيف معها، فاجأها أن هناك رجلا يُتقنُ ذلك على أرض الواقع، وليس فقط في روايات العشق ومسلسلاته وأفلامه. وعدتها حينها أني سأحبها حبا لا وجود له في الروايات، وحتى في الشعر قديمه وحديثه، وكنت جادا وأكيدا، وبدت عليها بعض التساؤلات، وأحاطها كثير من الحب واللهفة، فلزمتني ساعات، وتقلّصت دائرة أصدقائها ومعارفها مع الأيام، وفي ظل هذا، لم يكن حبنا إلا ليتضاعف بوتيرة عالية، ويطير في رحاب سمائه طائر الأماني، سعيدا بتجواله، ليهبط على قممه ... وانطلقتُ ونور أشبك يدي بيدها في أرض الهيام، وبستان الغرام، تنظر إليّ، وأنظر أنا إليها تارة،

وتارة أخرى لأبعد نقطة يصل إليها قلبي، على امتداد درب الصبابة، وحدّثها فؤادي برحلتنا الطويلة العذبة، وأخبرها بِوِجهَتِهِ ومرماه ... إلى حيث لم تطأ قدم ... ولم يصل بشر ... نعم يا صغيرتي ... لك كل هذا وعليه أضعاف آتيه ... وسبقتني نور تقفز أمامي حبا، وتتراقص على أنغام قلبي ولحن المنى، تحت أنوار الأحلام ... أركض يا عمر ... قد فُتِحَت لك الأبواب، وبَسَطَ أمامك الأديم على جوانبه الزهر البديع ... والورد العَطِر ... انظر البحر يناديك ... البحر الوردي يا ربّان الهوى ... هيا خذ مكانك واستقلّ مركبك ... لا تدع أمرا يؤخرك ... لا تلتفت لأي شيء آخر ... أسبر عمق البحر وحيواته ... غُر حتى القاع ... زر آخره وامسك الشمس عند الغياب ... ما العمر الا لحظات ... وما طعم الحياة إذا توارت ... بغير صبابةٍ فيها تَغورُ!!

زَهرُ الشَّوقِ

وسبقتني نور تقفز أمامي حبًا وتتراقص على أنغام قلبي ولحن المُنى تحت أنوار الأحلام

نور

أنهيت حينها التاسعة عشرة لتوي، وافتتحت العشرين مُتميّزة بدروسي وعلاماتي في المدرسة، مما أهلني لأن أبدأ تعليمي في الجامعة، مُحاطة بأرقى معاني الحب من أمي التي ما وفّرت من العطاء والحنان للصغيرة المُدلّلة شيئا، ففي حفل تخرجي من المدرسة، حضرت أمي يصحبها أبي وقد علتها ابتسامة لمعت لرحبها عيناها سرورا وغبطة، كما لو أن هذا الحفل هو الأول من نوعه التي تحضره والدتي، أو كأني وحيدتها ولست صغيرتها. عقبت هذا الحفل سنة دلال وراحة، آثرت فيها أمي كثرة نومي وراحتي على شغل البيت والمطبخ وتدابيره، وعللت حنانها المفرط ولطفها المبالغ فيه -كما ادعت أختي الكبرى منار- بأنني عما قريب سأبدأ تعليمي الجامعي، ومن المهم جدا أن أستريح هذا العام وأتحضر على أتمِّ تحضير لسنوات التعليم، فليس التعليم بسهل ولا هو بنزهة، كما كان يؤكد لها نحول جسد ابنة اختها، وضمور وجهها وهالة الكآبة والهمّ التي لم تفارقها منذ بدأت تعليمها في الجامعة. ومع ذلك، بقيت منار مصممة على ضرورة مساعدتي لأمي بأعمال البيت، من تنظيفه وترتيبه والذهاب

لشراء مستلزمات الطبخ من خضار ولحوم وتوابل، ما كنت أفعله حقا، ولا ترى منار أني أفعله، بل تدّعي أن ما أقوم به من أعمل في البيت لا يتعدى مقدار الزكاة، ولا يفوقها عدد مرات في السنة.

- أنت تبالغين يا منار، لو كنت بيننا لرأيت نشاطي، لكنك تأتين إلينا في وقت راحتي.

قلت لها وأردت أن أكمل فأشرح لها ما فعلت اليوم، وكيف أن البيت يلمع ويبرق نظافة بسببي، لكنها قاطعتني قائلة:

- أنا أعرف أنك تعملين وتجتهدين وتكدّين، وإلا لماذا أحبك وأعتب عليك كل حين!

منار هي أختي الكبرى، وأقرب أفراد العائلة إلي، وعائلتي مكوّنة من ستة أنفار مع الوالدين، ثلاث أخوات وأخ، منار سعاد وسامي، وأنا أصغرهم، أحبهم كلهم، إلا أن منار قد حازت جلّ مودتي وحبي وكامل ثقتي، كنت أفضي إليها بجميع أموري حتى المحرجة والمخجلة منها، وقد كان هذا قبل زواجها، لكنه استمر على نحو قليل بعد زواجها لانشغالها به، ولكثرة ما تزورنا وتتردّد

علينا، فقد كان بيتها على بعد بضعة بيوت من بيتنا، يفصل بينهما شارعان، فلا حاجة لها بسيارة أو وسيلة نقل، غير حذاء يحتمل كَمَّ الغبار وحبّات الحصا في الطريق إلينا. لكن قصر المسافة بيننا لم تحل دون الإشتياق إليها، فقد تغيّرت بنا الحياة، فما عادت تهتمّ بي وبشعري الناعم فتسرّحه أو تجدله، ولم أجد نفسي متفقة بهذا مع سعاد، لذلك لا زلت أحنّ إلى جلوسي في حضنها، خاضعة مستمتعة بلمساتها ومشطٍ تشدّه بين شعري تسرّحه، لا أنسى لمستها تلك، كما لا أنكر جرأتي وشجاعتي حين أبحث عن الحب والاهتمام، ولا أنكر رغبتي العارمة في امتطاء القمم والتميز، فَكَم حلمت باليوم الذي أعود فيه إلى أبي وأهديه الشهادة الكبيرة، لأرى ابتسامته النادرة ... نعم ... قلما كان يبتسم، فهو صارم بطبعه، بالأخص مع بناته، إذ تهمّه سمعته وسمعة العائلة لدرجة المبالغة، يعتقد أنّ حِمَاهُ هذا لا يدخله غير مرغوب به وهو بهذه الشدة وهذا الحزم، ولا تنكّصه في أمره فتاة يقابلها حزمه هذا، وكذا هذه التربية والإهتمام، لكنّه على عكس كثير من قرنائه، أراد ابنته بشهادة عالية، أرادني متعلّمة، وهذا جُلّ ما حثّني عليه بحديثه، ورمى إليه بكلامه القليل، أما

صمته فقد أبرز هيبته، ورَسَمَ حدود طاعته واضحة جَلِيّة، كان كثير الصمت، يتكلم حين يستدعيه التنبيه، لكن حبّه تكلم مع صغيرته على الدوام، وراء الصمت وأمامه، وعطاؤه مبذول لا يخفى على أحد، ومع هذا نَشأتُ لا أخلط الهزل بالجد، وأرى بنفسي مساوئ وددت تغييرها، وتحديات أردت تجاوزها، لذلك لم أشعر بالراحة مع ربيع، صديق المدرسة، فقد كنت أكيدة بأنّ أبي لن يعجبه الأمر بتاتا في حال معرفته ... أو ربما قد يغضب الغضب الشديد ... لم أره حقا غضبانا، لكن حدّته توحي بذلك، ثم إن علاقتي بربيع لم تكن إلا بدافع الفضول، لذلك قرّرت أن أماطل تلك العلاقة الصبيانية وأتخلّص منها فور التحاقي بالجامعة، وقد ساعدني عُمر بذلك، لا بل أعطاني ما هو أكثر، أعطاني الذي كُنت أتخيله وأظنه لا يقبع إلا في الخيال ... ذلك الساحر الذي لا أنساه ... لم أنكر بقرارة ذاتي إعجابي الشديد بعمر في البداية. ولا أخفي تحوّل هذا الإعجاب إلى حب كبير له، أعجبُ لقلبي الصغير كيف حواه واشتمله، وكيف لا تعجب فتاة بشاب رأت فيه كل المواصفات التي تمنّتها بشريك حياتها، لا بل قَطَنَ في كل أمنية لها، فزارتني منه الأحلام تترى، صباحا ومساء

كما لو كان مصنع أحلامي بين يديه ... جذابة جدا هي شخصيته، تألق بنجاحه وأسلوب كلامه الراقي، فنسيتُ به الجميع ... فيه حلم أبي ومبتغاه ... أذكره عندما كان مُدَرِّسًا في مدرستي، ورغم أني لم أحظَ بالجلوس بمقاعد صفوفه، إلا أنني رأيت حضوره الواضح الهادىء حينها. كان حضوره ولا زال هادئا مشوبا بمعالم الرجولة، وتميز بنظرته الحادة وعمق عينيه، ووقفته المتزنة، وحب التلاميذ وطاعتهم له، وهو بكامل رصانته ورزانته واتزانه وهدوئه، فلا حاجة له للانفعال ليلبّي التلاميذ نداءه، أو يكونوا رهن اشارته، فقد كفاهم حبه الذي طوّقهم وشدّهم إليه. تطورت نظرتي هذه من إعجاب بشخصه إلى حب شديد له أيام الجامعة، وكأن حضوره أيام المدرسة الذي لم أعطه إلا الزهيد من اهتمامي، كان تحضيرا لقلبي الصغير، ليسع لاحقا حبي الجارف، ودارت عجلة الزمن، سُررت حين رأيت أن المحاضر الذي دخل إلينا هو ذاته الأستاذ "عمر" من المدرسة، شعرتُ بالراحة، وتمنيت لو كنت طالبته أيام المدرسة، وتساءلت بنفسي إن كان يعرفني ... حتى وإن لم يكن، فقد أعطاني وجوده شعورا ببعض الطمأنينة في صرح الجامعة الواسع ... هذا رجل أعرفه

... يا سعدك يا فتاة، لست وحيدة في العالم الجديد ... بعد انتهاء المحاضرة الأولى التي جمعتني به، أردت أن أتجه صوبه وأكلمه، ربما كان يتذكرني، أو ربما أكتفي بإخباره عن مكانٍ تشاركنا فيه مرة ... لَعَلِّي ألقي على مسامعه أيضا بعض الإطراء ... حتما سيسره هذا ... مرحبا دكتور، كيف حالك ... ليس بالأمر العسير ... ماذا لو لم يعرفني ... ماذا لو تجاهلني ... لم أفعل، بقيتُ جالسة مكاني أنظر إليه، كأن يدا جثمت على صدري ومنعتني النهوض، واكتفيت بخيالي وأمنياتي في ظل حضوره ... يا لحضوره ... يا لأناقته وقوة شخصيته ... وما هي إلا لحظات ... حضوره ورونقه لم يلبثا إلا أن يطرُقَا باب قلبي ليرشداه إلى الطريق ... وأي طريق ... الإعجاب ... الإعجاب الشديد ... أو لعلّه الحب ... عبث بأوراقه قُبيل مغادرته الغرفة، أخذها براحتيه يريد توضيبها وايداعها حقيبته الجلدية، كان كمن عبث بهيام فؤادي، ولذّة ما فيه الآن وَهَمَّ ليغادره. وجوده في القاعة الواسعة، يملأُ صفحة سوداء بنقطة أمَلٍ لا تغفرُ للظلام، بدت صغيرة على هدوئه المحفوف بالعلم، والذي ينذر بعواصف المعرفة دون إخفاء عمق شخصيته ... العمق الذي بدأت أغرق فيه ... واستمر

بي الغرق لاحقا دون لمسيَ القاع، حتى أخذني منه وأعادني الى مكاني السابق ... طلبتُ منه ذلك ... خنقتني الأبعاد وتراكم البحر على صِغَري ... وليتني ما طلبت ... وليته ما فعل ... لكن للقدر مخططاته، وما نحن في تشعُّباته ودهاليزه إلا بشر!

كانت صدفة أني رأيته بمساء ذات اليوم واقفا يدخن سيجارته لوحده، وتلقائيا توجّهت صوبه لأكلمه دون أن أتردد هذه المرة. تفاجأت حين عرف اسمي، وسررت بصراحته وتواضعه، وشعرتُ بقربه ... أنت تبدو أجمل عن قرب ... أنيق أيها البديع ... كل شيء برتابة وانتظام، دقات قلبي مع عقارب ساعته، أنوثتي في حضرة رجولته، وراحتي في ظلال هيبته، ودهشتي أمام ألَقِهِ ... معه شعرت وكأني أنجزت، وعلتني الابتسامة أياما بعد هذا اللقاء كلما تذكرته، أو ذكرته ... لم يكن بالأمر الصعب الحديث معه ... كان مريحا ... ربما أعجبته أيضا ... ربما أحبني ... لا! ما الاحتمال في ذلك ... سعدتُ جدا ... واستمرت سعادتي بالكلام معه مع كل لقاء لنا، حتى أني كنت أفتعل أسئلة لأحظى ببضع دقائق بجانبه لأقرأ عينيه وحركة يديه. لكني لم أشأ أن ألفت الأنظاروالانتباه، أو يُساء فهمي، ولم أعلم ماذا ينتظرني منه، قد

لا أكون بعينيه إلا واحدة بين الجموع ... ولماذا أظن غير هذا ... لذلك، كثيرا ما اكتفيت بإلقاء التحية والسلام ... لا غير!

استمر بي الحال على هذا، حتى ذلك اليوم الذي تزامنت فيه محاضرته ودخلت حيث هو، إلى قاعة المحاضرات الرحبة الواسعة، ومشيت بين المقاعد أريد مقعدا في الوسط، حيث أجد راحتي، فلا أنا قريبة من المحاضر فيستدعي انتباهي على الدوام، ولا بعيدة منه بالكاد أراه ... لقد أتى باكرا ... ماذا يفعل ... أنه ينظر إليّ ... أهي صدفة ... ربما شعر باهتمامي ... ذهبت إليه بعد انتهاء المحاضرة، وانتظرت لأكون الأخيرة حتى أنال منه وقتا أطول، ودار الحديث ... وكانت المفاجأة! ... في البداية كان الحديث بيننا لطيفا وأحببته، شعرت بقربه واهتمامه عندما ناداني باسمي، لكن بعدها خفت ورجف قلبي، وكاد يخيب ظني عندما طلب مني رقم هاتفي ... لماذا هذا الطلب ... هل يُعقل أنه منهم ... شَعرتُ أن هذا الاهتمام المُفرط مصدره استغلال مركزه لينال متعتة يرضي بها نفسه ... أيَرَاني لعبته ... أو لعله أمر لا تسعه براءتي ... ماذا سيقول أبي لو علم بطلبه هذا ... لم يكن اهتماما عاديا، وأقلقني الأمر وتبعني القلق بعدها، حتى أني

تحدّثت مع أمي وأخبرتها بالذي حصل، لكنها لم تأخذ ما جرى بمحمل الجد، واكتفت بتحذيري وأن آخذ حيطتي. كما تحدثتُ مع ربيع بذات الأمر، وقد أبدى موقفا يرتدي معطف الخوف والحرص علي، لكن فحواه الغيرة، كما حذرني منه وأكد عليّ أن آخذ حرصي وحذري دائما ... ماذا يريد شاب يفوقني بسنوات معدودات، قد حصل على كل ما يتمناه شاب بجيله؟ ... وما سبب اهتمامه المفاجئ؟ ... لم أستطع طرد تساؤلاتي من رأسي، ولم أحصل على جواب منه، بدا في كل مرة على سجيته، لا اهتمام مفرط، ولا نظرات على غير عادة، كل شيء عادي وكل فعل بمكانه، وكأن حديثنا الأخير لم يكن ... ألَم يقصد شيئا؟ ... أم تراه يتربّص حتى آتيه فيأخذ ما أراد؟ ... ولكنني لا أعلم ماذا أراد أو ماذا يريد! ... ربما شأنه شأن كل شاب آخر ... وما الغريب بأن يبحث محاضر شاب بين طالباته عن فتاة تشاركه حياته ... يا لحيرتي ... أتراه يحبني ويريدني شريكة حياته؟ ... إن لم يكن يحبني فهو معجب بي بلا شك ... أوف!! كيف بلا شك، ما هذا الذي يتعب تفكيري إذن؟ ... شيء ما دفعني لأن أتخلص من تساؤلاتي بشكل مباشر، وجدت من الضروري التخلص منها

لأُقبِل على امتحاناتي بذهن صاف وجو ملائم للدراسة ... عليَّ أن أكون بكامل تركيزي قبل الإمتحانات ... كيف سأنجح وأحصل على الشهادة التي أريد ... ذكرت امتحاناتي فتذكرت جملته عندما عرض عليّ المساعدة في المادة الدراسية فقررت الاتصال به.

نظرت طويلًا إلى لوحة الأرقام تضيئ بالأخضر جَوَّالي، وشُدَّ انتباهي إلى الصفر في وسط أسفلها، عليَّ فقط الضغط عليه لأنجز الضغط على باقي الأرقام التي أنسخها من قصاصة ورق دوّنت رقمه عليها، لم أحفظ رقمه في هاتفي وقتها، وتركت مكانه يتراجع في لائحة المكالمات الواردة إلى أن اختفى منها ... لا أدري لماذا ... لكني دوّنته على قصاصة ورق ظنًّا مني أني ربما سأحتاجه، صدقا لست أحتاجها، فقد علق رقم هاتفه في ذاكرتي من حيث لا أدري ... أهو الحب يصنع مثل هذه الأمور ... أهو الحب يخيفني حدّ الضغط على الأرقام بهاتفي ، أم تُراها هيبته؟ ... رتّبت لنفسي بعض الكلمات لأبدأ فيها حديثي معه، وأجريت محادثات إفتراضية معه في ذهني خلف دهاليز حيرتي، ثم تشجّعت قليلا والتقطتُ نفَسي بشهيق عميق، وليس بأذني

سوى رنين الهاتف ... أهلًا نور!! ... ضاعت الكلمات ... تبعثرت الأحرف ... وتملّكني الخوف، وكذلك الارتباك، فأنسياني حتّى إلقاء التحيّة عليه، وكان أول ما نطقتُ به لأتجاهل مشاعري تلك هو أن ذكّرته بعرضه للمساعدة، فالموقف ألحّ عليّ ذلك، ولم أنجح بتذكَر ما خطّطت لقوله، فكان عرضه لمساعدتي هو كل ما تبادر لذهني حينها، فافتتحتُ به الكلام.

كانت مكالمة لطيفة إذا تجاهلنا بدايتها، شعرت بالطمأنينة بعد خوفي في البداية وأنا أكلّمُهُ، وقالت بي نفسي ربما ظَلَمَتهُ أفكاري فأسأتُ فهمه، وراجعتُ مبتسمة خجلة كل كلمة كانت في محادثتنا تلك، وتخيلت المكالمة تطول وتطول، وسمعت الغزل الصريح منه، وأفشيتُ له مكنون مشاعري، وخبايا قلبي واحساسي، إلى أن وصلت إلى كلام العشاق وحماهم فأوغلت ... أتخجلين من نفسك يا نور ... لا أدري ... كل ما أريده الآن هو أن أطير فوق محور الوقت، لتصل دالّتي إلى نقطتها القصوى بعد تقاطعنا في اللقاء المرتقب.

لا أحب هذا الثوب ... ألوانه جميلة لكنه فضفاض، وقَصَّته لا تعجبني ... بالتأكيد سيعجبه القميص ... ألوان فاتحة زهيّة، وتناسب لون الحذاء والزنّار ... وبعد ساعة أمام المرآة وخزانة ملابسي، تعطّرتُ وربطتُ خصلة من وسط شعري الذي نعّمته مسبقا، وأسبلت أطرافه ليبدو حريريا ناعما ومرتبا، وتزيّنت بأحمر الشفاة، وذهبت لزيارته يشوب نبض خافقي توتّر، ممزوج بلهفة، كما لو كنت سأقابله لأوّل مرة.

لم يكن ذاك المكان أقل منه ترتيبا ولطفا، فاجأني حقّا بذلك، ربما لأني تخيلته مُسبقا منثور الأوراق والكتب، يبحث بفوضى المعادلات عن حل وبرهان ... كيف فاتني أن رجلا أنيقا مثله، من المحتمل أن يكون مكتبه أيضا من روائع الترتيب وَلُبِّ الأناقة ... جلست بتواضع وكامل الأناقة، على كرسي أحمر في مكتبه الجميل، وكأني اتفقتُ ومكتبه على الأناقة مُسبقا ... أو رتّبنا لها معًا!

وتَوَالت الزيارات، وقلّت الكلمات، ولم تكن الجلسة ساعة وساعتين بل ساعات. أحيانا كُنت أجلسُ معه ليشرح لي بعض

المعادلات، وأحيانا كان يطلب مني حل بعض المسائل وينشغل هو بدراسته. فمرّةً هو بدّدني ومرّةً مكانٌ يجمعني ويضعني فيه، وما لعقله ونباغة فكره إلا أن أذهلني تفكيره، فعاد وشتَّتني، وكيف بدأ كلامه لم أدرك ثانية، فكيف ينهيه! هل هي صدقا الرياضيات من صنعت منه ذلك الشخص المُعقّد برموز تستدعي فكَّها فكَّ فضاء جبريّ، أو بحث دالَّة منفصلة بجميع النقاط، لا يسعفك في فهمها نظام الإحداثيّات الديكارتيّة، ولا حتى مبرهنة القيمة الوسطى، فهو بكل نقطة غير قابل للإشتقاق ... آهٍ لتلك الشخصية! تُرى ما خلفيته وكيف وصل إلى ما هو الآن؟ وهل خلف هذا الفضاء أفضِية وعوالم أخرى، وهل لِدَوَالِّهِ قِيَمٌ قصوى ... لا النطاق والمجال استوعبتُ، ولا المُستقر والمدى أدركت!

أردت الإجابات لا غير، وكنت أكيدة أني لو سألته لما أجاب بوضوح ... أظنه أوضح ما يكون في هذه الرياضيات التي يشرحها لي ... لا شيء وافق ظني ... كيف يجعل الرياضيات سهلة هكذا ... لكني طالِبَتُهُ ... سأطلب وأطلب وأقرع له كل باب، وأبلغ فيه أقصى مدى ولُبَّ اللُّباب ... أول اقتحام وغزو كان في عالمه صُورة

الطفلة التي وضعها على مكتبه! أجاب بعاطفة جياشة، وعطف فياض هي ابنتي، وسرعان ما تلاشت شظاياي، وضاقت دُنياي وشعرتُ بلهيب يحرقني ... ابنتك!! أمتوزج أنت!! ... لم أرد هذا ... سحقا لذلك الغزو الذي أعادني مهزومة ... لم أعرف حتى أنه متزوج ... يا لحماقتك يا فتاة ... وإذا كان كذلك فلماذا طاردتني كل القصائد، معنونة بِمَدٍّ وجزر لأحلى الألحان والموسيقى على وتر الحب ... فَلِمَ يعرِضُ عليّ مساعدته ويُجالسني ساعات دونما مقابل؟

قلقت أن يكون الفارس الذي تَرَجّلَ عن حصانه واستلّ قلبه ليس كالذي ظننت، ولا كالذي تخيّلت، هل كل هذا نُبلٌ مفرط؟ أم هو لأجل غاية شخصية أو متعة يريدها؟ لكن أسلوبه وكلامه باحا العكس ... الحيرة ثانية!! ... لا ... هذه المرة صحبتها خيبات الأحلام ... لم أستطع إخفاء خيبتي ودهشتي، وبدا على وجهي الحزن والعجب، وربما هذا ما جعله يستطرد ويخبرني المزيد دون أن أسأله، بينما أنا أخذت أستمع له وأبحث بين كلماته عن حبل نجاة، وقتها أخذ الإحباط يتسلّل إليّ كما يتسلّل القتام إلى الكهوف عند المغيب ... كأن الكهوف لا تكفيها ظلمتها وجدرانها

الصماء. رأيت حبل النجاة عندما أخبرني بتوتر علاقته بزوجته، لا أدري لماذا استرحت حينها، وفُرجت أساريري وانشرح صدري، هل كنت أتمناه بداخلي؟ هل أكنُّ له بعض المشاعر علاوة على الإعجاب؟ ولم كل تساؤلاتي وهذه المشاعر إن لم أكن كذلك! في هذه اللحظة، تناسيت أمر زوجته وزواجه وأخذت أتخيّله وهو يَضَعُ رأسه بحضني وأنا أداعب شعره الأسود الناعم بأطراف أصابعي، وألملم عنه قِطَعَ أحزانه ... أردت ذلك ... أردت أن أكون له مكانه الدافئ، ومأواه الوحيد، وتخيّلته بهذا يبادلني الدفء ... أحزين أنت يا فارسي الجميل ... أمجروح أنت يا حلمي ... أيقظني عمر من أحلامي بِرَجَّةٍ عنيفة شعرت بها روحي، عندما رأيت عينيه تحدِّقُ بي بشغف مُعلنا اعجابه بشخصيتي بكامل الصراحة لأول مرة، وأنه قد وجد بي ما لم يتوقع، حيث أضفتُ له ذاك الأمل في النفق المُعتم.

شعرتُ بشعور مختلط حينها، أردت أن أكون أمله حقًّا، من ناحية أردت أن أكون مساره في كل رحلة يؤديها ساعيا إليّ، ومن ناحيةٍ هو متزوج! وكيف لي؟ كيف لي أن أقبل تَوَدُّد رجل متزوج؟ ألا أكون سببا في إفساد علاقته الزوجية؟ ... لكنه أفصح عن

كتمان ضوء بدره في ليله الكاظم ... لم أشأ أن أبرحه، ولكني أردت الهروب لوهلة من كل تلك التساؤلات والأفكار التي أخذت تعلو شيئا فشيئا برأسي، وتشعّبت حتى خلتها أيكة تنمو في وسط دماغي ... ماذا سيُقال عني ... من سيقول؟ أنا أريده وقلبي يريده ... وماذا عن أمي، هل ستوافقني الرأي ... وبدّدت صورة أبي كل الأفكار، فاتخذتُ المغادرة قرارا واعتذرته ... غريب أني تذكرتُ أمي قبل أبي!

شعرت قبل مغادرتي أني تسرعت بعض الشيء في قراري هذا ... ما أتعس القرارات السريعة في هذه المواقف ... ما بالك إذا كانت تخالف القلب وتعانده ... متى سأنال تلك الرزانة والاتزان ... أنا لا زلت أشعر باهتمام بأمره، كما أني لن أرضى حتى أجد أجوبة لتساؤلاتي ... هل أترك هذه العلاقة لطالبة أخرى؟ ... لا! ... ماذا لو كنتُ صديقته فقط ... ماذا لو أصغيت إليه الآن ... لمَ العَجَلة ... وجدت بتلك اللحظة جسدي لا يُطاوعني.

أخذت يداي تلملم ما بقي مني، ودفاتر وأوراق وكتب مجرّدة، وحواسي تنتظر منه أن يقول كلمة أو يأتي بإشارة تحثّني على

البقاء معه ... لا تُسارعي الرحيل ... أنطقها يا عمر... أنا أحتاجك ... قلها ... أو أي كلمة أخرى غير ذلك، كافية لأن أقدم على فتح باب الكلام معك ثانية ... لكن صمته طغى، فما كان مني إلا لَمّ أدواتي معلنة هجر المكان، وعقلي ينهمر مني، ويفكر بسرعة السيل لأن أبقى ... ليس عقلي وحده ... في هذه اللحظات اتفق قلبي وعقلي فوجدتُ نفسي في حضرته لا أبرحه، وحلتُ لسان جرأة يلفظ الكلام، كمن يدافع عن حق له يراد انتزاعه ... حالة أخرى هو الذي اتفق فيه الجَنان والنهى ... نعم ... كبرت نور فجأة وأيقنت أنها تريده ... وأفصحت عما لا تريد، فوجدت نفسي أقول له:

- ليش بتِترِكِش الجزء إلّي مغلبَك، إذا ما تَرَكتِش هذا الجزء خسرت الكلّ، إيش فيها، بَلِّش التغيير من هناك!!

لم انتظر ردًّا، ولا أردتُ جوابا، أردت فقط أن أبقى بجانبه، ولم أفهم ... هل بالفعل أدركَ ما أصبو إليه، إذ وجدت نفسي أجلس أحدثه ساعات ... وتقلص الوقت ... وجرت عقارب الساعة على دولاب السرعة، وبصعوبة ومماطلة أنهيت لقاءنا هذا، وانتزعت

نفسي من نفسي قاصدة درب العودة إلى مسكن الطلبة تحت أنوار الأعمدة الصفراء، في جنح الليل الفسيح، بعد وداع تجاوز العشرين دقيقة بين جذب وإرخاء.

في تلك الليلة قرّرت أن أمضي معه ... ولو مرحليا ... قرّرت ذلك عندما تذكّرت جوابه على سؤالي بلقائنا هذا، إن كان ما يراه بي أملا بحق، أم مجرّد أوهام، أو ربما تأثير الظروف التي يمر بها. لم يكن جوابه محددا، لكنه كان كافيا بأن يلفت بصيرتي لأمر هام، لأمر كان السبب في كثير من قرارات اتخذتها ولم أعرف سببها، لقد قال ببساطة: "أنا اتبع قلبي، قلبي الذي نَبَّهني لك. وإن كان قلبي طيبا فلا بد له أن يقودني إلى الصواب" ... ماذا سيكون ... لنرى ... هو إنسان طيب وحزين ... ثم بأسوء الحالات، قد نصبح أصدقاء فقط، ما أجمله من صديق، وما أروعه من خليل ... وبالتأكيد لديه الكثير لأتعلّم منه، فغديره عذب وأرضه خصبة، وبستانه لا شك نضر عطر ... يكفي قلبه الطيب!

فاطمة

قد لا تبدو عليّ الصدمة أو الدهشة الآن، لكني في بادئ الأمر قلقتُ كثيرا وغطّتني سحابات الدهشة، والفضول المشوب بالتوتر، والقلق من صدمة آتية تجهّزتُ لها بفتح فمي وعينيَّ، أرسم هالة من التعجّب والتساؤل يتسع قطرها رويدا رويدا. كان يحدثني باتزان دون تردد، وكأن الأحداث طبيعية ... لماذا يتعامل مع الأمر وكأنه بحثٌ مُجَرَّدٌ، أو مقالة علمية يكتبها، أو كأنه أقرب من المسموح بالنسبة إليه من الممنوع، وهو الذي ما انفكّ يعارض أخاه جميل - عمي - على نزواته وعلاقاته بفتيات أخريات، تاركا زوجته تكابد عناء رعاية أولاده الثلاثة - سماهر خالد وريم - الذين لم يشفع لهم أمامه أن الكبيرة - سماهر- لم تتعدَّ المرحلة الإعدادية بعد، ولم تدق ملائكيتهم ناقوس تنبّهه لهم، فضرب عليهم لا مبالاته كما ضربها على جميع نواحي حياته، إلا ما هوى ومالت إليه نفسه. لم أعرف حتى كيف تبادرت هذه المقارنة بينه وبين عمي جميل لذهني، وأنا التي كنت أستبعد مثيلاتها أشد البعد، وما خطر يومًا ببالي نزول خاطرها بذهني، فرق شاسع بين أبي وبين عمي الذي يصغره بست

سنوات، وبقدرهن وأكثر تبعد اهتماماته وتختلف شخصيته عن شخصية عمي، كان أبي يعارض أسلوب عمي في حياته خالية المسؤولية التي اختارها وأدمن عليها، لكن معارضته هذه لم تمنعه عن حب أخيه أشد الحب، والوقوف بجانبه في كل معضلاته ومشاكله التي جلبها لنفسه، فهو أخوه الوحيد الذي أتى إلى هذه الدنيا ليؤنس وحدته، بعدما ظن الجميع أن جدتي لن تستطيع انجاب غير واحد لما كابدته من عسر الحمل الذي كاد يودي بحياتها في المرتين كما علمت وتوارد إلى مسمعي. لكن كيف رضي لنفسه أن ينظر لغير أمي، وإن اختلف الأسلوب والنهج عن أسلوب عمي المتعسف الذي يفتقر لأدنى مبالاة وذرة اكتراث من جانبه. أيصنّف أبي نفسه بخانةٍ أخرى كونه لم يهمل بيته لأجل فتاة صادفها، أم كونه محاضرا ناجحا فيصحّ له ما لا يصحّ لعمي الذي لم يحظ بفرصة التعليم ووجد نفسه بين دعامات الخشب والطوب والطين في كدِّ العمار والبنيان، أليس الفعل ذات الفعل مع اختلاف الوجوه والشخصيات والأسلوب ... أدارت دهشتي هذه أسئلة عديدة بذهني، يقابلها شعور غريب بصدري، وأرّقت الحيرة جفني وحرمتني هدوء الخاطر، ولم

تساعدني معرفتي المسبقة ولا يقيني بالفجوة بينه وبين عمي - رغم اشتراكهما في فؤادي على المحبة والاحترام - لأقنع نفسي باختلاف وضعيهما ، ربما هو خوفي ما دفعني إلى ذلك، تريّثت قليلا وأردت قطع الشكّ باليقين، لذلك أعطيته كل انتباهي وتتبّعت كلماته بحذافيرها، بالوقت الذي يخالجني شعور أشبه بالذي يخالج القلب قبيل الصدمات التي نتوقع حدوثها ولا ندري قوتها وكيفيتها، لم أتوقّع من والدي المتّزن دوما، وقدوَتِي أن يبادل فتاة حبه وهو متزوج، لا أدري ... لم شعرت بأنه خطأ فادح وتيهٌ سقيم.

تماما، مثلما كانت نور تبحث عن حبل نجاة بكلماته عندما أخبرها بأنه متزوج، هكذا وجدتُ نفسي في حيرتي ودواماتها، وأخذ خوفي على حبي له ونظرتي إليه تعلو وتيرته، لم أشأ أن يتغير شيء تجاهه.

بعدها بدأت تساؤلاتي عن طبيعة ما يفعله تلوح في ذهني، لماذا أعطاني الرسائل، وكيف كتبها لي وأنا بسنّ الثالثة لأقرأها الآن، بعد مرور ستة عشر عاما، ثم ما هي غايته من أن تقرأ ابنته مثل

هذه الرسائل، وهي مقبلة على الجامعة، ذلك المكان الذي دارت فيه أحداث قصته المُقلقة، مع فتاة كانت حينها بمثل جيلي الآن! تحوَّل تفكيري فجأة إلى علاقته بوالدتي، أنا لم ألحظ أي شيء مريب، كنت أراه كثير الصمت على الدوام، لكني الآن تنبهت بأنه يعيش بعالم آخر غير الذي ظننت، عالم لا يملك هروبا منه ربما، أو أنه اختار البقاء فيه وقبوله لسبب ما، أو ربما كان هذا العالم هو هروبه الذي استأثر به، منفردا فيه بذاته، بين قلبه الحزين ... وحبه القديم ... وواقعه الأليم.

تتسارع وتيرة التفكير والتساؤل عندما يكشف لك انسان تحبه خباياه، أنت تقلق على محبتك التي تكنها له، وتخشى إذا تكشف بعض الأمور من الندم على معرفتك إياها، لكنك متأكد أن وتيرة حبك له تعلو مع كل كلمة يلفظها ... ما الخوف إلا بعد انتهاء الكلام، وركود الأفكار الذي يليه حديث النفس، ونزاع الشكّ والظنون ... ويتربع الفضول سيد الموقف عندما يبدأ الكلام، فهو ملاذي على الدوام، ومَن أعجب من امرء يكتشف ملاذه الذي احتمى فيه بعد حين، أليس الطبيعي اكتشافه قبل اتخاذه ملجأ، لكني أردته، فهو والدي وليس لي سواه، لذلك أخذت بأحد

قواعده في ظل تساؤلاتي، التمس عذرا إن لم تكن تعلم، حتما ستتجلى لك الصورة لاحقا، وربما تأتي مختلفة كل الاختلاف عما ظننتَ. ثم لماذا القلق، إذا لم تعجبني ولم تتجانس أفعاله حينها مع مشاعري وتفكيري، فإني أعلم قاعدته الثانية، القبول. سأقبلُ به كما هو، وإن ساءني ما علمت وأحزنني ما أدركت، يكفي به شجاعا يرى بي فتاة بالغة يحدثها عن خباياه بكل صدق. ورغم حديثي هذا لنفسي، بقيت قلقة ألا أكون أهلا لما هو قادم، ولا بقدر اتساع ما ينهمر عليّ من جديد لا أعلمه.

لم يكن هذا قد استدعى حيرتي أكثر من علاقته بأمي، وهو الذي أخبرني عن هدوئها وحضورها وكيف تعرّف عليها أيام عمله في المدينة، وقابلها مرارا في الكلّيّة إلى أن تزوجا من صيف سنة 1996، فماذا حصل بعد سنة فقط من الزواج، ليجد أبي نفسه مرهقا بأحمال أراد الهرب منها لعوالم أخرى تجلّت في رسائله، وتكشّفت أمامي مؤخرا. أليس هذا ما اختاره هو لنفسه، وقاده قلبه إليه، كيف لا زال بعد تلك التجربة يردّد على مسامعي، في كل مسألة اختلطت عليّ، "عليك بما تحبّين ومراعاة قلبك"؟ ألم يَقُدهُ قلبه إلى الإرهاق والتعب بدل الراحة والسعادة؟ أم ربما لم

يكن قلبه هو الذي قاده إلى ما لا يريد، وإلى حيث لم يطق أو يرغب؟ مَن غير القلب إذًا مسؤول عن قراره في الزواج واختيار زوجه وشريكته، أمِن عوامل أخرى؟

أحداث كثيرة لم تتجانس مع تفكيري ولم أعد أعرف مكاني منها، فوجدتُ نفسي صامتة تملأني الدهشة كما الفضول، عن ماض يعود لرجل لزمني منذ بداية عمري، وخط بيديه على شفتيَّ البسمات مرارا، رجل لن ولم أكن لأتخيل فيه هذا الجانب الغريب المثير، ولا تخيلتني يوما أجلس أمامه يحدثني عن مغامرته تلك أيام شبابه وصباه، مغامرة هي أبعد ما كنت لأعتقد وأظن عن شخص بمثل اتزانه وهدوئه وتروّيه وحلمه ... كيف انسجم كل هذا معا ... ويكأنه يحدثني ويروي لي قصة رجل آخر، غير الذي عرفته وألفته، ثم أين هي أمي من كل هذا ... كيف صفحت له ... أتراها علمت بحبه هذا، أم لم تعلم ... ماذا كان دورها بالتحديد غير أنها فتحت له باب عالمه هذا كما ادعى، وكيف بقيا معا إلى يومنا هذا، وكيف لم يحظ بنور وما المعضلة التي حالت دون هذا؟ انهارت الأسئلة عليّ وهو يتحدث ويسرد قصته لي، فأخذتني الرغبة بأن أعرف فأنصت له.

الجُزء الثّاني

عُمر حَازم

إذا كان كل ما تستطيع فعله هو الزّحف، إبدأ بالزّحف.

الرّومي

عمر

كأنها البارحة ... أو كأن الزمن قد غفل عن هذه الحقبة فبقيَت طرية بتفاصيلها، رطبة بأحداثها، وما خلّفتها من مشاعر اختلجت في صدري والتصقت بجوفه، كما لو أن جدران صدري تأبّطتها باليدين والنواجذ، لتعاند الأيام والسنين، غير آبهة بحاملها ولا مكترثة بمسارات الوقت، راسمة لذاتها مسارا فوق عنصر الزمن وقوته المستحيلة، فلا حال عليها تغييرٌ، ولا هدّأت من روعها أحداثٌ عقبتها، ولا مسرّات تلتها ... مرَّت على هذه الأحداث سنون، لكني لا زلت أتذكرها، لها الأثر الكبير لما أنا عليه الآن، بسيّئها وحسنها، وإن كانت الغلبة للأول على الأخير، فأثرها لم يزل، وأردته ألا يزول في كثير من المواضع، رغم قتامته وظلامه، ورغم أني أُجالِسُ نفسي كثيرا في زوايا هذا الماضي، وأمشي في ممرّاته مُتخيلا ما الذي قد يحصل لو كانت الأمور مختلفة، أو جرت بغير واد، إلا أني على يقين تام بأن هذا أفضل ما قد يحصل وينجم، ولو أتيحت لي الفُرصة واجتهدتُ على ترتيب ما كان، وخلط الأحداث من جديد بأعتى مهارة لاعب ورق وتمرّسه

وحظه الوافر، وأتيانها بالشكل الذي أريد - أو أردت ذلت مرّة على وجه الدقة - فلن تكون النتائج أفضل مما هي عليه الآن.

كنت يافعا على مشارف إنهاء المدرسة، ولم أكن أخطط لدراسة جامعية في المستقبل رغم تفوّقي، وتشجيع امي لهذا الأمر وحثّها عليه، بما ملكت من صبر وهدوء واصغاء يتلقّف عنادي وعدم اكتراثي بغير تذمر أو ملل، كما لم أخطط لشيء بعينه، شغلني أمر واحد فقط، ونال لب تفكيري، وأسر بصيرتي، فشُدّت إليه عما سواه، أردت فقط الإنطلاق بسرعة الضوء متحديا قانون الطبيعة، الذي وجدت نفسي بين دفّتيه، غير قانع ولا راض، أردت التخلص من قيود المدرسة أولا، لأتخلّص من مشاعر غضب تتنامى في صدري مع الأيام، وتتشعّب مثل شجر الحدائق الذي يُزرع بجانب أسوارها، ليمتد على طولها مخفيا الأسوار تحته، غضب ينميه البؤس الذي نقابله بالانتظار، والصبر لفقدان الحيلة، والعجز بعينه لا لمكارم الأخلاق، ذلك الصبر الذي أَلِفَتْهُ أمي وتخلّت عن أحلامها في ظل الفقروالفاقة، وتخلي والدي بإحباط عن أي مسؤوليّة اتجاهنا. رأيتُ من الناس عيونها فقط، وتخيلتها تنظر إلينا بازدراء، أقلها أذية تلك التي نظرت

بعاطفة المشفق علينا، والمتعاطف معنا، لشظف عيشنا وبؤس حالنا ... نحن نظن أن شفقتنا التي نبديها عندما نشاهد أو نصادف بائسا قد تسعده وتسرّه ... ربما هي كذلك ... لكن بالتأكيد للغاضبين والثائرين من البؤساء رأي آخر... في ظل هذا ومع بداية مسيرتي، وقلة خبرتي بالحياة وتعقيداتها، وانعدام تجربتي، تنامى غضبي على القيود والناس، وكل شيء من حولي، حتى الذباب إذا طن بجانبي، فانتظرتُ اللحظة المناسبة لتغيير كل شيء ... لا! لم أنتظر، بل أسرعت إليها ... أسرعت أجري في زمن لم أُجِد فيه حتى الزحف بعد ... تخيل رضيعا في مضمار سباق.

عندما أنهيت المدرسة ذهبت للعمل بسوق في مدينة قريبة، فقد أردتُ بعض المال لأنشئ تجارتي الخاصة، وأظفر بأحلامي وتحقيق ذاتي التي أبصرتُ واقتنعت فأردت، وكنت أركض وأحلامي تتعاظم ... ها قد بدأت يا عمر... ها قد أتيحت لك الفرصة ... ستغدو ثريا عما قريب، وستتخلّص من غضبك ونظرات الناس التي أثقلت كاهلك وأرقتك ... وستهدي لأمك الأحلام باقات ورد صنعتها يداك، وسقتها قطرات العرق تنسكب

من جبينك في سبيل الخلاص ... لم يكن لدي المال الكافي حتى لتجارة صغيرة أو دكان صغير، لكني اقترضتُ بعد فترة مالا من المصرف يكفي لأن أبدأ به تجارتي بدكان ليس بالصغير ولا بالكبير لأدوات كهربائية. هكذا بدأت تجارتي التي لم تشجعني عليها والدتي، مُفضّلةً اياي أن أجد طريقي إلى الجامعة، وأبدأ مسيرتي الأكاديمية، لأنها بوظيفة مرموقة تُأمّن لي عيشا مريحا ومكانة محترمة في المجتمع، وبين الأقارب، تدعمها الشهادة وكلمة "مُتعلّم".

كان قرارا صائبا اختياري لموقع الدكان، ورأيت نفسي محظوظا باختياري، إذ لم أتكبّد عناء البحث ودراسة حركة التجارة في أي مكان. في الشارع الملتصق آخره بمركز المدينة في البلدة القديمة، وبعد الجامع بأمتار قليلة أزلت الستار وفتحت أبواب دكاني وبدأت أتحسس تجارتي. اخترت التجارة في المدينة رغم ارتفاع الأسعار فيها، وتكاليفها المرتفعة مقارنة بالقرية، فهي أكثر نشاطا وحيوية، ولا تخلو من حركة الناس ليلا كان أو نهارا، وقد وُفِّقْتُ لذلك الشارع الذي عجّ على مدار الأسبوع بالمارّة على دوران الساعة، ومتى التقى أو تفرّق العقربان، فقد انتشرت فيه بكثرة

محلّات بيع الملابس، والمطاعم من الجهتين، أضف على الجهة الأخرى من دكاني دكان أبي سليم، وعلى بعد أمتار منه كان المخبز الذي تنبعث منه رائحة الخبز والكعك الشهي في كل صباح، لا يزاحمها في شهيّتها وملذّتها غير رائحة الصباح ذاته، فتعلن منفردة ابتداء يوم جديد.

في البداية أحببتُ الجلوس والهدوء في الدكان، فقد كان على خلاف ذلك الشارع بضجّته وصورته العبثية، المتمثّلة في بضع بيوت سكنية، وُزِّعَتْ بغير نظام أو سابق تخطيط بين المحلات التجارية، في أقصى الدكان مقابل المدخل الزجاجي قبعت طاولة عريضة، ترتّبت عليها أوراق لازمة من فواتير وإيصالات، وتمركز بينها وبين الحائط كرسي أسود هائل الحجم، وعالي الظهر، مصنوع من الجلد، يوحي منظره بالراحة والفخامة، جلست عليه أنظر إلى الثلاجات على يساري، تلمع لحداثتها بلونين اثنين الأبيض والرمادي، وعلى يميني قبعت الغسّالات على شتى أنواعها وأحجامها، بينهما في وسط المحلّ اكتظّت شاشات التلفاز، وأدوات كهربائيّة أخرى أصغر حجما، تحتلّ مساحة وفيرة بترتيب فوق بعضها، تاركة مجالًا ومسافة لتجوال الزبائن بينها، لكن

الملل وتكرار المشهد يوميًا، أخذاني لأتعرّف على من حولي من التجار وأصحاب المحلّات تباعا ... إلى أن وصلت لأبي سليم.

في تلك الفترة وبعد افتتاح دكاني بأسابيع، بدأت أتردد على دكان أبي سليم، حتى اعتدت المرور به يوميا، وكان ذلك في ساعات تقلّ فيها حركة الزبائن، لأخطف منه قليلا من الوقت والكلام، وأشتري من عنده السجائر. لم يكن أبو سليم يرغب بأحد يُطيلُ بقاءه في دكانه، وكم تلوّى بوزه، وغمّ وجهه الذي حاز أنفه منه النصف لإطالتي مرّات، فقد كان حريصا على تجارته حرص الأم على ولدها الوحيد، واعتقد أن الدواوين تجلب الفقر والفاقة، وأن رغي الكلام في أماكن الرزق ينزع البركة، فقابلني بتجهّم اعتدت عليه وزهد في الكلام، ورغم عدم وجود مواضيع بيننا لنتحدّث بها، غير المواضيع التي تتعلّق بالتجارة، وحركة الزبائن وقصص المحتالين منهم، ورغم اقتصاده في الحديث، إلا أني رأيت بقليل الوقت هذا منفسا لي من الضجر والروتين.

لم أستسغ شخصية أبي سليم كثيرا، فبالرغم من علامة الصلاة في وسط جبينه، وذكره الله في كل جملة ينطقها، ظنا واعتقادا

منه بأن الكريم سيكافئه في دنياه قبل آخرته، ويغدق عليه الأموال والربح الوفير. فقد كنت أراه ماديا فقط، حريصا على ماله حرص عجوزٍ أرعن - ولم يتجاوز الخمسين بعد - امتهن طيلة عمره جمع المال، يخلط الدين بالدنيا خلط الماء باللبن، ولكن المفارقة أنه كان حريصا أيضا على صلاته. فقد أوصى زوجته المجيء لتجلس مكانه في الدكان عند كل صلاة ظهر، ليذهب هو إلى الجامع القريب فيقضي صلاته، وقُبيل صلاة العصر كانت تأتي ابنته أحلام، لتأخذ مكانه إلى ما بعد المغرب بلحظات. وجدت راحتي في ظلّ هذه المفارقة، بعدما سمحت لنفسي الولوج لنواياه ورميها بيني وبين نفسي بسوء الظن، لكن ذلك لم يؤثّر بعلاقتي به، وزيارتي لدكانه في كل يوم، غير أيام الراحة.

لم تكن التجارة مركبة ولا معقدة! كما أني حرصت على التدقيق بحساباتي وعاينتُها بكدّ وجهد، فتابعت الأرقام في الفواتير والإيصالات كبيرها وصغيرها، واردها وصادرها، وحرصت على سداد الضرائب رغم كثرتها، لكن دافعي لأن أتقدم بسرعة نحو درجة مرموقة قد أنساني الصبر، مثلما أنساني الخوف. ظننت

حينها أني قد وجدتُ طريقي للخلاص من وضعنا الرث، فبدأت أخطو خطوات سريعة في التجارة، رغم عدم حبي وقلة انجذابي لمثل هذا العمل وطبيعته، زد على هذا معاناتي من أوقات ضجرة وزبائن مُتْعِبين، لكن الرغبة باثبات الذات وقلّة الخبرة لحداثة السنِّ وفقر التجربة، كانوا كفلاء بدفعي على المضيّ قِدما دونما ترو.

كان هذا فيما مضى، ولست آسفا عليه اليوم ... أعتبره دفع ثمن منطق ثمين أملكه الآن، وأظنه أثمن ما أملك، أو ربما هو سعر تجربة ألقت بي بعنف على شواطئ الأفضل ... حيث تجلّت العقبات والمطبّات محض فكرة ... كذلك هو الخوف... أحكم زمام عقلك، تحكم زمام أمرك، فالفكرة فخُّ العمل... كم مرة نفترض مشاكل وعقبات ثم نصارعها في ذهننا نريد تخطّيها بواقعنا، وهي مجرد فرضيات ومحض أوهام ... وكم منا استسلم لتلك العقبات، وخاف منها حتى أثقلت عيشه وأتعبت باله، أو ألقته في جب الفشل والإخفاق ... مغامرتي هذه ألقتني بعد خمس سنوات أمام عجز مالي ضخم، ودين للمصرف الذي لم يمهلني حينها الوقت الكافي لسداده، ورَفَعَ أمري إلى القضاء.

تكدّست عليّ الديون، وفقدت تجارتي وأملاكي القليلة، وأشياء ثمينة أخرى مثل عزيمتي، وعاد خوفي من عيون الناس يتسلّل إليّ صاحبا معه الأيام القاتمة السوداء، لأتوارى كثيرا في طيّها من أصحابي وأقربائي ومعارفي.

*****

وضعت الحرب التي كنت فيها أنا الطرفين أوزارها، وبعد قتالي فكرة تعيسة بفكرة أتعس منها، عدت مهزوما مثقل الجراح إلى المكان الذي انطلقت منه، واتخذت الصمت خليلا، والتواري نديما ... لماذا نقلق ونخاف من نظرات الناس إلينا ... هل حقا يظنّون ما نكره ... ثم ما أَجَلُ هذا الظن، أهو على الدوام، أم هو وليد وفقيد ذات اللحظة ... لا أظن أن أحدا يكترث ... ولمَ ليكترث أحد في حالة أدنى من العادية، ليس فيها أي شيء مهم!! واحدة هي التي تكترث ... بين إحباطي وخيبة أملي وجدت أمي تراقبني بصمت أخفى جزءا كبيرا من حزنها، وأحيانا كانت تخرج عن صمتها بكلمات دافئة، تشجّعني على قبول ما أنا فيه وقبول مشيئة الله، وكثيرا ما كانت تردد أن الإذعان برضا قد يبدو

ضعفا، لكنه ليس كذلك، فإذا فقدت السيطرة على مجرى حياتك - بفرض أنك امتلكتها يوما - فاذعن للقدير يرشدك.

بجانب استماعي لكلامها لأشعر بالدفء والإيمان، وأبدد شعور الوحدة للحظات كان بعدها يعود ليجتمع ويتشكل من جديد، كنت أهرب لكتب انتبهت لها في بيتنا، في ظل ما أنا فيه، رغم أنّي رأيتها مسبقا دون أن أُعِيرها أي اهتمام، كتب كانت تحفظها أمي فوق الثلاجة القديمة المتهالكة في مطبخها ... رسالة الغفران للمعري، رسائل مولانا جلال الدين الرومي، ديوان شوقي وهكذا تكلم زرادشت وغيرهم ... كأن الأماكن الطبيعية لتلك الكنوز هي المحلات البائسة التي لا تثير الاهتمام، ولا يلتفت إليها أحد لا تدفعه الظروف لذلك ... أذكر حينها من جملة ما قرأت في تلك الكتب، حكمة هي للرومي أدركت معناها بعد فوات الأوان: "إذا كان كل ما تستطيع فعله هو الزحف، إبدأ بالزحف". أدركت حينها سبب تعثري بتجارتي، وخلل منطقي وقصر نظرتي. أنا بالكاد استطعت الزحف حينها، ما الذي دفعني إلى الركض خلف أحلامي الكبيرة ... الفكرة ... الفكرة يا عمر ... الفكرة فخ العمل

... أليس من الأفضل لو زحفتَ وقبلتَ ما أنت عليه حتى تتمكن من السير فالركض!

قلت بعدها، ربما فات الأوان على تجارتي، لكن أمورا كثيرة سيُفيدني فيها الزحف، وهذا ما دفعني لأن أتوجّه الى القضاء لأعالج ديني الضخم للمصرف، مستفيدا من قوانين وضعت للمفلسين ماديا أمثالي، وهذا أيضا ما دفعني لأن أزحف باتجاه حلم أُمي بأن ألتحق بالجامعة، هذا بالرغم من حالتي المادية الرثة - أكثر من السابق - وقيود فرضها عليّ القضاء لاحقا، مقابل تقسيط المبلغ المتراكم فوقي لدفعات شهرية، بدت لوهلة أنها لا تنتهي، ولا تنقضي أبدا، هذا مع ثقل نظرات مجتمعنا المتشابك الذي تكاد لا تُخفى عليه خصوصيات فرد فيه، وإن غابت التفاصيل التي يستبدلها بالعادة بعض العامة بنسيج خيالهم، فيجتهدون في سد الثغرات كما يحلو لهم في كل حادثة أو قصة لم تتكشف لهم بالمطلق، أو حالت دون إحاطتهم بها بعض تفاصيلها. ساءت الأمور عن ذي قبل، لكن شيئا واحدا بدأ يتحسن ... الفكرة!!

التحقت بقسم الرياضيات في جامعة حيفا وأنا بمطلع الخامسة والعشرين من عمري، لا شيء أمامي سوى ظلام، ولا أرى نهاية الطريق، حتى أني لم أرَ بدايتها، فقد استلفتْ أمي أول دفعة من قسط تعليمي في سنتي الأولى في الجامعة من أختها. وكان هذا أثقل شيء حملته بعد ديوني، فرغم صغر المبلغ الذي طلبته أمي من خالتي أمام ديوني، إلا أن رؤيتها تطلب حاجة من أحد، وهي التي فضلت الصبر على مضض دائما، كسرت شيئا ما بداخلي، في وقت ظننته بداية معافاتي.

توقفت الحافلة مقابل المحطة في الحرم الجامعي تحت ظل البناية العالية - *أَشْكُولْ* - والبعيدة قليلا عن مدخل البناية الرئيسة، نزلت من الحافلة مُعلّقا نظري على الطلاب وهم يتوجّهون زرافات وزمرا لداخل البناية الرئيسية، يبحثون عن غرف المحاضرات، بينما كان جلّ تفكيري في متعة سريان الدم بقدميّ، بعد خموله لطول السفر ومشقته، وجلوسي على كرسي الحافلة المتعب ... تفصلني أمتار عن المدخل ... وصلت قاعة المحاضرات المسجّلة في برنامجي الذي أمسكته بيدي ... أول محاضرة في حساب التفاضل والتكامل ... أعشق هذه المادة،

لكنها حتما ستكون مختلفة عن تلك التي تعلمتها في المدرسة ... أوسع بالتأكيد ... وربما أجمل بكثير... لا زال هناك بعض الوقت لبداية المحاضرة، سأتنزه قليلا قلت بنفسي ... نزلت طابقا واحدا عبر السلالم، واتجهت صوب ضوء الشمس المنبعث من مدخل البناية من الجهة الشرقية للجامعة... نور الشمس ... يا لهذا المنظر ... توجّهت يسارا أجعل شمس الصباح على يميني، فألفيتُ على مدّ البصر فوق شجر الكرمل الأخضر وعلى بُعد أمتار من مدخل البناية خليج حيفا والبحر، بأبهى صورة وأجمل منظر!!

اتجهت بعد جولتي القصيرة هذه عائدًا إلى القاعة 715 إذ لم يتبق إلا القليل لبداية المحاضرة ... غرفة كبيرة وطلاب كثر... ثم دخل البروفيسور، لا يمكن أن تخطأه بهندامه المنفوش وشعره الأبيض المنكوش ... كما نتخيل ... وكما هو بالأفلام ... صَمَتَ الجميع وشرع البروفيسور بالكلام، وبدأتُ أنا أخطو نحو الحلم. كان يوما جميلا استمتعت فيه بجو الجامعة ورونق حياة جديدة، نسيت للحظات وضعي المادي المزري، ونسيت مشقة السفر من القرية إلى الجامعة، وسنوات التعليم التي عليّ

اجتيازها، ولا أدري كيف، وهل بإمكاني ذلك، كان اليوم الأول أشبه بيوم عطلة لأسير مكث في زنزانته سنين، أو كأول يوم أطلق فيه عصفور من قفصه بعدما حال عليه الحول في ضيق أسره.

توالت الأيام، واختلفت عن اليوم الأول، فقابلتُ سنتي الأولى في الجامعة والتي أعدُّها من أصعب سنين عمري وأثقلها. تلك السنة بدت وكأنها سنة مخاض لولادة جديدة، واجهت فيها مطبات لا تنتهي، وأحداث توسطتها حفر بفوّهات رحبة، تودُّ التهامي وابتلاعي، كنت أهرب من تلك المطبات والأحداث إلى المكوث بين الكتب في مكتبة الجامعة لساعات، أتنفّسُ رائحة الكتب القديمة، والغبار المُعَتَّق المنبثق من أعلى الرفوف، هذا مع إدراكي بأنه يتوجّبُ عليّ الامتثال أمام محتمات لا يزيدها هروبي منها إلا وزرا فوق وزر على كتفي. أذكر أني أتممت دفع قسط التعليم للجامعة بهذه السنة بشق الأنفس، وبمساعدة والدتي، كما كنت أقصّر بدفعات ديوني وأتأخر عن موعدها، مما أجبرني للامتثال أمام القضاء مرتين في ذات السنة، وفي المرتين كان القاضي يحذرني بعقوبة السجن، ويعطيني مهلة لسداد الدين المتراكم جراء تقصيري بالدفع ... السجن! ... وكأني طليق

الجناح ... لكن! الغريب أن هذه السنة انتهت بامتيازي في تحصيلي الدراسي، الأمر الذي حصلت بسببه على منحة من الجامعة لطّفت قلبي قليلا، منحة معنوية أكثر منها مادية، فبمقارنة مع ديوني لم تكن المنحة من الناحية المادية شيئا يذكر ... نملة على قدم فيل ... إلا أنها كانت دفعة معنوية فيها بعض الشفاء لنفس حملت ما يكفيها من الجروح والكِلام، ومرادفات الإخفاق والضياع. إذ شعرت أن أجمل موقف كان في تلك السنة -رغم قساوتها بالاجمال- هو عندما وقفت أمام لوحة الإعلانات في طبقة الـ *600* في البناية الرئيسية، ورأيت اسمي بين اثنين آخرين بتهنئة من الجامعة على امتيازنا ... عمر حازم! ... بصيص أمل ... ها هو ذا ينبت النرجس من بصل ... للبؤساء لحظات يستريح فيها البؤس عنهم قليلا ... أطلتُ النظر وبدأت لوحة الإعلانات تفقد ألوانها تدريجيا، حتى أصبحت شفافة، ورأيت خلفها طريقا تُرابيًّا ناصع البياض، فيه التواءات جميلة تتسلّق تلة خضراء، وتشق بستان أزهار غلب عليه اللون الأرجواني الفاتح، وفي نهايتها الحلم، كان موقفا كاد أن يبكيني.

لاحقا توالت الجوائز من الجامعة على امتيازي في تحصيلي وأدائي في تعليمي، وقبل أن تعرض الجامعة عليّ عملا متواضعا مقابل أجر متواضع أكثر من العمل ذاته، استغللت شهرتي بين الطلاب الجدد، وبدأت أعطيهم دروسا خصوصية في مساقات السنة التعليمية الأولى ... الجبر الخطي ... حساب التفاضل والتكامل ... الرياضيات المتقطعة ... أما بداية عملي في الجامعة، فقد اقتصرت على تصليح وتدقيق وظائف الطلاب في ذات المساقات، وكان هذا شيئا أمقته ولا متعة فيه، لكن! ما العمل؟ كنت مرغما.

في مطلع السنة الثانية لم أعد أدفع شيئا للجامعة، لا بل على العكس كنت أتقاضى مبلغا زهيدا من المال مقابل بعض الخدمات. خفف هذا الأمر من أحمالي قليلا، لكني دأبت على دفع أقساط ديوني بكل فترة تعليمي للقب الأول والثاني، إلى أن بدأت الدكتوراة، ومع ارتفاعي بدرجات العلم، كان يرتقي عملي في الجامعة وكذا دخلي.

زهر الشوق

أودَعتُ روحي أمام السِّحرِ مُندَهِشًا

والعينَ في رونَقٍ والقلبَ إذ أطرَقْ

حيفا نَشيدٌ مِنَ الألوان منفردٌ

إن كَفَّ أخضرها غنَّى لَكَ الأزرَقْ

فألفيتُ على مدّ البصر فوق شجر الكرمل الأخضر وعلى بُعد أمتار من مدخل البناية خليج حيفا والبحر بأبهى صورة وأجمل منظر!!

صدقا لا أدري كيف مرت تلك الأعوام، ولا أحب حتى أن أتذكرها بتفاصيل أحداثها، لكن مع نهاية السنة الأولى، بدا لي أن للطريق نهاية، وإن لم تكن واضحة المعالم، أو جليّة الشكل. هذا الأمر شجعني بعض الشيء ونبهني لأمر آخر مهم جدا في تلك الفترة. أمر مكلِف لا بد منه ولا فكاك عنه إلا به، فقد كنت مرغما بالفطرة على الإقدام عليه، ولا أنكر أنه أخافني في البداية، وزاد حملي ثقلا مجرد التفكير فيه، غير أن مجرد التفكير بأنه قد يفوتني، أو قد يصعب علي أمره حال تأجيله، كان أشد وقعا وأثقل حملا وأصعب وزرا، ومن شأنه جلب التعاسة والحيرة. بلغت حينها السادسة والعشرين من عمري، وترتب عليّ أن أنهي تعليمي وأسدد ديوني، ولم يكن عملي حينها يكفي لاحتياجاتي الضرورية ولا حتى للقليل منها، ولولا سند أمي وأخي جميل، لوجدت نفسي في ضائقة لا خلاص لي منها، لكن مساعداتهم كفت التعليم ومصروفه على أكثر وجه، فلم أشأ شبكهم بمشاكلي، وإن كنت لهم ظهيرا فترة وجيزة أيام عملي وتجارتي، فوقفت فاقدا حيلتي بين اللازم والمحتوم، والأمل والقلق، الأمر الذي أبقاني بحيرة واستدعى خوفي من الأيام.

خشيت أن تأخذني السنون ولا أتزوج، أو أن أتزوج متأخرا، وهذا شيء لم أكن أريده بتاتا، فقد خسرت من عمري ما يكفي ما بين الانشغال والهروب. أردت أن أحيا حياة طبيعية، في فترة واحدة على الأقل من حياتي، وإذا كنت لا أملك بيتا ولا دخلا يكفي، ولم أكمل دراستي بعد، فأنَّى لي الزواج بغير دافع قوي يدفعني نحوه، دافع أقوى من تفكيري لإقناع نفسي بأن هذه الخطوة إن لم أقدم عليها الآن فسأحمل وزرها لاحقا إلى آخر العمر، وهنا أخذتُ أبحث عن دافع قويّ، مصدره محرّك صغير الحجم، عظيم الفعل ... القلب ... هذا الدافع تبلور وتشكل، واشتعل وأشعل همتي وإرادتي على يد أحلام ابنة أبي سليم، أو قل على قدّها المياس وخدها الأسيل.

أحلام تصغرني بست سنوات، التحقت بإحدى الكليات لتأهيل المعلمين لتحقّق مرادها بأن تصبح معلمة علوم لتلاميذ الابتدائي. كنت أراها أحيانا عندما كانت تأخذ مكان أبيها في دكانه وهي صغيرة، لكني أبدا ما انتبهت لها في ذلك الوقت، ربما لانشغالي أو لصغر سنها. التقيتها مجددا عندما قررت أن أزور أبا سليم في دكانه، وذلك عقب انتهائي من إحدى الجلسات في

المحكمة، تقرّرت إثر تقصيري بدفع غراماتي. أذكر أني في ذلك اليوم كنت قلقا جدا، ولم تكن فكرة زيارة أبي سليم تراودني، لم يكن في رأسي تفكير غير صورتي ممتثلا أمام القاضي في المحكمة ... ماذا لو قرر القاضي ألا يمهلني لسداد الدين المستحق والغرامات التي لم أدفعها بوقتها ... ماذا عن تعليمي ... ثم لو وافق القاضي هذه المرة على مهلة، من أين يا تُرى سآتي بالمبلغ لسداد ما تراكم عليّ من غرامات مؤجلة، ومبالغ ينآى مارد عن حملها وتنيخ تحتها الجمال ... على رفِّ الكراسي الخشبي قبل الأخير، جلست في قاعة المحكمة التي ضاقت عليّ رغم ارتفاع سقفها وخلو فضائها، وانتظرت حتى نودي باسمي وامتثلت واقفا أنظر إلى القاضي يتمعّنُ، مستندا أمامه ويحرك شفتيه متمتما، ثم رفع رأسه معلنا تاريخا في الشهر القادم، كتاريخ أخير لسداد الغرامات المتراكمة، ومهددا إياي بالسجن في حال لم أدفع في الوقت المحدد، إذ قال بلهجة جدية حازمة قاطبا حاجبيه:

- ستكون المرّة القادمة مختلفة كلّ الإختلاف في حال عدم التزامك بما هو حقٌّ عليك، على أنّي لا أتمنّى أن تكون هناك مرّة قادمة.

قال جملته الأخيرة وأومأ لمساعِدَتِه التي تجلس على كرسي أقل ارتفاعا من كرسيه، على يمينه بُعد مترين، بأن تنادي التالي، وفي خضم ذلك شكرته، واتجهت صوب المخرج تاركا خوفي وراء ظهري في القاعة ... لا يعنيني ماذا سيكون لاحقا، بهذه اللحظة شعرت بالراحة ... لا زال أمامي مهلة شهر تقريبا ... تحوّل القلق إلى راحة وكأن جبلا أزيح عن كاهلي، وخرجت من قاعة المحكمة لأجد النهار بديعا ولا زال بأوله، فخطر ببالي التنزه ثم الذهاب إلى البلدة القديمة، حيث كانت تجارتي، وبالتالي زيارة أبي سليم في دكانه.

لم تتغير معالم الشارع، ولا حتى الحوانيت، باستثناء دكاني الذي أحيل مطعما تعلو مدخله لافتة كتب عليها "مطعم الرِّيِّس" بخطٍّ عريض يمتدّ على طولها، وتحت هذا الاسم الذي لم أستحسنه، كُتب بخط أرفع وأدق "لأشهى وجبات السمك". عرّجتُ على دكان أبي سليم فوجدت أحلام مكان أبيها. لقاؤنا هذا كان مختلفا، فور دخولي للدكان من ذلك اليوم لفت انتباهي ابتسامة أحلام وبريق عينيها ... أحلام! ... تبدو مختلفة ... لقد كبرت ... لم تعد تلك الصغيرة ... ألقيتُ التحية مبتسما وسألتها عن أبيها الذي لم

ألحظه في الدكان. ثم دار حديث قصير بيننا شعرت فيه بالسعادة، إذ أن أحلام أبدت سعادتها بأنها رأتني ثانية، وأنها كانت قلقة على غيابي وتساءلت مرارا عن سببه، فهي لا تعلم بكساد تجارتي وخسارتي فيها، كما لم أخبر والدها بالأمر. أخبرتني عن دراستها بالكلية وسُررت لذلك، فقد خطر ببالي تعليمي بالجامعة، وبدوري أخبرتها أنا أيضًا عن تعليمي وانجازاتي في الجامعة.

في حديثنا القصير هذا انتبهت لجمالها الناعم، وطولها الذي يناسب تناسق قسمات جسدها المتناسقة، وشعرها الأملس الأسود المتدلّي على أكتافها كشلّال ناعم في منتصف غدير. حاولت أن أطيل الحديث فسألتها عن تعليمها وانجازاتها، وعندها رأيت ارتباكها وبعض الخجل الذي أسما حسنها، وأجابتني بأن التعليم ليس بالأمر السهل، فقاطعتها بجملة لطيفة بأنها حتما ستنهي تعليمها، وتصبح معلّمة يتمناها الجميع، لا سيما أن كلّية "أورانيم" مرموقة المستوى، فلا تُزرَعُ فيها بذرةٌ إلّا نَمَت واخضرَّت، فهي خضِرَةَ نَضرة، وأضفت باسما: وفيك من

جمالها، ثمَّ عززت الابتسانة بأخرى وأخبرتها أن توصل سلامي لوالدها، وغادرت المكان على جواد السرور.

لاحقا أخذ حديثي القصير مع أحلام يدور في بالي، ويتفاعل مع مشاعر جميلة تنسيني للحظات شبح الديون، وتحلّ مكان الحيرة والقلق من الآتي وأشباح المجهول. تطور هذا الحديث خلف ستار نفسي وفي طيّاتها إلى خيالات أهرب بها إلى أرض السعادة زوجا لأحلام. لكن بعض التساؤلات التي تُلازم تفكيري هذا كانت تأتي على خيالي سريعا، لتعيدني إلى أرض الواقع، ماذا لو كانت أحلام مرتبطة، أو ماذا لو لم تكن تحتفظ لي بالحب الذي أتخيله ... ولماذا لها أن تحبني بهذه السرعة؟ ... ربما كلامها اللطيف معي وقتها كان من نابع لطفها لا أكثر. كان لا بد لي أن أعرف الإجابة، إذ أتعبت حيرتي ذهني، وأشعلت فؤادي، فقررت أن أبدد كل تلك الأوهام والتساؤلات، وأن أذهب لزيارتها في الكلية.

اعتدتُ الذهاب إلى الجامعة مع طلوع شمس الصباح، في أول حافلة تنطلق من القرية باتجاه خليج حيفا، رغم أن المحاضرات لا تبدأ باكرا كل يوم، ثم أستقلُّ حافلة أخرى من هناك إلى

الجامعة، لكن هذه المرة استقليت الحافلة المتّجة نحو كلية أورانيم بدلا منها، وقصدت أحلام في كلّيتها.

تفاجأت أحلام بزيارتي، وبدا عليها السرور الذي على إثره تكررت زياراتي المتقطعة إليها في الكلية. وهكذا كانت بداية علاقتي بأحلام، التي رأيتُ فيها أملا بانقاذي من أفكاري، ومن قلقي المتزايد حيال قضية زواجي، كما وجدت فيها الدافع القوي لأستدرك أمر الزواج، وأباشر فيه، لأطمئن على هذا الجانب المهم من حياتي. لم تستمر علاقتي الغير رسمية بها طويلا، إذ لم أشعر بالراحة من تطور علاقتنا دون علم أبيها، وهي لم يبرحها الخوف من نظرات الطالبات، وكان ينتابها القلق في كل مرة أزورها. كما لم يكن هناك شيء أفخر فيه أمامها غير تحصيلي العلمي. ولم تجمعنا مواضيع واهتمامات، بل شعور بالطمأنينة والراحة لا غير.

كانت السنة الدراسية الثانية قد شارفت على الانتهاء. في أواخر فترة الامتحانات، بعدما تخطّت أحلام بعض المساقات التي أخافتها، وبعد أن أصبحت تعرف كل شيء مهم بحياتي، مثل

وضعي المادي وديوني، عرضتُ عليها أن أتقدّم لخطبتها من أهلها، سرّها الأمر وأبدت موافقتها بخجل وابتسامة، لكنها طلبت مني أن أتمهل لتؤكد موافقتها لي آخر اليوم، فرأيت بامتناعها هذا غنجا جميلا، سرى جماله لوهلة في شراييني قاصدا قلبي، لتنمّ عن هذا ابتسامة من ثغري فتنهيدة خفيفة، تجنّبتُها بسؤال وجّهته لأحلام بلطف عاشق، ورقة مشتاق، ونظرات وامق ظافر فسألتها:

- لماذا عليّ الانتظار لآخر اليوم؟
- ليس عليك الانتظار لآخر اليوم، أنت تعرف الجواب مسبقا.

ثم مبتسمة أعادت نظرها إليّ وقالت:

- طلبت أن تنتظر لآخر اليوم لتأكيدي الجواب الذي تعرفه ليس إلا.
- طيب يا ستي، كما تشائين، آخر اليوم آخر اليوم.

لكني لم أصمت عنها طويلًا، فعدت لسؤالها وطرقت ذات الباب بنغمة مختلفة، وسألتها باهتمام ولطف عن السبب، فقالت بخجل وغبطة تشير إليّ بأن لا أقلق:

- لا شيء، أودّ إخبار أمي اليوم بعد عودتي إلى البيت واستشارتها.

أتى الرد سريعا وقمت بزيارة أهلها بعد يومين ... لا أذكر تفاصيل كثيرة في تلك الفترة، أذكر على وجه الخصوص الحرج الذي انتابني أمام والدها عندما ذهبت طالبا يدها وقابلته في بيته بعد انقطاع طويل، كان هذا أكثر ما علق بذهني ورسخ فيه، لما حمله من حرج وخجل.

بعدها رأيت حياتي بدأت تعود طبيعية، رغم كل القيود والعوائق التي حالت دون ذلك. غريب هذا اليقين الذي ملأ صدري حينها، كنت أكيدا بأني سأنهي تعليمي وأبدأ مزاولة عمل ما، وبناء بيت قبل زواجي، وكل هذا في ظل ما أنا فيه. لم يكن عليّ أن أخطط لكل هذا، كل ما كان عليّ هو الصبر... والزحف!

خطبتها قبل دخولي السنة الثالثة من تعليمي بأيام. خطبة هادئة غير مكلفة كثيرا، إلا أن أحلام لم ترض بشكلياتها، كما أنها لم تمانع، فقبلت بغير رضاها التام. لاحظت من حديثها لي، أن أكثر شيء سرّها هو دخولها السنة التعليمية مخطوبة لشاب متميز، يتعلم في الجامعة، تفتخر به أمام صديقاتها وجميع من عرفت.

أنهيت اللقب الأول بنهاية السنة الثالثة وابتدأت اللقب الثاني مباشرة في خريف سنة *1994*، بينما ترتّب على أحلام بعض المساقات لتنهي تعليمها.

قبل بداية دراستي للقب الثاني، ومع انهائي للقب الأول قمت بإرسال سيرتي الذاتية عبر البريد والفاكس، لبعض المدارس عارضا نفسي مُدرّسا للرياضيات ... وَبَشَّ القدر لي حدّ قلقي ... وكيف لا أقلق وقد اعتدت التعتير ... كان نصيبي في مدرسة ثانوية، هي من أفضل المدارس في المنطقة وأرقاها، وقد سهّل لي مدير المدرسة - الذي توسم بي خيرا من انجازاتي - برنامج عمل يوافق تعليمي وعملي في الجامعة. وهكذا بدأت أزاول مهنة

التدريس مع انطلاق السنة الأولى للقب الثاني، الأمر الذي زاد من إمكانيات زواجي في غضون أقل من سنة.

توسمت بتلك السنة خيرا، وشعرت بها سنة سعيدة، كأني فيها أخرج من جب المستحيل في عودة لبر الأمان والحياة الطبيعية، لأعود وأقفا على قدمي مجددا في مكان تمنيته. سعادتي هذه كان لها التأثير البالغ على جودة عملي في المدرسة. كما حظيت في ذات السنة برؤية أجمل وجوه رأيتهم في حياتي، وجوه طلابي الذين أحببتهم من الصميم، وأحبوني بدورهم بأصدق معاني المحبة. وجوههم الجميلة لا زالت تتبعني إلى اليوم مثل ملائكة صغار في سماء الحب ،تجلّت في لحظات سعيدة ،لا أظنني أنساها يوما ما حييت، أتذكرها فينبعث السرور متفجرا من قلبي كينبوع ماء زلال، كيف أنسى يوم اتصلت بي أم أحد الطلاب تخبرني عن حب ابنها لي، واعجابه الشديد بشخصيتي، وتسألني ضاحكة عن نوع حذائي ومن أين اشتريته، لأن ابنها يريد أن يبتاع مثله، ثم سألتني عن نظارتي الشمسية ... موقف من عدة مواقف رائعة، بعثت بداخلي الفرح والسرور... لكن للأسف، لم تدم تلك السعادة في الواقع كثيرا، وأضحت فقط محض ذكرى

لا أنساها، فسرعان ما زالت من واقعي لتنقلب حياتي لتعاستها مجددا بعد انقضاء السنة الأولى، ومع مطلع السنة الثانية من عملي كمدرّس، وإن اتخذت التعاسة هذه المرة شكلا جديدا، وثوبا بلون آخر، وكان لها التأثير البالغ، والأثر الدامغ، على مجريات حياتي لاحقا، كما وقذفتني حيث لم أكن لأتوقع وأتخيّل أني سأكون يوما ما.

أحلام

ربما تمر بتجربتي كل فتاة، وقد تجد فتيات مررن بتجربة أصعب منها، ربما باختلاف الوجوه، والشخصيات، والمكان والزمان، لكن باتفاق النتيجة والحاصل، من ضياع وحيرة وتخبّط، بعد اتفاق ووفاق، وخلط بينهم، بما يصحبون ويأتون من تضارب في المشاعر والأحاسيس، يُعَنْوِنُهَا القلق والخوف، ومرار الصبر والانتظار، تحت لمسات الأمل وصفعات الألم، لكن هذا لم يجعل من تجربتي أمرا سهلا ولا هينا، ولا عابرا، ولا حتى يواسيني بشيء، أو يلطف فؤادي، أو يجمع شتات نفسي وشظايا أحلام تكسرت وتطايرت لتنتشر على أديم الأحداث قطعا صغيرة يستحيل تجميعها، وصياغتها بالشكل الذي كانت عليه من جديد.

نشأتُ في عائلة متوسطة الحال، ميسورة الأحوال، لم تواجه مشاكل مالية، أو معضلات من النواحي المادية، لا أذكر أني طلبت شيئا ولم أحصل عليه، ولا رُمت غاية أو تمنيتها، إلا وجدتُ أبي أو أمي، أو كليهما يمهدان لي الطريق إليها، أو يأخذاني إلى حيث

هي، أو يجلبانها إلي، غير أمر واحد لم أحصل عليه، رغم أني تمنيته بشدة وإصرار، وما خفي عنهما ذلك، ولا غاب أو استتر، فهذا ما أراده جميع أخوتي، وإن خانهم التعبير عنه وإفصاحه، أو قيدهم الخوف وصفدت ألسنتهم المَهَابَةُ، فللعيون حديث يفقهه الجميع، ويفهمه دون اللبيب بدرجات، أردتُ بتلك الخلافات بين أبي وأمي أن تنتهي، أردتُ أن يتوقفوا عن الجدال على كل صغيرة وكبيرة، لا أدري كيف انتهى بهم الحال إلى هذا، ولا أذكر متى بدأ، وما أسبابه، ولم أنجح في فهم منبعه وكيف الخلاص منه ولجم ظواهره. كبرتُ وكبر معي خوفي من هذه المشاجرات التي كنت أراها كل يوم تقريبا. فبالرغم من أن أبي كان يغيب عن البيت ساعات طوالا، بين عمله في الدكان وسهره مع ندمائه وسمرائه، إلا أنني قليلا ما أتذكر أياما هادئة بينه وبين أمي، كان سريع الغضب، مشتعل الفتيل على الدوام، وصوته جهوري، تسمع فيه حدّة توحي لك ببأسه وبطشه وعناده، لا شيء يرضيه، ولا انثنى يوما عن مراده، وإن كان جلّ مراده ومطلبه وليد اللحظة، أو مر بذهنه للتو دون سابق إنذار، أو دلالة عليه أو إشارة سبقته.

تعودت بعد سنين أن أتجنب هذه الخلافات وألا ألقي لها بالا، لا أدري لماذا كنت أنحاز لأمي وأرى بأبي مخطئا، مع أني كنت أحبه وأرأف بحاله كثيرا، فهو لا ينسانا أبدا، ولا يوفر مجهودا لتلبية احتياجاتنا، رغم تذمره من صغيرها وكبيرها، ورغم هالة الخوف التي تلبسنا قبل أن نسأله ونفضي إليه بما نريد، لكنه بدا وكأنه لم ينتبه لحاجتنا بوقف شجاراته مع أمي وتذمره المستمر من حياته وتعاملها معه.

التحاقي بالكلية شَكَّلَ لي مَنْفَسًا، ونافذة لعالم آخر يسوده الهدوء والاستقلالية، بأرض خصبة تنمو فيها الأحلام، كما ينمو العشب الأخضر ويكسو مساحات هائلة في الربيع، حلمت أثر قبولي للكلية بامتيازي واستقلالي، وكثيرا ما كنت أتساءل عن وسامة الشاب الذي سيحظى بفتاة مثلي وبأناقتي، فهنا يكتمل الكمال حين يجمع بين شابين وسيمين، وتزهر الأماني حولهما وهما يشبكان أيديهما ويعقدان نظراتهما بعضها ببعض، تحت ظلال الحب والعشق والهيام، كأن لا أحد في الدنيا سواهما، كنت أعطيه كل يوم منصبا ومهنة ... مهندس ... طبيب ... أو تاجر ثري ناجح يتنقل بين الدول عبر البحار، أو في السماء بطائرته الخاصة، ويصحبني

معه لإتمام صفقاته الدولية المركّبة ... حلمت بهدوئه ودفء البيت الذي سيجمعنا ووساعه، وكثيرا ما رأيت نفسي بفستان أبيض ليلة زفافي بالطرحة ذات الذيل الذي لا تُرى نهايته، والتي يقبضن عليها قاصرات جميلات ينظرن إلي كفتاة أحلامهن، وأقصى ما أردن، فيراقصني كأميرة وسط زحامات الأقارب، والصديقات اللواتي يتمايلن طربا في حفل زفافنا، وهو ذاك الأمير بحلّة سوداء، يتوسطها بياض ناصع كبياض فستان زفافي، ويمتد بي الخيال حتى أجدني جالسة إلى طفلة صغيرة مكتنزة ومستديرة الوجه، أتخيلها ابنتي فأختار لها ملابسها الثمينة، وربطات شعرها الملونة المزخرَفة، وحتى طلاء الأظافر.

في السنة الأولى من تعليمي حظيت بأصدقاء وصديقات، كنت أمضي أغلب أوقاتي معهم، كما كنت أتراسل مع صديقاتي كثيرا، أما أصدقائي فلم أر فيهم حلمي، ولا صفات أميري، رغم تلك المضايقات الغزلية التي كانوا يهجونني بها، فلا يلامسون قلبي ولا يدنون وتر إحساسي، فقد كانت تصرفاتهم صبيانية بعض الشيء، ولا تخلو من سطحية وتفاهة، لكن لا بأس بجو جميل كهذا.

لاحقا أخذت الأمور تأخذ جديتها، فقد اقترب موعد يتضاعف مع اقترابه الخفقان، ويكرم فيه المرء أو يهان، إذ أشارت رزنامتي على مكتبتي المتواضعة، في غرفتي، إلى اقتراب الامتحانات، وكنت سعيدة في تلك الفترة. كنا نجلس مجموعات لساعات طوال، ندرس ونذاكر في جو لطيف لم يخلُ من الجد والتعب.

بعد انتهاء فترة الامتحانات، وعقب صدور النتائج، اختفت بعض أحلامي وتسترت خجلى خلف نتائجي المتواضعة، فأصبحتُ أرضى بالنجاح فقط عوضا عن الامتياز، وانتصب قلبي على الأعراف ينظر هاوية السقوط على يساره، أو خطوة في أرض النجاح إلى يمينه، كما وتقلصت مجموعة أصدقائي وانكمشت. لم تكن الامتحانات بالأمر السهل الذي تخيلته، ولا بالهين الذي تمنيته، لم أشعر بذات الشعور الذي كان يعتريني بعد انتهاء امتحاناتي في المدرسة، بدا الاختلاف واضحا جليا، وأدركت الاختلاف بين امتحانات المدرسة والامتحانات الجامعية، إدراك المجرب لا الحكيم، كما أدركها جلّ الطلاب إذ تركت علامات بارزة في أذهانهم وأمانيهم، كما يترك السوط علاماته على ظهر المسوط. تطابق هذا الحال، وتشابه عند كثير من الطلاب الذين

أعرفهم، حتى أن بعضهم مع انتهاء الفصل الأول لم نعد نراه، كما أن بعضهم اختار أن ينتقل من قسم العلوم لقسم آخر، ويجرب حظه هناك في بداية جديدة بسلك آخر. أما أنا فقد استمررت بقسم العلوم، أحمل فكرة إمكانية انتقالي لموضوع آخر أو كلية أخرى ربما، كما زارني الخجل في كل مرة أتت فيها سيرة التعليم على الألسن، ولم يواسني بشيء حال كثير من عامة الطلاب، التي ما اختلفت عن حالي، ولا فكرة أن اللغة العبرية هي عائق أمام العرب له دور في اخفاقهم، كما ولم يختلف الأمر مع انتهاء الفصل الثاني من السنة الدراسية الأولى بكثير.

في البيت لم يسأل أحد بجدية عن تعليمي، كان أبي يرعى مصروفاتي وتكاليف التعليم، وعندما يسألني عن الكلية أو التعليم - من باب الواجب لا التدقيق والتمحيص - كنت أشعر أن سؤاله له جواب واحد فقط، الحمد لله، كل شيء بخير. كان والديّ سعيدين بابنتهما فتاة أكاديمية ينتظرها مستقبل مشرق، وكثيرا ما كانا يفخران بي أمام عماتي وخالاتي، وأفراد العائلة بأقصى طرفيها، فتاةً جامعية تدرس في كلية مرموقة، وينتظرها غد مشرق باهر أبلج، وهذا الأمر زاد من الضغط على كاهلي،

وأجبرني على الصمت الذي اعتدت عليه، لم أشأ أن أبدد فرحتهما بابنتهما، وكان خوفي يتصاعد مع كل يوم يمضي، حتى أتى اليوم المنشود، اليوم الذي قابلت فيه عمر عندما أتى لزيارتي في الكلية، وأعاد لحياتي نظام نبضها وانضباط خطواتها.

*****

لم تكن السنة الدراسية الثانية سيئة ولا كانت على غير المتوقع كسابقتها، فقد بدأتُ أعتاد جو التعليم، وبعض أساليب الدراسة، لم يعد يفزعني أو يحبط من عزيمتي إعادة مساق، أو علامات متوسطة أو حتى أقل، كل تقدم أحرزه في كل فصل، ولو كان بسيطا، من شأنه أن يبعث بقلبي الطمأنينة والراحة، ويبقي فتيل الأمل بإنهائي تعليمي وتجاوزي لقبي الأول بنجاح مشتعلا. كما بدأت فكرة انتقالي لمكان أو قسم آخر تتلاشى شيئا فشيئا.

في السنة الثانية قبل أن أعرف عمر، قلّت وتيرة أحلامي بشريك حياتي وحب أتمناه، لكن هذا الأمر تغيّر مع بداية السنة الدراسية الثالثة.

في السنة الثالثة من تعليمي ترتب عليّ بعض المساقات المؤجّلة من السنة الثانية، نظرا لإعادتي تلك التي لم أتمكن من اجتيازها في السنة الأولى. هذا الأمر بدا طبيعيا، لم أعد أخجل منه، إذ أن أغلب الطلاب في المعاهد العليا والكليات، يواجهون ذلك رغم أنهم لا يصرّحون، خجلا ربما، أو عدم رضا من انجازاتهم. لكن غيابهم عن محاضرات، وتواجدهم بأخرى يقول عنهم كل شيء ... ولماذا الخجل ... لكن لا أدري لماذا ارتبكت لأول مرة عندما زار عمر دكاننا، رغم أني لم أكترث بسائر الزبائن من شبان الحي، الذين يتهافتون لحظة وجودي في الدكان، ولأجل هذا نبّهتني أمي بأخذ حذري وحيطتي منهم، ومن عبثيتهم وتصرفاتهم، وكذلك فعل أبي، الذي أكّد عليّ اخباره بأي مضايقة كانت، صغيرة أو كبيرة ... لا بدّ منه ذلك ... يعاملني كما لو أني من زجاج هش!

في ذلك اليوم، ترتب عليّ الذهاب مكان أبي إلى الدكان، رأيت من الواجب أن أستمر في إعانته، رغم ضغوطات التعليم، فهو الذي يتكفل بمصاريف تعليمي، وهذا ما اعتدت عليه قبل التعليم. جلست يومها في الدكان أنتظر اللحظة المناسبة لأدرس قليلا، وبين مللي وتأجيل الدراسة حتى هدوء حركة الزبائن، أو حتى

تأتيني الرغبة في شق صفحات الكتاب الموجود على الطاولة أمامي، ظهر شاب على الطرف الآخر من الشارع، يتجه بخطوات ثابتة صوبي، لفت نظري، فوجدت نفسي أقلّص من فتحة عيني مدققة متفحصة من عساه يكون، ملامحه مألوفه، فلا بدّ للفؤاد من تنبيهك إليه ... ربما هو الأسود الذي يرتديه ... مَن ... لا ... انقشع الشك وسقط الستار، كما سقط الدفء في قلبي، وأرخيت حاجبي واعتدلت في جلستي ... إنه عمر!! دخل إلى الدكان جالبا معه شعورا مريحا، نزل مباشرة في مقر حواسي واختلط مع نبض الفؤاد، شعورا أشبه بنسمة لطيفة في أيام الصيف الحارة، تروح وتغدو لتلامس قلبي فتنعشه، بعد حرّ تساؤلاتي عن سبب غيابه المفاجئ ... وما سبب عودته الآن ... وكيف هو وماذا يصنع ... وأي حياة يعيش ... هل هو متزوج أم أعزب!

لا أدري لماذا أخذت أوهم نفسي بأنه أتى لزيارتي أنا، وليس لزيارة أبي، رغم أني كنت أكيدة بأنه لم يكن يعطيني ذلك الإهتمام عندما يأتي لزيارة أبي في الدكان قبل غيابه المفاجئ.

- مرحبا يا أحلام ... كيفك؟

بابتسامة صادقة لم أكن لأستطيع إخفاءها قلت:

- عمر! أهلا عمر!

أنا بخير الحمد لله

أنت كيف حالك؟

- الحمد لله، بخير وعافية، شو صاير علي

مريت بالجوار قلت باجي أشوف الوالد

- أبوي رح يرجع بساعات المغرب!

- على خير، وين أيامك؟

ودار حديث لطيف بيننا، وتفحصت عيناي ملامحه بحذر كي لا يلاحظني ... لم يبدُ مختلفا ... طوله مناسب، وصوته رجولي جهور، ولا دبلة في يده ... هو كما هو ... لكن ما سبب انجذابي وسروري هذا ... أهو الغياب ... لاحقا وبعد أن غادر تاركا عقب الحديث الذي دار بيننا شعورا جميلا مريحا كالذي جلبه معه، أخذت أسترجع في ذهني ملامحه ورجولة بدت عليه جلية، وسبحت بمخيلتي حتى وجدت نفسي بحفل الزواج، ورأيته يراقصني بلباس أنيق يشبه إلى حد ما لباس أحد المحاضرين

الشباب في الكلية ... ما أجمل بريق دبلته التي اخترتها له عندما ترتفع مع ارتفاع يده في الهواء برقصه الوقور ... تبعته عيناي عندما استدار ملقيا تحيته هاما بالخروج ... هل سيعود ... هل سأراه يوما ... لا بد أن يعود فهو لم ير أبي ... هل سأراك يوما يا عمر... عد كل يوم!

كانت هذه الزيارة بغير ميعاد وغير أدنى توقع مني، أتى كغيث في وسط آب! ومثله ذلك اليوم الذي انتظرت بعد زيارته الأخيرة، فقد أتى هو الآخر دون انذار، ولكن في مكان غير متوقع، فقد كان بعد انتهاء إحدى المحاضرات، وخروجي من القاعة لأجلس على مقعد بمحاذاة باب الخروج، حينها أطرقت رأسي أقلّب بمفكرتي حتى سمعت صوتا يلقي التحية علي ويناديني باسمي، كان صوتا رجوليا مألوفا، لا يخلو من لطافة، دار بذهني لوهلة أن طبقة هذا الصوت تتطابق مع طبقة صوت أحد المذيعين في الإذاعة المحلية. رفعت رأسي لأرى تعابير وجهه وتقاسيمه التي تخللتها ابتسامة رقيقة تبعث بالطمأنينة، وغرقت لوهلة في عمق عينيه، وحدّة نظراته، قبل أن يقفز قلبي فرحا، مدركة أنه عمر ... لقد عاد ... ما أجمل اللقاء بغير ميعاد ... تخلصت من ارتباكي

بسرعة ليستمر الحديث بنا في ذلك اليوم المميز في الكفيتريا الصغيرة، على مقربة من مكان قاعة المحاضرات، هو جلس ليشرب قهوته مستمتعا بهواء الكلية العليل، وأنا غصت بسعادتي حتى الأعماق، لم تفصل بيننا سوى طاولة صغيرة مربعة الشكل، عليها فنجان قهوته، يمسكه بلطف بيمينه، ويمدّ يساره بمحاذاتها على الطاولة، وتطوق معصمه ساعة ذهبية اللون، تناسب لون نظارته الشمسية التي رفعها على رأسه ... كما حاز اللون الأسود أغلب ملابسه ... الأسود ملك الألوان ... يتناسب مع كل لون ... هو يحب الأسود بلا شك ... هذه المرة الثانية التي أراه باللون الأسود، لكن هذه المرة كان أكثر مرحا وشبابا، طُبِعَت على تيشيرته قيثارة رمادية اللون، بإطار أحمر بدا كأن كلامه يخرج منها لحنا يأخذك بقارب الراحة، عبر بحر المنى والأحلام، إلى جُزُر الطمأنينة والدّعة وما بعد السلام، يا لجمال أسلوبه ولطف حديثه، لم ينتقد شيئا، ولم يتذمر من شيء، حتى أنه لم يبدأ كلامه بِ "لا" أو بِ "أنا". بدا إيجابيّا مرتاحا ومريحًا، كما رأيته راضيا، مُفعما بالأمل، ولا يعاني من صعوبة التعليم، أو من معضلة ما. رأيت فيه سعادة هادئة، ورزانة

شخص يليق به أن يكون زوجا وأبا. ركبتُ بحر الأماني مجددا، وزرت القصور فوق الغيوم البيضاء، وبالوقت الذي كان فيه يجتهد منتقلا من موضوع لآخر، على أمل أن يعثر على شيء يعجبني ليتحدث فيه، أخذت أحدثه في ذهني خلف صمتي الخجول ... قل ما شئت ... كل قول يعجبني ... تخيّلتُ تجاربه وماضيه، لا أدري لماذا انحصر تفكيري في عدد عشيقاته في الجامعة، وهل هو لطيف معهن مثلما هو معي الآن، أم أن هذه اللطافة حفظها لي فقط ... بالتأكيد ... وإلا لمَ عاد لزيارتي! مع غرقي بأفكاري واسترساله بكلامه، بدا حديثنا كما لو أنه حديث من طرف واحد فقط، فقد كنت أجيب ببخل غير متعمد على أسئلته، لكني أعطيته إصغائي، وكامل اهتمامي، وجُدتُ في حديثي مع نفسي ... تفحصتُ أدقّ تفاصيله ... لم أشعر بمرور الوقت بجلوسي معه، كما لو أن عنصر الزمن انصهر وتبخّر!

- ماذا تفعل هنا؟

سألته مبتسمة، ففاقني بحجم الابتسامة، ورمقني بنظرة ثقة، وقال كلمة واحدة، فطربتُ عليها كما لو كانت أغنية ... "زيارة"!

أسعدني أنه أعرب عن سعادته بجلوسه معي، كما لاحظت ابتسامته عندما أخبرته بدوري عن سعادتي أنا أيضا بخجل وتردد. كان شفافا بتعابيره، ومهذبا بكلامه، وكنت حذرة قلقة، أسلوبه مختلف عن أسلوب من أعرفهم من زملاء وأصدقاء، لاحظت أنه ملم بكثير من المواضيع التي حاولت جاهدة أن ألقي إليها بالًا، مدعية بابتسامة أو بتحريك رأسي فهم بعض التعابير الأدبية التي استخدمها في خضم كلامه، بدا عمر مختلفا، وأكثر عمقا من صاحب الدكان الذي كنت أعرفه ... بدا بعيدا عن ضوضاء المدينة، ومحبًّا للطبيعة وأشجار الكلية الخضراء الفارعة ... لفت انتباهي لجمال المكان وهدوئه ... كيف لفت انتباهي لأماكن أمرّ بجانبها منذ زمن، دون إعارتها انتباها ... غريب هذا الشاب، وغريبة هي اهتماماته. بعد مقدماته الجميلة، ووقوفه على أمور رأيتها عادية جدا، سألني عن رأيي في جدلية الكون، إن كان حديثا أم قديما، فقطبت حاجبيّ متسائلة وقلت:

- ماذا تعني بحديث أو قديم؟
- الحديث هو كل مستحدث له بداية، والقديم هو الذي لم تكن له بداية.

ثم استمر بحديثه يشرح لي فقال:

- مثلا، الله جل جلاله قديم، فليس له بداية، وليس له نهاية طبعا، فهو الأول والآخر، فماذا تقولين عن الكون، أتظنينه حديثا؟
- أظنه كذلك، فقد بدأ بعد الانفجار العظيم كما يقولون!
- نعم، لكن هناك من يختلف عن هذا الرأي، وإن اتفق مع نظرية بداية الكون فور الانفجار العظيم، يعلّلون بأن الكون هو من إرادة الله، وإرادة الله من الله، فهي قديمة لأن الله قديم، وكذلك الكون، أما عن الانفجار العظيم، أو نشأة الكون، فقد استوجبتها إرادة الخالق فكانت.

ضحكتُ حتى بدت له أسناني، وبسطتُ أمامه راحتيَّ متعجّبة متسائلة، فابتسم لي وأخبرني بأن هذه الفلسفة تثير فضوله، وقد كان له حديث في هذا مع صديق له، قابله صدفة بعد انقطاع دام سنين، صديقه هذا يعمل طبيبًا، ويهتم بفلسفة الإغريق والغزالي وابن رشد، وقد أثار اهتمامه سؤال صديقه عن

"نظرية الخلق"، إن كان الخلق منقطعًا أو مستمرا، وأخذ يشرح لي الفرق بين النظريتين، وأن لصديقه رأي آخر استحسنه، أما أنا فقد ضعت بين تلك المفردات، وأظهرت له ذلك بتعابير وجهي التي قابلها بلُطف المُتَقبّل.

توالت بعدها الأيام وشعرت بحبّه واهتمامه وتفهمه، وبدوري لم أخفِ حبي عنه، كنت ألقاه بزياراته المتقطعة، حتى بدا أمرنا جليا، وترآى لصديقاتي بأنه حبيبي. كثيرا ما كن يعلّقن مازحات إذا ما رأينه في الكلية أتى لزيارتي، كانت تعليقاتهن تسرّني وتقلقني في آن واحد، فشعرت بأني متميزة، لا ينقصني شيء، لكني بقيت قلقة من انتشار الموضوع، وتأويل الكلام ... لا بأس، هو زوجي الوشيك بلا شك ... سيتقدم لخطبتي قريبا، وينتهي القلق! تنبّهتُ إلى أن عمر يحبّ الجلوس في الكفتيريا، أو بين رفوف الكتب في مكتبة الكلية، وشعرت بأنه يريد التواري عن الجميع بجانبي، أذكر أول مرة قال لي أحِبُّكِ، كنا وقتها في المكتبة، لم نقرأ أو ندرس، إنما أدرنا حديثا بأمور جانبية، حينها كان ينظر إلي بعاطفة جياشة، أثارت حماسي، بادلته بدوري نظراته، تارة لعينيه، وتارة لشفتيه وهو يتكلم، شعرت بالسعادة في هذه

الأجواء، مع بعض تشنجات في بطني. وفجأة قالها لي، فنسيت بعدها كل الحديث السابق، ونسيت كيف وصل لهذا أصلا، ولم أستطع الكلام وقتها، بل علتني ابتسامة عريضة ممزوجة بخجل شديد، قمت لوقعه أمشي بين رفوف الكتب في المكتبة، وألتَفِتُ خلفي ناظرة إليه بعينين ملأها الحب، ووجنة يعلوها الخجل، لأراه في هذه الأثناء يهمُّ مبتسما ماشيا خلفي، يحرك شفتيه متحدثا بكلام أسمعه دونما إصغاء ... أسمع فقط صوت السعادة في صدى كلمة "بحبّك" ... إقترب مني وأخذ يمشي بجانبي ... إلى لا مكان ... في لا زمان ... كأنه حلم ... كأنه الحلم ... كانت هذه اللحظة من أجمل لحظات حياتي ... بدأت بعدها الأحلام تتحقق ... وفاح عبق المنى ... وأبدعت ريشة القدر فرسمت أجمل قطعة في لوحة الأيام، وزينتها بأجمل الألوان، وجعلتني في الوسط ... هذا لون الأطفال ... هذا لون البيت ... هذا لون الطمأنينة والحب ... لا شتاء بارد بعد اليوم ... لا خريف جاف ... إنه الربيع الدائم ... ولكن ... لكن هذه اللحظات لم تبق طويلًا، فتهاوت الأحلام، واكفهرت الألوان، وضمر الطريق وتغيرت معالمه، واختلفت اللوحة أشد الاختلاف، فتمنيت لاحقا أن

أنساها، أو أنسَلَّ منها مفارقة إياها اذا استطعت، ولما استحال عليّ ذلك، استسلمت لواقعي، وما كان مني إلّا أن أودعتها بصورتها السابقة الجميلة، متحفي المهجور، خلف جدران التناسي، فهي هناك إلى الآن.

*****

لم تأت الخطبة بالشكل الذي أردت، ولا حتى شابهت أحلامي، هجرتني تلك الأفكار البيضاء لحظتها، لكني كنت أكيدة من أنني سأعوّضُ ذلك بيوم الزفاف، فهدأ موج سخطي وامتعاضي، كما أن فكرة دخولي السنة الدراسية بعد أيام من خطبتي أثلجت صدري لدرجة أني شعرت باشتياق للكلية، اشتياق لم أشعر به مسبقا، فقد اختلفت صورتها بذهني، وتبدّلتُ من فتاة في قاعة الإمتحانات، تمسك قلما بيدها وتلوّح به حيرة أمام ورقة الإمتحان، إلى حسناء ناعمة الشعر، منعمة الأظافر، وأنيقة الملابس، تمسك بيدها يد خطيبها، ويتبادلان الضحكات في طريقهم إلى الكفيتيريا، بمرأى ومسمع من الجميع، تحت ظلال الشجر الأخضر الوارف، وبين ألوان الأزهار المتنوعة وأريجها،

لذلك لم يكن اعتراضي صارما على شكليات خطبتنا، ولا عاندت عليها، بل تجاوزتها بخيالي إلى الكلية التي احتلّت منه الحيز الأكبر مسرحا لي ولخطيبي، نعرض عليه صنوف الحب، وأصناف العشق وأنواع الغرام، أمام جمهور كبير من البشر والشجر، وحتى الجماد والحجر بما حوى من مقاعد وأرصفة، وفناجين القهوة والطاولات المستديرة، وأبقَتْ الكلية مكانا صغيرا في خيالي جُبت فيه أنا وعمر، يلفّنا الحب كما تلفُّ الأضواء وجه المدينة زائرين عماتي وخلاتي في بيوتهنّ، بمناسبة وغير مناسبة. تخيلاتي الجميلة والأنيسة الرائعة تلك، أنستني كل شيء، لا سيما موضوع الخطبة.

بذات الروعة وأكثر كانت السنتان فترة خطبتنا، إزددتُ نشاطًا وسعادة، وأصبح من السهل عليّ تجاهل مشاحنات والديّ المتكررة ... هي مسألة وقت فقط، وسيغدو الآتي أجمل وأجمل. لم أشأ أن تكون خطبتنا سنتين، لكن وضعه المادي وتعليمه أجبرانا، كان لا بد من تجهيز بيت لنا، وانهاء تعليمه وإيجاد عمل جاد ليهدأ قلق أبي، وندخل عش الزوجية برجل اليمين على أساس ثابت يبشر بمستقبل مستقر.

تزوجت وعمر مع بدايات فصل مزهر تكاثرت فيه الفراشات وطارت تعرض ألوان أجنحتها فوق خضرة الطبيعة الخلابة، وقد حظيت وكنت واحدة من تلك الفتيات التي تغمرهن تلك اللحظة، حين يدخلن قفص الذهبية، كان زواجا أنيقا حصلت به على ما أحب، وحققت أحلامي بفستاني الأبيض ووسيم يراقصني.

إنتهى كل شيء سريعا جدا، وبدأتُ حياتي في بيتي الجديد الذي اختلف بعض الشيء عن البيت الذي تخيّلته دوما، فقد كان يخلو من كثير من الأثاث والمتاع، الأمر الذي شجعني لأطلق مخيلتي في كيفية ترتيبه، وإضفاء لمساتي عليه. في الشهرين من فترة زواجنا إلى عودة عمر لمزاولة عمله في المدرسة، تعرفت أكثر على أفراد أسرته، ورأيت بوضوح طبيعة علاقاتهم. لاحظت حبه لاخيه جميل، رغم أن جميل كان على النقيض منه، إذ خلّى نفسه من أدنى مسؤولية، ولم يأبه بمستقبل ولا بغيره، اللهم إلا أناقته، وتسريحة شعره وانبساطه الدائم بين سهره وصديقات علم الجميع بوجودهن دون رؤيتهن، كما شدت انتباهي علاقتُه التي تربطه بأمه، وكيف كان يزورها كل يوم تقريبا، ولا يعود إلى

البيت آخر النهار دون أن يمر بها. في البداية لم أكترث لذلك، لكن الأمر اختلف بعد تكرار أجوبته ذاتها عندما كنت أسأله عن حديثه مع أمه، أو كيف كان يومه برجوعه من عندها، أجوبته تلك جعلتني اعتقد بأنه لا يرغب في مشاركتي هذا الجانب من حياته، ولا يريدني فيه من قريب ولا بعيد. أخذتُ أتساءل عن طبيعة حديثهما، وما يجمعهما غير بر الوالدين كما كان يدعي، وزاد اهتمامي وفضولي بهذا حتى أخذت أتخيل أني موضع الحديث. كنت كثيرا ما أزور أهله معه، لكني لا أرتاح لجو الزيارة ولا أدري لماذا ... ما هذه النظرات ... أهو الحسد ... أهي الغيرة ... ماذا تريد أمه ... بيتي نظيف ومرتب ... وطعامي شهي ... لا يعنيني ... أنا لا أستطيع أن أحب امرأة تتفحصني وتراقبني كما لو كنت في اختبار جدارة، أو امتحان كفاءة لتنظر إليّ بتلك العينين!

أثناء غياب عمر عن البيت اعتدت الحديث مع أمي عبر الهاتف. محادثاتي مع أمي كانت طبيعية في البداية، وسرعان ما وجدت نفسي أحدثها عن علاقة عمر بأمه إلى شعوري بالقلق، ثم وجدت نفسي أتكلم عن ديونه، وطول غيابه المستمر، ونواقص كثيرة في البيت، وكانت أمي تسمعني في البداية، حتى بدأت

تحذّرني بأن عليّ أن أكون أقلّ إهتماما به لأجذبه إليّ، وتعطيني نصائح بكيفية التعامل معه. لكن مفعول ذلك أتى معاكسا تماما، حتى أنه قلب حياتي كلها رأسا على عقب، فبدل أن يهتم بلطف لعدم اهتمامي، كان سرعان ما يغضب ويثور، ويتساءل عن سبب أفعالي تلك ... ما المانع أن تحدّث الزوجة أمها ... ألا يعلم أن هذه طبيعة النساء ... حري به أن يُسَرَّ لأني أحدث أمي ولا أحدث امرأة عابرة ... أتعبتني مزاجيته، ثم بعدها تخلى، كان سريع الاستسلام ... ربما هو ماضيه القاسي الذي جعله يتخلى بهذه السرعة ... أو هي زياراته لأمه ... لا رغبة له بسماعي ... ليت عُمر سمع لي حينها، ليته سمعني عندما احتدم الخصام بيننا، لم أشأ أن يخبر والدي بخلافنا، فأبي لم يعرف عمر كما عرفته أنا، لم يعرف بأن لزوجي رغم قوته وصلابته، قلبا حساسا قد يُجرح من مجرد عبارة، وقد تحوله بعض كلمات إلى ذاك الإنسان الحزين الذي لا يرغب بالحياة ... ليس لعمر رغبة في القتال ... هو مرهق ... حتى حبي له يتعبه!!

وبعد زيارة والدي واستياء عمر الشديد منه ومني، وتحميلي المسؤولية المباشرة، واتهامي بإفشاء أسراره وهدم ثقته، وبعد

محاولاتي البائسة برأب الصدع، وترميم الثقة بيننا والعودة إلى علاقة طبيعية تجمعنا، صمّمتُ أن ننتقل من هذا المكان الكئيب، ورأيته الحل الأمثل، فعرضتُ على عمر أن نسكن بحيفا قرب الجامعة، أو في الناصرة حيث المدرسة، فيكون قريبا من مكان عمله، وبالتالي يوفّر مشاق السفر وتكاليفه، وبهذا نبتعد عن أهلي وأهله، فيصفو لنا العيش وحدنا، ونحظى ونظفر بالعيش الهادئ من جديد، طاوين بهذا صفحة سوداء بكتاب أيامنا، صفحة ما كان لها أن تكون.

- لا يمكن ذلك، سنتكلف الكثير، وقد لا نحتمل النفقات!
- على العكس، ستوفر بالسفريات كما أن أجرة بيتنا ستسد أجرة البيت الجديد، وستكسب راحتك!
- أي تفكير ساذج هذا، أرجوك لا تعودي لهذا الموضوع!
- دعنا نجرب سنة!
- لن أجرب يوما واحدا، سأعيش هنا وأموت هنا، حسم الأمر فلا تعودي للكلام بهذا الموضوع أو طرحه مجددا.
- أنت لا تريد لنا السعادة!!
- حقا؟

لم أستسلم بعد حديثنا هذا، وحاولت الضغط عليه بشتى الوسائل ... حزنت ... انزويت ... وخففتُ زياراتي لأهله بشكل ملحوظ ومتعمّد ... وعدتُ إلى الحديث ثانية وثالثة ورابعة ... لكنه رفض ... رفض سعادتنا واستقلالنا وحبنا ... وآثر إبقائي في الجو التعيس، ونفر أشد النفور، كما لو كان يريد التأكيد على أن الذنب ذنبي بما يحصل بيننا، فزاد غيابه عن البيت، وانشغاله بتعليمه ودراسته وكتبه، وأمور أخرى أجهلها.

عُمر

ظننت أني أقوم بواجبي على خير ما يرام، صارحت أحلام بديوني قبل زواجنا لتكون على بينة من أمري، كَفَيتُ البيت حاجاته الأساسية، لم أُشعِرها بديوني يوما، كما وقبلت بها لا تحب التعمق بالحديث، ولا تهوى جل ما أهوى، حتى أنها تسبح بأحلامها عندما أتكلم معها وأناقشها بمواضيع مختلفة، وتؤثر الصمت على الكلام في أغلب حديثنا ونقاشنا. رضيتُ بقلة انسجامها بحديثي العام، وأدركتُ أنها لا ترتاح لأسلوبي وتراه معقدا، مع عدم معارضتها له، وبدوري قررت القبول، لا حيلة لي إذ لم أنجح في اثارة اهتمامها بالذي يثير شغفي واهتمامي، فرأيت أن أتماشى معها كما هي، رأيت هذا من أنسب المواقف، فقد كان عندي من يغطي هذا الجانب غيرها، كانت أمي في البيت وصديقي خليل في الجامعة يهتمون لاهتماماتي الأدبية والعلمية، وحواراتي هذه، وكثيرًا ما قضيت وإيّاهم ساعات، نتبادل أطراف الحديث بشغف واهتمام، كذلك وجدت نفسي في مقارعات ونقاشات مع زملاء آخرين منهم زميل يهودي في الجامعة، يساري الأفكار حول ما يحصل في البلاد وما حصل ... لا بد من أجراس

السياسة أن تُقرع في كل لقاء لنا، وإن ليس في هذا اتفاق بيننا، أو رغبة لي باجترار الحديث في تلك الدوائر الضيقة، التي تنتهي بالعادة إلى وقوف رأيه وتصلبه على حق اليهود في هذه الأرض المقدسة الطاهرة، وحق عودتهم إليها، كما نصت كتب التاريخ من وجهة نظره، هذا بالإضافة إلى تجاهله لحق عودة سواهم، وحق العيش بكرامة لكل فرد وكل انسان.

لاحظتُ التغير الذي طرأ على أحلام عقب زواجنا، لاحظت كيف بدأت تفتعل أمورا وتدّعي مشاعر غير صادقة، وكيف أنها بدلت الود بالترفع، ورغم أني في البداية لم أكترث لهذا، لكني لا حقا وبعد تكراره رأيته نوعا من الكذب والخداع والتمثيل، فأزعجني ذلك منها، وتساءلت بنفسي لماذا يجرّب المرء كل شيء أحيانا، إلا الصواب، لماذا لا تفصح لي عما بداخلها، وما يؤرقها ويزلزل راحة بالها، ولماذا لا تشاركني الأمر، ألست شريك حياتها الآن، أم هو أفضل أن تدّعي التجاهل، وأنها بغنى عن شريك مثلي، ألا تعي ما معنى شريك ... بدأتُ أفتقد الحب الصادق ... ورأيت شمس الألفة تغيب خلف كثبان النفور ... ليس هذا ما أردت! توالت الأيام وازداد سخطها، حتى بدأ يظهر عليها الغضب

والتأفف سريعا من أقل الأمور. حاولت إقناعها بالكلام أن لا ضرورة لذلك، لكنها فضلت جو الكآبة، والانزواء بنفسها مع وجودي في البيت، وكررتْ انفعالاتها لأمور لا تستدعي مثل هذا الانفعال. ضاق بي الأمر بعدما حاولتُ مرارا أن نتحدث بما يضايقها، وبدل أن ننتهي في كل حديث إلى اتفاق أو شبه اتفاق، كنا نعقّد الأمور أكثر بانفعالات تبثُّ شرا، فلا تهدأ نفوسنا إلا مُتعبة من الغضب، أو كثرة الجدال والعناد ... الغضب ريح تهب فتطفئ سراج العقل ... غدت جدالاتنا وانفعالاتنا وسيلة لتفريغ غضبنا ليس إلا.

- أنتَ لا تهتم بي!
- هل ينقصكِ شيء؟ هل ينقص البيت شيء؟ ماذا تريدين أكثر؟ احمدي الله!
- أنا لست البيت، أنتَ حتى لا تعرف أنك تؤذيني، أنت تجالس أبعد صديق لك أضعاف ما تجلس معي.
- حبيبتي، كيف أجلس معك وأنت لا تبدين اهتماما، أنت دائما حزينة، ولا أعرف سببا لحزنك. من يحب أن يجالس صامتة!

- حبيبتك؟ أحقا أنا حبيبتك يا عمر، أنا حتى لم أكن يوما!

- ولا يوم الطين؟

- ما يوم الطين هذا؟

- لا شيء!

- أف منك!

ساءني الأمر من تلك الحوارات التي لا تنتهي، ولا لاح لها أفق يوحي بنهايتها، وجرّبت وحاولت ما استطعت، حتى انتهت محاولاتي إلى استدعاء والدها.

لم تكن أحلام تريد أن أُشْرِكَ أباها بمشكلتنا، وحاولت أن تثنيني عن قراري استدعاءه، فظننت بأنها تخشاه، أو أن باستطاعته أن يغير ما فيها، وهذا بالضبط ما شجعني على أن أستدعيه، وخاب ظني. لقد كان حديثنا قصيرا، لكنه كشف أمامي الكثير. دخل والدها إلى بيتي وعلى ملامحه الغضب، استغربت لذلك، فعندما تكلمت معه عبر الهاتف أخبرته بلطف بأني أود رؤيته ولم أذكر له السبب، فلِمَ هو مستاء؟ جلسنا بغرفة الاستقبال

في بيتنا، بينما أحلام بعد ترحيبها بأبيها، توجّهَتْ صوب المطبخ، ثم استدركتُ أنا الكلام معه، وقلت بعد الترحيب به مجددا:

- استدعيتك لأشكو لك أمرا أعياني، حاولت مرارا التكلم مع أحلام به لكنها تأبى الكلام، وفي كل مرة نتكلم لا نزيد الطين إلا بلة، لا أرى سببا لحزنها وانفعالاتها السريعة، فقلت أستعين بك، وأنت أبوها، وتدين هي لك بالطاعة والانصياع.

ورغم أني لم أوضح الأمر بعد، لكني وجدت من اللطافة أن أبدأ حديثي بهذا، وألا أوجّه لأحلام اتهاما مباشرا، وأتابع وفق تساؤلاته، لكنه لم يسأل! وإنما أجاب بلهجة حادة مختصرا عليّ الطريق:

- أنا أعرف ما الذي يحصل، ولا يحق لك التذمر، والمرأة تحتاج زوجها بجانبها أكثر من تواجده بمكان آخر، خصوصا إذا لم يكن لديها شيء تفعله بالوضع الصعب الذي تعيشه.

عقدت حاجبيّ مندهشا وقلت مستغربا أيما استغراب:

- من أين تعرف ما الذي يحصل، وأي مكان أتواجد فيه غير البيت، ثم عن أي وضع صعب تتحدث!!

كانت أسئلتي -الأكثر منها- تعجُّبا ودهشة، لكني أردت الجواب أيضا، إلا أنه لم يجبني على سؤال غير الأخير، أجابني بنشوة المنتصر، بعد أن ربت بيده اليمنى على ركبته، وتنهد قبل أن يرجع رأسه للخلف قليلا وهو يمسح بيسراه ذقنه ليستطرد في كلامه ويقول:

- اسمع، أنا أعرف عن ديونك، ولو عرفتها قبل زواجك بأحلام ما كنت لأرضى بهذا الزواج، لكن هذا اختيارها وعليها أن تتحمل عبأ ما اختارت، مثلما عليك أن تتحمل أنت أيضا ولا تتذمر.

زلزال! بركان! ما هذا الذي يتفوّه به هذا الرجل؟؟ ... قال كلماته بهدوء، ونظر إليّ بعينين حادتين كأنه ينتظر موافقتي على كلامه، أو أطأطئ رأسي خجلا، أو منهزما كان يريدني أمامه، وخيل لي أنه تعمد أن يصدمني بنظرات النسور تلك. أراد بعد قوله هذا أن يستمر بحديثه، لكني قاطعته مستنكرا رافضا، غير مفصح عن

غضبي واستيائي بهدوء، لاجما ثورتي وازدرائي، فقلت بنفس وتيرة صوته كما لو كنا بلعبة سياسية أو اثنين في بداية الاتجاه المعاكس سبق تطور الشعور عندهما لغة الجسد:

- ربما تكون تعرف أمورًا أُخرى غير ديوني من شأنها أن تفسر دخولك بغضب وكلامك بهذه الطريقة، ومع هذا فإني متم البيت حاجته، ولا أظن أن أحلام تشعر بديوني حتى، وهي تعلم بها لأني أخبرتها قبل زواجنا، ولولا أخبرتها بديوني ما كانت لتعلم بها أو تشعر بها بالمرة، ثم إن هذا ليس موضع حديثنا.
- اسمع، أنا لا أرضى أن تهين ابنتي بأي صورة، ولا أرضى أن تتحدث عن أمر يخصها أمام أحد، وعليك أن تمسك زمام بيتك بنفسك، دون إرشادات غيرك، أنت لست صغيرا وهذه مسؤوليتك، إذا كثر الطباخون خربت الطبخة!

لست صغيرا!! ... سحقًا لجرأته ... لولا مكانته وسنه لأنزلت عليه غضبا بحجم أنفه العظيم ... بدا كلامه غير مفهوم للوهلة الأولى،

وتساءلت ما علاقة هذا بالذي يحصل، ثم ما الذي يقصده، لكنه أراد ألا يفسح لي المجال لأسأله، فقد قال هذه الكلمات وهمَّ واقفا، واستطرد الحديث بقولٍ أراده لطيفا، كأنه تنبّه لحدة كلامه أو اكتفى منها، فقال بلباس الواعظين:

- الحياة ليست بالسهلة يا بني، وأنت جربت ذلك. تحملا بعضكما واسألا المولى أن يوفقكما لكل خير.

ثم اعتذر بأنَّ عليه أن يغادر، فلديه أعمال تنتظره، وأكد أنه سيعود بأجواء أجمل وقال: "أتمنى أن تكون هذه خاتمة المشاكل"، وأراد الخروج حتى أوقفته مُناديا أحلام فتمهّل حينها، وقد ظن بمناداتي لأحلام غير الذي أردت، اعتقد أنني أردت أن تلقي عليه التحية ربما. لكني وجّهت كلامي لها وسألتها:

- هل أخبرت أهلك بأنك والبيت ينقصكما أشياء أساسية؟ وهل حقا هناك ما ينقصك؟

نظرت أحلام إلى أبيها بنظرات توتر ثم أعادت النظر إليّ، وأجابت بارتباك بأن هناك ما ينقصها، وادعت أني ربما لم أنتبه لبعض الأمور، ولكن الحال على خير ما يرام، ولم توضح أكثر، وأخذت

موضعا أرادت به إرضاء الطرفين، فتوقفت عن الكلام عندما قاطعها أبوها قائلا:

- يمكنكما الكلام عن هذه الأمور وتسويتها حال خروجي.

لم يعنني كلامه، ولا كلامها، ونازعتني نفسي وضاق صدري من كثرة وشدّة ما وقع فيه من استياء وانفعال، أكبتهما بشقّ الأنفس، فتجاهلت ما قالا، وتغافلت عن وقوف أبيها يريد الخروج وإنهاء الحديث فالزيارة، وتابعت أوجه كلامي لأحلام أريد لاستيائي السكون:

- وإذا كان هناك ما ينقصك وأشك بذلك، فلماذا لا تتحدثي معي؟ ولماذا تخبرين أهلك بأمور شخصية؟ ثم لماذا أقحمت ديوني بالأمر؟ هل تشعرين بديوني؟ أجيبي، هل تشعرين بها؟ أم هي لتأكيد افترائك!! لا أدري حتى لماذا نتكلم بهذا، ولا نتكلم بالمشكلة الحقيقية في سبب حزنك وانفعالاتك الذي لا معنى له.

استدرت نحو أبيها وأنا أبدي قليلا من الغضب، وتابعت الكلام:

- كيف ترضى من ابنتك أن تفشي أمورا تتعلق بزوجها، ثم كيف تأتي إلى هنا وتكلمني كأني أنا المذنب، أنت حتى لم توجّه كلمة واحدة لابنتك ولم تستدعها!! وادعيتَ أنك بعجلة من أمرك، وأردت الخروج، إن كانت حقّا عليك أعمال تؤخر بقاءك وتناولك الأمر بجدّية، كنا أجلنا لقاءنا إلى يوم آخر، أم كان هذا أسلوبا مُرتّبًا مُسبقا تظن فيه خيرا، ما هكذا تؤكل الكتف يا رجل، ما هكذا تورد الإبل!!

نظر أبوها إليّ وقال بصوت منخفض وابتسامة على مضض:

- أتتهمني بالكذب؟ كان عليك أن تفكر قبل قولك هذا، أنت رجل متعلم الآن، وهذا الكلام لا يليق بك ولا بمقامك، ثم إذا أردتَ مساعدةً بقضاء ديونك يمكنك التّوجه إليّ بأسلوب لائق، عندها يُسعدني أن أقف بجانبك وأساعدك.

اللعنة! ... ديونك ديونك ... ساءني جدًا أسلوبه المقيت، وآلمني كيف له أن يبقيني بنفس النقطة، والتركيز على ديوني لجعلها

السبب بالقوة، أوجعني كيف كرر ذلك، وعرض عليّ مساعدته بعينيّ شخص مزدرٍ، لا بطيب نيّة ليساعد، كانت نظراته كنظرات الناس التي ازدرتنا سنين بغير وجه حق، ورغم أني لم أقابل هذه النظرات مؤخرا، إلا أني لا أنساها أبدا، ولا يغيب عن بالي شكلها ووقعها ... أردت الطمأنينة ... أردت الحب ... ما الذي رماني في هذا الجب ... أللزواج لعنة ... لكنه عمل مبارك ورباط وثيق، فيه رضا الله ... أضاق صدري هذا الشعور المقيت الذي حملته في صغري، لم تعد جدوى لاستمرار الحديث، ورغبتُ بإزالة هالة غضب اعتلتني، ومقت شديد، فكان خياري أن توجهتُ نحو باب الخروج معترضا على أقواله، ومستاء مما حصل، فأعطيتهما ظهري رافضا أقوالهما. ورغم استيائي الشديد من كلامه وابرازي له ذلك، إلا أن ما حصل في هذا اللقاء لم يغير أمرا، لا بل كان مجرد بداية لسلسلة أحداث تكشّف لي خلالها كثير من الأمور، أهمها الفجوة بيني وبين أحلام، فجوة معالجة الأمور، وصدق المعاملة. حاولت أن أتناسى كيف أنها ادعت عليّ، وأوهمتْ أهلها بأنها ضحية زوجها الذي حرمها رغد العيش وطيبه بسبب ديونه، وكيف أنها احتملت وقبلت كل هذا!

لكن تصرفاتها المتكررة، وأساليبها ذاتها التي لم تتغير أو تتبدل، حالت دون نسياني زيارة أبيها المشؤومة، رغم تقلب الأيام وتبدّل الليل والنهار مرارا.

لم تزعجني عرائضها ولا طلباتها، أزعجني الأسلوب، أزعجني الكذب في المعاملة ... لا سبيل لرأب صدع في الثقة تتوالى عليه الضربات ... حتى أن من الصدوع ما لا شافي له بتاتا ... فقدتُ الحل، ورفضتُ بشدة هجرتنا القرية إلى بيت آخر كما اقترحت أحلام وأصرّت ... لماذا أهجر المكان الذي أحب ... ليست البيئة المحيطة بنا سبب مشاكلنا ... ثم لماذا أتكلّف مصاريفا قد تعييني أكثر لأجل حياة لا أشتهيها، وقد لا أحبها أبدا... حياة المدينة، حياة تحبها هي!

مع فقدان الثقة، بدأت الألفة تتلاشى تدريجيا، وغاب الحب المنشود لتحلّ مكانه رغبة بالتنائي والانزواء، وتوالت الأيام بعدها يحثها فتور بالعلاقة وإهمال، ويتلبّد في سمائها التغافل والتجاهل، وبعض ندم بدأت أشعُر به يتسلل إليّ بين الفينة والأخرى، كما تلاشى تقريبا إهتمامنا ببعض، فتقلّص وانكمش

إلا بمحتّمات الزوجية التي لم يختلف شكلها عن شكل الضريبة التي ندفعها للحكومة على قدم وساق كوننا مواطنين، أو عن شكل مخالفة سير لا بد سدادها، حتى لا تضخّم الأيام سعرها وتكلفتها، فتصبح أثقل من وزنها أضعافا، وتزاحم الجبال والتلال بالحجم والوزن، حتى أنها عندما أخبرتني بأنها حامل لم يغير ذلك شيئا تقريبا ... سيأتي مولود تعيس الحظ لا ذنب له إلى هذه الحياة ... كيف سنرعاه؟ وبأي روح؟ ... أتذكّر كم كانت سيئة تلك الأيام التي لم أنجح فيها بتحسين العلاقة وتعزيز الثقة، أو إضفاء بيئة طبيعية بيننا، خانني بهذا كل شيء حولي وبداخلي، كُنت أُحاول على الدوام أن أعالج مشاكل تتكرر مرارا، وتعود إلى نقطة الأصل ما أن تبلغ ذروتها، كما لو كانت تدور في فلكها كدوران الشمس حول نفسها، ودوران الأرض حولها والقمر تباعا، شعرت بثقل الأفكار التي طاردتني حينها ... هل أخطأتُ في تعاملي؟ ... أم أن الخطأ في اهتمامي المُتزايد واصراري على رأب الصدع وبلوغ درجة من التفاهم طبيعية على أقل مقدار؟ ... أما كان من الأفضل التغافل والتجاهل دوما؟ أم فات الأوان على ذلك بعد خطأي في اختياري منذ البداية لأحلام؟ ... كيف لم

أكترث لهذه الهوّة بين اهتماماتنا وأساليب حياتنا فترة الخطوبة وقبلها!! ... أين كان عقلي ... أكان خوفي من تأخر زواجي بسبب ديوني هو الذي حال بيني وبين اختيار صحيح لشريكة حياتي!! ... لم أجد جوابا لأي سؤال، كذلك لم يبرحني أي سؤال، فلزمتني الحيرة، ونزلت خُلدي ضيفا ثقيلًا، لا يُستطاب ولا يستساغ.

أثقلني الإخفاق، وتبعتني الهموم، حاولت جاهدا الفصل بين بيتي والجامعة، كما حاولت إخفاء همّي وحزني عن أقربائي واصدقائي وزملائي، خاصة أثناء عملي في المدرسة، فكنت أُطيل الصمت والانزواء بثوب المنشغل بدراسته وعمله، فيسابق عقلي أفكاره التي ما انفكّت تنهمل عليه كلما جلست وحدي، أو كلما سبقتها خاطرة، حتى بدأت ألحظُ أمورا لم أكن ألحظها مُسبقا، بدأت أرى الجميع سعداء، وأنتبه لرقّة وبراءة الطلاب، وابتسامات من أراهم، ورأيتُ العالم حينها بلونين فقط، سواد ما أنا فيه وبياض كل آخر ألحظه. كما انعكس انشغال تفكيري على تعليمي في الجامعة، وعلى تواجدي بين معارفي، حتى أن خليل لاحظ ذلك وسألني إن كان هناك ما يشغل تفكيري، أجبته بالنفي، وأن كل شيء على ما يرام، هي فقط انشغالات ما بعد الزواج، ولم أشأ

الكلام، رغم أن لدي الكثير لأقوله، وانقلبت حنجرتي صحراء لا زرع فيها ولا جنس الكلام.

أكثر الأمور التي لازمت مخيلتي ولا زالت إلى اليوم، ولا أظنني أنساها يوما، هي وجوه الطلاب البريئة في المدرسة، وكيف من هذه البراءة سيصطدمون بواقع مرير يوما عندما يكبرون ... هي ضريبة الحياة ... أو لعل حظوظهم ستأتي على وجه أفضل من حظي التعيس ... قد يجد كل منهم شريك حياته المناسب ... قد يصادفهم حبهم ويتعاونون معه على تشييد قصور النجاح والفلاح، وحصاد حقول السلام مع أطفالهم وأحفادهم، وأحفاد أحفادهم، من يدري! ... كان من الأفضل لو بقيت بهذا العمر... عمر الوردة، وإدراك الفراشة!

بين هذه الوجوه البريئة لمعت ابتسامة كانت هي الأجمل، لفتاة حديثة السن وصبيحة الوجه، كأن وجهها فلقة قمر، عادت ابتسامتها إليّ وتذكّرتها، عندما رأيتها بين الطلاب في أول محاضرة تجمعني واياها في أحب أرض على قلبي، وأقرب مكان لروحي، وأكثر بقعة يصبو إليها الفؤاد، ويتمنّاها ليل نهار وعلى الدوام، في

الجامعة ... هناك وجوه يكفي أن تراها مرة واحدة لتنقش في ذاكرتك صورة يعجز طوفان عن محوها، فتتذكّرها للأبد ... كانت أكثر جمالا ونضوجا واشراقا، شدّني قبل بداية المحاضرة أن أعرف اسمها، فنظرتُ في لائحة أسماء الطلاب التي بحوزتي، وقد تعرّفتُ عليه من خلال الربط بين اسم عائلتها والمدرسة، كانت عائلتها من كبرى العائلات في الناصرة، وقد برزت بلائحة أسماء الطلاب دون سواها، فقد سطع اسمها، وأبلج وأرج وأشرق على الورقة أمامي، كما تلألأ وجهها وتهلل حُسنا وملاحة وبهاء وروعة على بعد أمتار مني، بين الوجوه في القاعة الفسيحة الرحبة، كان اسمها دافئا يشع مثلها ويبعث السعادة لقلبي والغبطة والسرور... نور!

فاطمة

من الرائع حقا أن تعلم لماذا تمر بهذا الطريق، وتبصر إلى أين أنت ذاهب، وأين وجهتك وقبلتك التي توليها، فكثيرا ما تأتي قراراتنا واختياراتنا وفق مشاعرنا، لكنها تأتي غالبا بعد أن أعيانا التفكير بها وبنقيضاتها، أو ربما من عطش أضنى قلوبنا، أما أن تتخذ قرارك وفقا لقلبك، دون أن تعطي تلك الأهمية لمشاورة عقلك - اللهم إلا في قراره اتباع القلب - أو تتخيل سيناريوهات ممكنة قبل اتخاذ القرار، فهذا أمر فاجأني مخلفا إياي بنظرة تشبه تحديق ذلك الغُلام في لوحة "الخروج من الإطار" التي أدام أبي التّبحُّرَ في ثغراتها، كما أدهشني ورسم معالم العجب على قسمات وجهي تمرّده الذي يُحاكي صورة الرجل الذي انصاع لداخله، مُهملا نُهاه - إلا بما أسلفت - رغم حيازه مراتب عالية وشهادات في العلم والعلوم، وأي علوم ... أدقّها ... الرياضيات!

أبي لا زال يؤمن حتى اليوم باختيار قلبه، ويفضله على عقله إذا تعارضا في غير ضرر، لذلك اهتم كثيرا بما يحب، اهتم بعقله فأثراه، وغذاه بالقراءة والمطالعة، كما اختار التخصص بالرياضيات، ووجد طريقه إلى الكتابة، وصادق الأقلام والأوراق،

وكان يمضي الكثير من الساعات أمام لوحات لفنانين مغمورين أو معروفين، يتأمل خطوط ريشهم، وانعكاس ألوان لوحاتهم، واهتم بالموسيقى القديمة الوقورة. أذكر أنه أخبرني عن اهتمامه بالموسيقى، وقال أن مصدره كان صديقه خليل، الذي طالما أطربه بعزف عوده ساعات، يراقص فيها ريشته على أنغام "ليلة حب" وموسيقى أغنية "القلب يعشق كل جميل"، كان يهوى سماعها منه أكثر من كوكب الشرق ذاتها، فلا يكلّ سماعها ولا يملّ، وإن أوشك على أن يصل الليل بالنهار على أنغام عود صديقه، وصوت حنجرته، لولا أن الأخير كان يستريح من العزف كلما عرّج على مقطوعات لموسيقار الأجيال، ليذكر من سيرته وإبداعاته، وقصصه مع أم كلثوم، غير متجاهل ولا غافل عن القصبجي والسنباطي، وغيرهم حتى ينتهي إلى حبيبه بليغ، وإذا ذكر بليغ فلا بدّ من ذكر وردة ... وما أدراك ما وردة ... يدفع اسمها أنامله إلى مداعبة عوده ثانية، لتنطلق حنجرته موافقة اللحن الذي ملأ الأفق جماله، وزيّن الليل صفاؤه، وملأ الفؤاد حسنه، وأطربت الروح روعته فتصدح كما كانت وردة تصدح في عنفوان شبابها "روح روح عدّ أوراق الشجر..."

غير أن جلساتهما لم تقتصر على ذلك، فقد كان خليل محاضرًا هو الآخر في قسم الرياضيات في جامعة حيفا، وجمعته بأبي تلك العلوم ومكان عملهم، بالإضافة لاهتماماتهما المشتركة بالفن والموسيقى.

لكنه مع هذا كله، كان يحرص على نقاء قلبه، ويؤكد لي على الدوام بأنه لم يكن ليتبع قلبه لولا حرصه على نقائه وصفائه، إذ من الخطر جدا على المرء اتباع قلب ملأته الظلمات، أو أثقله الهم والخوف، أو الإثم. ولكن، إذا كان كذلك، فلماذا افترق عن نور، ألم يتبعا كلاهما قلبيهما، فما الذي حصل. ثم ألم يتبع قلبه باختياره أمي ووجد نفسه بعد ذلك كئيبا. صدقا لا أقتنع بأسباب كآبته إلا عندما أستمع إليه، أعتقد أن باستطاعته تسوية الأمر لو أراد ذلك، ليس هناك سبب عظيم لبُعده هذا، والانزواء بنفسه، وهو الذي ذلل الصعوبات وأخضعها، ووقف شامخا أمام المحن. بالمقابل، أرى أن أمي لو تنازلت عن أمور ليست ضرورية، هي سبب تفاقم سوء العلاقة بينهما، لكان ساعده ذلك على لملمة شتاته، باستطاعتها هي الأخرى رأب

الصدع ... لا أدري، إن من يسكن الجحيم ليس كالناظر إليه، أو السامع عنه!

لكنه خيرا فعل، كيف سيكون حالي لو انفصلا، هل حقا اختار المضي على مضض ليبقيني بجانبه. أخذتني مخيلتي إلى رائف، ذلك الفتى الذي ألفناه في المدرسة بلباس وهندام لوّنه الدهر بألوان قاتمة، لطول مدّته على جسده النحيل، كان مدعاة للشفقة أو الازدراء، لم يشأ أحد الإقتراب منه ومصادقته، لا تلاميذ ولا أساتذة، رغم نجاحه وتألّقه بتحصيله العلمي، ورغم كونه فتى لطيفا مسالما لا يؤذي أحدا. لكن قصة انفصال والديه وضياعه بينهما بدّدت قدرته وتفوقه ولطافته، وحثّت الجميع على تجنبه والإشفاق عليه من بعيد، ربما سيغدو يوما إنسانا لامعا وناجحا في حياته، لكن هذا ليس بشفيع تتفق عليه أفئدة الناس وتهواه ألسنتهم. قبل أن أصرف أفكاري هذه عني، لبستُ ثوب رائف وتوجّهت لأبي بجسد هزيل، ووجه كئيب حاملة بُعد زملائي عني، وقلة أصدقائي -كما لو كنت رائف نفسه وذاته- وطلبت منه العدول عن قراره، والتريّث قبل إحالة قرار الانفصال عن أمي إلى حيز التنفيذ، وربما هذا ما أبصره هو حينها وأدركه، فلبّى ما طلبت منه في افتراضي، قبل أن أطلبه بسنين في واقعي!

الجُزء الثّالث

صَفِيَّ الروح

صَفِيَّ الرُّوحِ يا جَمَّ الودادِ

ضِماد الجرحِ يا لين الشِّدادِ

نور

أحببت عُمر، أحببته بصدق من خالص فؤادي، وَبَحْتِ أحاسيسي وصرف مشاعري، وقد نال كل تفكيري، واستوطن في كل خلية حملها جسدي. تعلمت منه الكثير، فقد ذاكرت في لقاءاته فن التعامل مع الأخرين، ورأيت نظام الحياة كأني أنظر بعينيه، فتعلمتُ إمعان النظر بالأمور من أزقة مهجورة، ومنظار أدقّ وأشمل، عشقته وفكره ونظرته الواسعة العميقة، وكل شيء هو فيه، حتى أنني أحببت نفسي وأنا معه، وأحببتُ حبي له وتعلّقي الشديد به، فعندما كان يتغزل بأسلوب كلامي وبشخصيتي، كنت أُصارحه بأني هكذا معه، وأني مختلفة مع الآخرين عما أنا بين يديه وراحتيه وفي حضرته ... أمرح بارتياح ... أتكلم بكل ثقة ... لا تغيب ابتسامتي ... يا لنور في حضرتك أيها البَهي ... أنت توأمي يا حبيبي ... صفيّ روحي ونبض الفؤاد ... هواك القلب فأنشد طربا من كل لون وفي كل قطر ... غرّدك الحبُّ ورحّبتُ به طربة منتشية أمامه ... مرحبا أيها الغرّيد ... كبر حبي له بين يديه، كما كبر قلقي وخوفي من القادم، لم أستطع نبذ حيرتي، وطرقها باب حديثي الدائم لنفسي "هل أنا على

صواب؟ ألا يشكل وجودي معه خطرا على قربه من ابنته التي يحبّ؟" كانت حيرتي هذه متعبة، وأرهقني التفكير بالأمر بين صرح وكتمان، وباتت حيرة حمل القرار إلى موضعه عذابا أبديا، تستقر صخرته أسفل الجبل بعد مشقة حملها لأعلاه، وما لفؤادي خلاص ... ولا لقلبي براءة ... وما أقسط النُّهى ... ولا وجدتُ العدل بينهما ... وأي ذنب اقترفت!

حرية اتخاذ القرار لم تلبث إلا أن قيدت خلايا أحشائي، فلم يعد عقلي يملكني، وروحي تحاكي كفني، وما أنا بين هذا وذاك ... وأين من يوقظني ولم أدرك غاياته، وما لقلبي وعقلي بلطفه وحبه وتفهمه الرحب ... صدقا لم أصادف قبله ولا بعده أوسع منه صدرا، وأكثر منه تفهما ... أين البشير والكل حولي نذير!

كثيرا ما وجدت نفسي تائهة بين إدراك عقلي لعلاقته بزوجته، ونبض قلبي بين يديه، ووجداني في عينيه، والعدلُ قرين العقل، والقلب لا منطق يفديه، ولا عقلانية تسري فيه. كان يردد كل شيء وهو معي، فيهمسُ، ويتلعثمُ، ويتحدّث ويخاطب ويتساءل بماذا أُذكّره؟ كان دائما يهوى المراوغة، وهروبه الدائم من

تساؤلاتي عن زوجته قد جعلها ناقوس إزعاج على الدوام، ففي كل صغيرة وكبيرة كنت أذكرها في كلامنا، كثيرا ما كان يتغافل أو يقلب الحديث عني بدلا منها، ولما كنت أبدي له تخوفي من أن أكون سببا في شقائه، وبعده عن ابنته، كان يدّعي أن السعادة زارته يوم عرفني، وأن الشقاء كان بأيام خلتني ... كان ساحرا!

لم تكن الحيرة هي وحدها التي تزعجني، والحيرة أشد العذاب، بل كان ربيع أيضا يزعجني باتصالاته بعد أن قررت الانفصال عنه وأخبرته بذلك، لم أكن أريده قبل علاقتي بعمر، فقد كان صبيانيا ولم أسترح معه، أما بعد معرفتي عمر فلم أعد أريده وماضينا وتلك العلاقة، وتمنيت لو تمحى من دفاتري، وحتى لم أعد أشعر بحاجة لصديق أو صديقة، كثيرا ما كان ربيع يحاول الانزلاق معي لأمور تخدش الحياء، ومع أني كنت أصدّه بحزم واشمئزاز، إلا أنه كان يعاود ذلك، بدا لي غرائزيا وأيقنتُ خلوّ تفكيره، وسطحيته بعد معرفتي لعمر.

ربيع يكبرني بسنتين، تعرفت عليه أيام المدرسة، وكانت علاقتنا تقتصر على لقاءات خجولة في ساحة المدرسة، في الاستراحات

وأحيانا عند انتهاء الدوام، وعندما أنهى تعليمه المدرسي دأب على الحضور في كل يوم تقريبا عند انتهاء الدوام ليراني في طريق عودتي، فيمشي معي ونتبادل أطراف حديث المراهقين في ظل ضحكات بلهاء، أحيانا كنا نعرّج على محلات الملابس وكيوسكات الشوارما في وسط المدينة، لنكسب وقتا معا، ولم يحدث هذا إلا عند وجودنا في مجموعات، لم يكن لائقا في تلك الفترة تجوال شاب صغير وطالبة مدرسة وحدهما، وكنت أخشى أن يصل خبرنا إلى أبي، لذلك امتنعت عنه كثيرا أمام المارّة، وخارج أسوار المدرسة، فبدأت علاقتنا تفتر بعد إنهائه المدرسة، وغيابه نوعا ما عن عيني، ولم تكن وسائل اتصال مباحة في تلك الفترة، لا إنترنت شائع، ولا حتى هواتف خليوية، مما ساهم في سرعة تبخر علاقتنا تحت شمس المجانبة والانشغال.

التحق ربيع بعد إنهائه المدرسة بخاله ليعمل معه في الصيانة، على أمل أن يتوفّر له المال لاحقا ويلتحق بالجامعة ليحقق حلمه بأن يصبح طبيبا، قال لي ذلك عندما أخبرته عن نيّتي الالتحاق بالجامعة لدراسة الرياضيات، ولم ينتبه إلى أن مهنة الطب تحتاج إلى ست أو سبع سنوات بين تعليم وتخصّص، ومن شأن

هذه المدة أن تحثّني على مراجعة حساباتي معه ... متى سيبدأ ومتى سينتهي، ومتى سيستقرّ ويتزوجني!؟ ... لا أظنه يدرك معنى ذلك ... أظنه حالما ... صدقا لم تكن تلك المرة الأولى التي أخبرني فيها بطموحه هذا ... لقد قالها مرات ونحن في المدرسة، لكنها كانت الأولى التي تنبّهت فيها لأمر الزواج ... هذا سبب آخر لأبتعد عنه ... ورغم تفكيري هذا، وشبه اقتناعي باستحالة استمرار علاقتنا الصبيانية، أخبرته باقتنائي جوالا جديدا، فتبادلنا أرقام هواتفنا، وتركت مسألة علاقتي به للأيام التي ساقتني لعمر فأحببته وكتبت قلبي باسمه ووقّعت على صك غرامه بكامل إحساسي، تشهد عليّ أنفاسي، وأحببت نفسي معه. أحببت كيف كنت أكلمه، كان لساني حرا ينطق بكلمات ترفض نفسي حتى البوح بها، لكني لا أعلم صدقا كيف كان ذلك، وكيف نقل إليّ ذلك الشّعور بأنّه يُحبّ تواجده معي، ربما هذا هو عُمر! كان تحكّمه بزمام الأمور وتقسيمه للوقت بين إثراء العقل بالدراسة، وبين تغذية القلب بمجالسته، تجعلني أشعر بهالة من السحر... أم هو الهيام والغرام، والعشق والحب، أو الهوى كُلّه.

قدّرت هذا العطاء فيه، كما وأغبطني فعله، وأتاح لي التجوال بحرية في عالم ليس غير السعادة فيه، فهو يعطيني من وقته الكثير، بالرغم من أنه متزوج، ولديه مسؤوليات تجاه بيته وإسرته. إلا أنني لبثت أقلق عليه من هذه الناحية، وأتخيل قصصا غريبة مقلقة ... ماذا لو أن زوجته شعرت أو علمت بعلاقتنا ... أقلقني سؤالي هذا في البداية، وأقلقني أكثر منه لو أنها علمت من أكون، وشكتني لأهلي، وكيف ستكون ردة فعل أهلي لو علموا بعلاقتي هذه ... ماذا سيكون موقف أبي مني ... لا أستطيع حتى تخيل ذلك ... كما دق ناقوس خوفي أن أكون سببا في خراب بيت، وتشريد طفلة ستلعنني فيها كل نظرة إن هي علمت، لكن حبي له دفعني لأتناسى كل قلق وكل خوف، وعزز هو من ثقتي يوم أخبرني أنني سبب سعادته، وقارب خلاصه من بحر التعاسة والكآبة ... أحقا كذلك!

أخبرت عمر بأمر ربيع، وأخبرته من يكون، وكيف أنه يزعجني باتصالاته ورسائله، لم يكن بالأمر العسير أن أخبره بهذا، رغم قلق انتابني في بداية كلامي، وتردد في إخباره تجلى هنيهة ثم انثنى أمام رغبتي بأن أخبره وأحدثه عن علاقتي تلك. ردة فعل عمر

عندما أخبرته أتت هادئة ووديعة، كموجة صغيرة ألقاها البحر مُرَحِّبًا بزائريه في يوم صفا الجو فيه للرحلات. بدا عليه بأن علاقتي هذه شيء متوقع وطبيعي، ونصحني أن أكون حازمة مع ربيع، وإن استدعى الأمر أن أهدده بإخبار والدي فلا أتردد. قال هذا وأضاف بأن عليّ فعل هذا للمحافظة على نفسي ومشاعري، وألا أشعر بسوءٍ حيال حزمي هذا، وتصميمي على فض الرباط الهش المتهالك، فإن توجّب علينا قطع علاقتنا بأحد، فمن الأفضل أن يكون القطع حازما وليس مرحليا، فقد نفقد الكثير من أخلاقنا لو فكرنا بتعاطف أو قلق، أو أن يكون قطع العلاقة بالتدريج، كان هذا ما أضافه معللا رأيه، لكني لم أستطع فعل هذا مع ربيع في البداية، فقد شعرت بشيء من التعاطف معه، فبالرغم من يقيني وتأكدي بأني لا أحبه، إلا أنني لا زلت أشفق عليه، فقد كانت بيننا ساعات جميلة، وشد ما كنت أتخيل نفسي مكانه، وأن من يريد هجري وقطع علاقته بي هو عمر، وكان الأمر يسوؤني. فما كان مني إلا أن أخفي الأمر عن عمر، وأحاول بطريقتي الخاصة أن أقطع علاقتي بربيع. لم يقلقني ذلك لمعرفتي بعمر، ولمعرفتي بأنه واسع لا بد سيلتمس لي الأعذار إن

شعر باخفائي أمرا ما عنه ... واسع القُطر أنت يا عمر ... واسع القطر يا حبيبي!

حاولت أن أبعد ربيع تدريجيا، فأقلعت عن الاتصال به، وحرصت أن أبقي هاتفي صامتا وأنا مع عمر، حتى لا يستاء من اتصالاته، ولا أثير تساؤلاته. علّقتُ أملي على قطع علاقتي به - بشكل لطيف دون فضاضة - على حديثه بمكالمته الأخيرة، عندما أخبرني بأنه يودّ رؤيتي والجلوس معي جلسة أخيرة، ننهي بها علاقتنا بتفاهم ولطف، هذا بعد أن أدرك استحالة استمرارها، ورغبتي في العدول عنها. أحببتُ هذا وأخبرته أن نلتقي بنهاية الأسبوع.

كان يوم الخميس، وهو اليوم الذي اعتدتُ أن أجلس فيه بعد محاضرتي الأخيرة من ظهيرة ذات اليوم مع عمر حتى ساعات العصر، وبعدها أستقلُّ الحافلة عائدة إلى بيت أهلي من سكن الطلبة، ورغم أن يوم الخميس هو المفضّل لأغلب الطلاب، إلا أني لم أكن أحبه كثيرا، لا لشيء، فقط لابتعادي آخر الأسبوع عن حبيبي وينبوع راحتي وغدير دَعتي وسكوني. كنا نجلس تحت

شجرة بالجامعة ننظر من بعيد للشارع المُحاذي لمكاننا، حيث تمرّ السيارات والحافلات الداخلة والخارجة من الحرم الجامعي، وأتخيّل بلطف يوم الأحد، عندما أعود إلى الجامعة وأنزل من الحافلة لأرى عمر بانتظاري، يستقبلني بابتسامته الدّافئة ويردد على مسامعي:

"جاءت معذبتي في غيهب الغسق
كأنّها الكوكب الدّري في الأفق"

ثُمّ أعطي يدَه التي يمدّها نحوي أصابعي، لأشعرَ بلمسته الرقيقة تتسلّل عبر شراييني إلى وجداني، فأغيب في عينيه، كان هذا المشهد يزيد من نبضات قلبي، ويأخذني لعوالم ملؤها الحُبّ والأمل ... أشتاقك وأنا معك يا صفيّ الروح ... استيقظت من حلمي الجميل على وقع صوته يقول برقّة:

- اقترب وقت حافلتك يا نور.

تذكّرت عندها بأني لا أنوي العودة إلى البيت، فقد وعدت ربيع أن نلتقي في نهاية الأسبوع، فنظرت إلى عمر دون أن أنبس بكلمة

أو أعلّق على جملته الأخيرة، يقطب الصمت شفتيّ، بالوقت الذي دارت فيه بعض الأفكار برأسي بعبثيّة حول موضوع ربيع وآخر الأسبوع، واللقاء المرتقب، وماذا سيقول عمر في هذا، وعلى خلاف وجهي الصامت الذي يرنو إليه عمر، صخب ذهني بتساؤلاته وأفكاره التي أخذت تتسللّ صورتها حيرة وقلقا إلى عينيّ ليقابلها عمر برفع حاجبيه قليلا، بين داهش ومتسائل عمّا يدور في ذهني فيقول:

- نور، بماذا تفكرين؟
- أنا لا أقصد العودة هذا الأسبوع إلى البيت.
- لماذا؟
- ترتبت عليّ بعض الأمور ويجب أن أتمّ إنجازها.
- هل تحتاجين لمساعدتي؟
- يا للطفك يا عمر، هي أمور بسيطة سأتدبّرها بنفسي.

قلت له هذا وأنا باسمة، ثم شكرته واقتربت منه بجسدي بينا أنظر إليه، لم يبدُ غريبا بأن هز رأسه موافقا دون أن يسأل ما هي تلك الأمور، فقد اعتدت عليه، اعتدتُ على أسلوبه وتفهّمه

وسعته. لكنه سأل سؤالا مختلفا، ليس بالسؤال الذي توقعت ... توقعت لطفه وتفهمه واحتوائه بلا شك ... غير أني توقّعت إيضا أن يسأل عن تلك الأمور التي ترتّب عليّ إنجازها ... لكنه كان أروع فسألني بلطف وحنان إن كُنت أودّ أن يبقى معي إلى الغروب. تأمّلتُ وجهه الوديع ثانية وأومأتُ له بالإيجاب، ثم أملتُ رأسي على كتفه يلتصق جانبي بجانبه، ليرفع هو خصلات شعري الأمامية كلما انزلقت أو سقطت على جبيني بأطراف أصابعه، ويجذبني بعدها إلى صدره، فأبحث عن قلبه لأسمع نبضاته، وبدا هو مُدركا ذلك بهدوئه وقلة كلامه، ولبثنا هكذا إلى أن غابت الشمس ونحن نرقبها.

تمنيتُ ألا ينتهي ذلك اليوم، رغم إدراكي بأن حبيبي عمّا قليل سيقول جملته التي أكرهها، تحركت أصابعه ترتب شعري خلف أذني مرة أخرى، ولحظة أنهى عمله هذه المرة بترتيب شعري، كأُمٍّ أعدّت ولدها واجتهدت في تطهير خارجه قبل مُغادرته، قال:

- عليّ العودة إلى البيت، لقد تأخر الوقت.

هززت رأسي موافقة على تأخر الوقت ولزوم عودته، رغم كراهيّتي وانزعاجي لذلك، فَهمَّ هو واقفا بحركة واحدة، غير آبه بما أحدثه بعضلاته طول الجلوس، وأراد المسير نحو موقف السيارات، فرافقته إلى مكان سيارته أفتعل حديثا معه، سألته إن كان يخشى أن يراه طلابه يحضن فتاة بالجامعة، ويبادلها الحبّ وهو من هو. أبدى عدم اكتراث وقال باطمئنان:

- الأروقةُ خالية في مثل هذا الوقت، وما أخشاه فعلا هو افتعال الأقاويل عليك.

أجبتُهُ بهدوء:

- أنا مجهولة، وإن كان من كلام فسيكون عليك لا عليّ، ثم إني وإن كنت أكترث لما يقال عني، فبجانبك لا أكترث لشيء ولا يهمني أمر، ولا يعنيني إلا جوارك وقربك.

أردت بجوابي هذا إقناع نفسي بما أفعل، ليس إلا ... ثم لا أحد سينتبه ... حولنا الكثير من العشاق ... الحب في الجامعة مساق ضروري لتحصيل الشهادة واجتياز اللقب ... حتى أن الفتيات اليهوديات وعشاقهن يجهرون بعلاقاتهم، ويتبادلون القُبل على

مرآى من الجميع دون أي خجل ووجل ... من سينتبه لنا غير الذي يعرفنا ... ومن يعرفنا ... أو بالأحرى يعرفني؟

أمسكت يده كما اعتدت قبل أن يستقلّ مكانه من السيارة أجذبه إليّ جذبا خفيفا كأني أريده أن يبقى، وهو انتظر بهدوء، ينظر إليّ مُبتسما حتى أرخيت جذبه، ليستقر مكانه على مقعده في سيارته ... لحظات ويغادر ... أتوق ليوم أجلس فيه بجانبك زوجة، وأشاركك سفرك إلى كل مكان ... ثم وقفت أنظر إليه وهو يغادر بسيارته الجامعة بعد أن ودّعته ... وبعد أن غاب عن ناظري قفلت راجعة إلى سكن الطلبة. بطريقي أخرجت هاتفي من حقيبتي أنظر الرسائل والمكالمات الواردة التي أمطرت عليه على حين غفلتي عنه. رأيت اتصالات من ربيع فتجاهلتها، ونظرت إلى رسائل أخرى من هاتف أختي واتصالات من هاتف بيتنا ... هي بالتأكيد أمي ... عاودت الإتصال بها فور وصولي للسكن وتحدثت معها قليلا. عندما فرغت من هاتفي وجدت نفسي أجلس على سريري في غرفتي، فوضعته جانبا واستلقيت فوق السرير على ظهري، أنظر إلى سقف الغرفة وأسبح بأحلامي

وتخيلاتي مع عمر، وأسترجع كل لحظة كانت بيننا اليوم، وأضيف عليها من خيالي وأمنياتي، حتى سمعت رنين جوالي.

- مرحبا نور، كيف حالك؟
- أهلا ربيع!
- أتذكرين موعدنا؟
- أذكر، يمكنك المجيء غدا إلى الجامعة بعد الظهر.
- حسنا، هل كل شيء على ما يرام؟
- نعم، أشكرك، عليّ الاستراحة قليلا، أشعُر بالتعب، نلتقي غدا، إلى اللقاء!
- إلى اللقاء.

كانت محادثة قصيرة لم أرغب بإطالتها، ولم أرغب بها من أساسها، لذلك أردت تجنب ترسباتها في صدري، فقمت بعدها أُلهِي نفسي بأمور أخرى حتى تفطنت إلى الذي كنت فيه قبل مكالمته، فأخذت أتحسس طريق العودة لشعوري الدافئ الذي فتر بعد المكالمة ونسيت مكاني منه.

قابلت ربيع بالجامعة وقد أتى مُبكّرا، وبعد أن عرض عليّ الذهاب بسيارته إلى مطعم أو كفتيريا خارج الجامعة، واعتذرت له بلطف متحجّجة بضيق الوقت ،وتكدّس الدراسة والواجبات، اخترت بدلا من هذا وعرضت عليه أن نتمشّى قليلا على طول الشارع الذي يربط الحرم الجامعي بمساكن الطلبة من الجهة الجنوبية.

كانت الجامعة شبه خالية، وبدت كأنها عجوز قد هجرها أبناؤها، تماما مثل علاقتي بربيع التي أنا بصدد إنهائها بشكل ودي وحضاري كما خُيّل إليّ. على نحو مختلف بدا هو وكأنه يصادف حبيبته لأول مرة، أو كأنه يعيش قصة حب وليدة اللحظة، قد تمناها وانتظرها سنينا. كان مفعما بالحيوية والنشاط، وبدا أكيدا من أن لقاءنا سينتهي بعودة علاقتنا إلى سابق عهدها، بل ستحظى وتعزز بجمال جم ورباط أوثق. تحوّل شعوره هذا بعد أن طلبت منه بلطف ألا يكرر اتصالاته وذكرته بالذي نحن بصدده إلى خيبة أمل أشعلت فتيل غضبه الذي بدا وكأنه يكتمه بشق الأنفس، ولم يمنع كتمانه لغضبه انفلات بعض من انفعالاته، ليتنبّه بعدها فيعود ويخفض من نبرة صوته كلما

اشتدّت وعلت. أردت أن أنهي علاقتي به بشكل حضاري وودود، لكنه بانفعالاته تلك لم يفسح لي المجال ... كان يتكلم كما لو كان له حق عليّ، أو فضل لازم ... لماذا لا يحترم رغبتي بانهاء علاقتنا ويصافحني ويغادر ... ضبطتُ أعصابي عندما أخذ يسألني لماذا تودّين الابتعاد عني، وكنت أتجاهل أسئلته بصمت، حتى فاجأني بقوله:

- أهو لأجل ذلك المحاضر الذي أخبرتني عنه!!

قاطعته بنظرة اندهاش قاطبة الحاجبين ومتجهمة الوجه، وطلبت منه ألا يتدخل بحياتي الشخصية، صمتَ قليلا بعد أن نمّت عنه حركة بيده توحي بحيرته ولم يضف كلاما، فأضفتُ أنا بحسن نية:

- بامكانك يا ربيع أن تبحث عن حبك مع فتاة أخرى ...

وهنا كان جوابه بمثابة الرصاصة التي قتلت كل شيء بيننا، والتي أتت بغتة بعد أن قاطعني، لتبقيني بصدمتي إذ قال:

- أتظنين أنك الوحيدة في هذا العالم، لقد سئمت تكبرك وتعاليك دون سبب، اذهبي إلى صاحبك هذا ليستغلك مثلما أفعل أنا مع كثير من البنات.

كانت صدمة قوية جملته تلك، زادها عندما أخرج محفظته من جيبه وهو يتكلم ليُظهر أمامي صورة له مع فتاة شبه عارية. توقفت عندها وقلت له بإصرار إن كل شيء بيننا قد انتهى. وعدت أدراج الطريق بغضب يؤجج صدري، ويلهب فؤادي حرقة.

مقيت هو ذلك الغضب الذي لا يبرحك، والذي يقودك لتتخيل نفسك مرارا ترد الصاع أصوعا للذي أغضبك، فيغضبك أكثر أن ذلك لا يتعدى إطار الخيال، ولا يتجاوز حدود السراب، مما يحثُّ تفكيرك ومقرّه على أن يأخذاك إلى صور من الماضي في قتال جرى، أو تفترضه بمواقف مشابهة. هناك حاولت أن أتذكّر لحظات جميلة، تمنّيت عليها أن تنتشلني من براثين غضبي هذا فلا أتذكّره، وأنساه فورا، وفجأة، في شريط الماضي، برزت صورةُ مدرّس الدِّين أيام كنت في الإبتدائية، برز بعمامته ناصعة

البياض، ولحيته السوداء المرسلة على ثوبه، يردّد بصوته الجهور ونردد خلفه:

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (28) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (29)

صلّيتُ الظهر وبسطتُ يدي وناجيت الله أن يرأف بقلبي، ثم أكّدتُ لنفسي بأن المسألة مسألة وقت ليست إلا، فأخذت بدورها تحدّثني بأنك لو أخبرت عمر بما جرى لقال لك أبليت حسنا ... وماذا لو أزعجه لقائي بربيع من أصله ... لن تزعجه صراحتي ... لم اتصل بعمر في نهاية الأسبوع وأكلمه مثلما جرت العادة، بل آثرت أن أنتظر لأراه مطلع الأسبوع، وفضلت أن أشغل نفسي بدراستي وتعليمي، وأتناسى مشاعري إلى أن ألقاه غدا.

في اليوم التالي، وعندما التقينا، كان هادئا على غير عادته، لم يرحب بي كالمعتاد، بل عرض عليّ أن نذهب لمكتبه. وعندما وصلنا أخذ مكانه على كرسيه وعرض عليّ الجلوس، ثم انشغل

قليلا بحقيبته وبعض الأوراق، بينما انتظرته أن يبدأ كلاما ما، لأستشعر بامكانيّة إخباره بما حدث بيني وبين ربيع في صباح يوم الجمعة الأخير. في خضم هذا الشعور وبين جوانبه، وحين انشغال عمر، حدّثتُهُ من وراء نفسي، وأظهرت له شوقي وكم أحبه، وكم أنا مطمئنة بجانبه. لم أتوقع رجلا بهذه الروعة وهذا السحر تعامله، كأنه حلم سأستيقظ منه يوما ... هل حقا؟ ... تساءلت إن كنت سأخسره، أم تراني سأكون زوجة له. دارت هذه الأفكار برأسي وعيناي معلقتان عليه، مما دفعه ليسألني بهدوء مبتسمًا إن كان هناك خطب، فتحركت عيناي عنه لحظة ثم أعدتهما إليه وقلت:

- أود أن أخبارك بأمر ما.
- يبدو بأنه أمر يزعجك.
- نعم، هو كذلك، وأشعر بأنك الوحيد يا عمر الذي أستطيع أن أكلمه ويزيل عنّي هذا الغمام.
- شعرت بأن هناك أمرا ما يزعجك يا نور، فأنت لم تتصلي بي آخر الأسبوع كعادتك، وآثرت البقاء في

مساكن الطلبة على غير عادتك، يمكنك التكلم يا عزيزتي، سأحاول جاهدا إزالة هذا الانزعاج عن كاهلك.

قبل أن أبدأ الكلام اقتربت منه وهو جالس على كرسيه، وطلبت منه أن يقوم ويحضنني، وقبل أن يفعل قلت له:

- أنت أيضا على غير عادتك اليوم، لم تسمعني شعرا حين قابلتك، ولم تبتسم أمامي ابتسامتك التي أحب، أنا أحتاجك يا عمر، أحتاجك الآن أكثر عن ذي قبل، أريد أن أشعر بك أقرب يا فؤادي.

وجّهتُ إليه كلامي وأنا أحرك كلتا يدي على كتفيه، واقفة خلف كرسيه حتى هم واقفا، والتفت إليّ بنظرة عاتية لم أدركها، ووجه قد تجرد تقريبا من المشاعر، وعندما لم أعد أفهم ما يدور بخاطره وضعت رأسي على صدره، كمن يريد الراحة بعد عناء سفر وطول مشقة، وأخذت أنتظر يديه على ظهري وأسفل شعري، حتى بدأت أشعر بأصابعه على عنقي تحت أذني اليمنى، تصنع دوائر صغيرة ممتعة ومريحة، فطلبت منه أن يضمني

أكثر، وعندها بدأت أشعر بقوة يديه تشدني نحوه، ولا تخلو من لين ورفق، قلت له ... لقد قابلت ربيع!!

- وماذا جرى؟

سأل وكأن الأمر لم يزعجه، ولا أرّق له ذهنا، أو طرق من قلقه بابا، ولا كأن أمرا على غير رغبته قد حدث، فاخبرته بكل ما حصل من اتصاله بي إلى لقائنا وانفعاله - ربيع - عليّ لإصراري على فراقه، فأذيته لي بأسلوب كلامه الرخيص، ثم وجدت نفسي بحضنه -عمر- أندي قميصه بدموع صامتة. لا أدري لماذا لم أبك عندما أزعجني ربيع بحماقاته، ولماذا بكيت الآن. أهو عمر، عندما أكون بين يديه أشعر بأنني كاملة الأنوثة، وحساسة لدرجة الشفافية، وقد أُجرح من أي شيء. مد عمر يده على خدي يمسح دموعي برفق بعد أن شعر بها، ثم قال بصوت حنون أخذ قلبي من محيط اضطرابي وأجلسه على كرسي راحته:

- بعد هذه الدموع سيزول الغمام وسترتاحين، ثم إنك فعلت الصواب فلا بأس عليك يا نور، لا لوم عليك يا صغيرتي ولا تثريب.

كنت أتوقع جوابا دافئا ينسيني كل شيء، أما جوابه هذا وكلماته البسيطة الرقيقة تلك، لم تنسني فقط كل شيء، بل زادت من نبضات قلبي وقرعه طبول الحب فيه. فرفعت رأسي عن صدره ونظرت إلى عينيه، وتبادلنا النظرات لحظات قليلة. ثم أغمضت عينيّ وأخذت أقترب منه برأسي ببطئ وحذر، وأطوي المسافة القليلة بين شفتيّ وشفتيه، وقلبي يرتقي السماء نبضه، وأنفاسي تقصر وتسرع، وشعرت بالدم يسري في وجهي، وبراحتي تنكمش على قميصه، حتى التقت شفتاي بشفتيه لأطبع على شفته السفلى أول قبلة لنا. ثم أعدت رأسي للخلف قليلا، ونظرت إليه فوجدته ودودا وديعا، فأغمضت عيني ثانية واقتربت بصدري ورأسي إليه كَأَجَلٍ محتوم، لا يخطئ غايته، وأطبقت شفتيَّ على شفته السفلى أرتشفها بقوة هذه المرة ... لا أريد أن أبتعد ... ليت عمري كله قبلة ... وما أن رفعت شفتيّ عنه هذه المرة، وعدت برأسي قليلا، حتى لاحظت فتورا لديه مقارنة بما تأجج واشتعل بي من إحساس. اعتقدت أن عمر سيسر لقبلتي، وظننته سيسمعني كلاما جميلا وأنا بين يديه، لكنه بدل ذلك ظهر عليه الفتور وبعض التوتر، قبل أن يشيح نظره عني ملتفتا برأسه

نحو جدران الغرفة ... هل أخطأت ... ماذا حصل ... ماذا يدور بخلده الآن ... أتراه يظنني فتاة رخيصة ... لكنه حبيبي وأنا حبيبته ... ما باله يا ترى ... ومع ابتداء مغيب ابتسامتي سألته ماذا جرى، ألا يعجبك تصرفي؟ لم يجب، وبدل ذلك أعاد نظره إليّ ورمقني بعينيه وعلى وجهه نصف ابتسامة، فقلت له أنا آسفة! فقال بتعجب ودهشة لماذا الأسف أنا مسرور جدا، ثم حاول على عجالة استدراك الموقف فأضاف:

- أنا أحبك يا نور!

تجاهلت ما قاله، وقلت بهدوء وأنا مستاءة جدا بقرارة نفسي وأعماقها:

- نسيت أنك متزوج، ربما أثّر بك وساءك أن تقبلك فتاة غير زوجتك، اذهب إليها يا عمر، اذهب إليها، قد لا يُكتب لنا أن نبقى سوية، فأنا مجرد فتاة دخلت حياتك ومن الممكن أني سأخربها، أنت دائما تعطيني هذا الشعور.

ضربت بقبضتي على صدره وأخذت أبكي، عندها شعرتُ بقوة يديه تلفّني بأحضانه وشفتاه تهمس بأذني:

- هدئي من روعك نور، أنا أحبك، وأنت من أعطتني معنى لحياتي، أنت لم تخربي أي شيء، بل على العكس، ولا تفكري بغير أن نكون سوية، أنا دائما أتخيل نفسي معك في بيت واحد وأولاد لهم ذات عينيك، حتى أنني أتخيلنا بخريف العمر وقد هرمنا معا، نتذكر هذه الأيام، أنا أحبك يا صغيرتي، أحب غيرتك وأحب تفكيرك وأحب حبك لي.

توالت بعدها الأيام، وتعلقت بعمر حد الجنون، وسكن تفكيري وما انفك يرافقني - هو أو طيفه - في كل فعل أفعله، وكل فكر ينزل خاطري. كنت لا أكتفي به في الجامعة وحسب، بل أتصل به من كل يوم عندما يغادرني إلى منزله، أدمنت كلام الغزل منه، والتشجيع وصوته الذي تهواه مسامعي، وكيف يغرس بي الشعور بالدفء والرضا عن ذاتي، ووجدت نفسي بكل لقاء بين ذراعيه، أبحث عن شفتيه وأستمتع بذراعه تلفُّني، وتجذبني إليه ليلتصق

جسدي بجسده، فتسري إليّ منه حرارة العشق لتنساب إلى شراييني مُبحرةً إلى موطن الإحساس، ومعمل الحب ومَقرّ الشعور.

أذكر ذلك اليوم الذي طلبت منه أن يصطحبني إلى السينما، لم أرغب بالسينما لشيء، سوى أني تخيلت نفسي أرتمي بين ذراعيه ونحن نشاهد فيلما تحت أضواء خافتة. يومها طلب مني أن نلتقي بدار السينما القريبة في حيفا بساعات المساء، وعرض عليّ أن يعود ليصطحبني بسيارته بعد أن يعود إلى بيته. رأيت ارتباكه، وشعرت أنه يطلب مني أن يعود لبيته قبل أن نذهب إلى السينما لا أكثر. قلت له "أفضّل أن ألتقي بك في دار السينما، وأريدك أن تلبس شيئا مميزا وجميلا." أنا لم أشأ هذا حقا، فقد كان عمر أنيقا على الدوام، لكني كنت أبوح له برغبتي أن يخبرني هو بذلك. وهو كمن أدرك هذا فقال حينها بأنه غير قلق عليّ، وطلب مني أن ألبس ما أشاء، وأضاف: مثلك تتزيّن بها الملابس، لا الملابس تزيّنها.

التقينا بدار السينما بعد وقت قصير تناسب عكسيا مع حرّ اللقاء، فقد كان لقاء ملهبا، أخذني بين ذراعيه كما لو أني غبت عنه سنين، والغريب أني أردت ذلك بشدة، وشعرت باشتياق له، وحنين ليده تلف خصري وتطوّقه، رغم أننا بعصر اليوم كنا كجسد واحد. نظرت إلى عينيه بابتسامة واسعة وقلت له بصوت خجول:

- أحبك، أحبك يا عمر، أنت قلبي!

وأمسكت بيده كفتاة صغيرة تخشى الضياع، فحوّطت كفّه الكبيرة أناملي يجذبني إليه برقّة لا تخلو من رجولة، واتجهنا إلى شباك التذاكر يظللنا الحبّ ويجري بنا الغرام. وقفنا هناك ننظر لوحة الإعلانات، ونقلّب نظراتنا بين أسماء الأفلام المعروضة عليها وبين أسماء الممثلين، إلى أن اخترت له فيلما لا يستحضرني ذكر اسمه الآن ولا حتى أحداثه، أتذكر أنه كان يتحدث عن عَالِم عاش في إنجلترا، وأبدع هناك في مجال بحثه. شعرت بأن عمر سيحب هذا الفيلم كونه يتكلم عن سيرة ذاتية لفيزيائي ومخترع، أما عن نفسي فرأيت عمر لا أحد سواه.

مرّ الفيلم كلمح البصر، لم أشعر بالوقت وأنا بحضنه في قاعة جميلة كأنها صممت لنا خصيصا، جلسنا في الصف الأخير، ولم ألاحظ بداخل القاعة غير عجوزين التصقا ببعض كأنهما يتحديان الزمن بحبهما. تذكرت حينها كلامه برغبته أن نكبر ونشيخ معا.

انتهى اليوم، ورغم كل عطفه وحبه واهتمامه، كنت أستاء جدا مع انتهاء كل يوم يجمعنا، فقد أزعجتني فكرة أنه يذهب إلى البيت للقاء زوجته، ولم تبرحني فكرة أنه متزوج أبدا، وأزعجني أكثر في غيابه، وأنا فتاة من بيت محافظ، أن كيف لي أن أبادل رجلا متزوجا القبلات، وأرتمي بحضنه في كل لقاء، فكان يعتصرني الندم بعد جولات القُبل. سؤالي هذا لم يكن ليتبادر لذهني وهو معي، إذ أن شيئا ما كان يدفعني إليه دائما، شيئا كأنه يجري بدمي، وأريده على الدوام، يدقّ ناقوس قلقي إذا غاب عمر، وأطمئن لأجله إذا حضر، ويحملني في راحتيه مثل فراشة صغيرة في بستان واسع يحمل من الأزهار أجملها وأحلاها وألطفها، فراشة تقفز بجناحيها الرقيقين البديعين من زهرة لأخرى، ومن وردة لوردة، وما استقرّت على جانب، ولا أطالت

وقوفا على زهرة بعينها، رغم دفئها وجمالها وطيبها، تقفز بكل سعادة تريد جميع الأزهار، فكل زهرة حملت معناه ... وكل بستان ضمّه وحواه ... أدركتُ حقيقة معناه ... الحُبّ.

عُمر

نعم ... نور ... عيناها كتُرابِ الأرضِ يسقيه الرّحمن ندًى فيه يشبّ بريقا كعين اللآلئ فيتلألأ كضوء القمر... فوها مِلء الشَّهدِ أوانٍ يُسكِرُ العقل متذوِّقُهُ، يُسقيه المحظوظَ خالقُهُ، يرد الروح ما حاول عزرا انتزاعه ... وشعرها الليلي المنسّق بِيَدٍ سماويةٍ من صافي الجمال وسَلسال الرونق، وَعَذبِ الرواء، يموج فيتدلّى على وجنةٍ كبدرٍ حاولت قطع الليل أن تمحو ضياءه ... أرأيت الليل يموج ... في لحظة غياب، شعرتُ أني ... ربما لم أكن، فأدركتُ في ذاك الجمال وُجودي ... أيامي وسيلها الجارف، أناشيد ومعازف ... في قلبي ووجداني ... بين صبابتي وأشجاني ... تعزف على أوتاره لحن الخلود ... بأبهى صورةٍ لفناء عابدٍ بمحراب معبود ... في أوج الهيام في لحظة السجود ... على ضريحه سلام كلّ عاشقٍ ... كلّ متيّمٍ وودود ... كلّ مُغرمٍ مُوَلَّهٍ ... كلّ وادٍّ ووديدٍ ومودود ... ومع كلّ سلامٍ آلاف الورود ... عليه تسَّاقط تترى ... من أيادٍ بالعشق صُفّدت ... وأفئدةٍ يسوقها الغرام أسرى ... تحيا الأنوثة فالرقّة فيها ... أتذكر يا صديقي ... أتذكر؟ ... أمّا أنا، ما عدت أذكُرُ أيَّ لحظة بيننا ... سوى الأخيرة من مماتي ... والأولى من حياتي ...

هناك حيث امتطينا جياد الصبابة والوصال الجامحة في نشوة القُبل ... لا شيء غير ... من يذكُرُ ونديمُه بعد الصحوِ ماذا قد فعل؟ ... زدني كاسات المنى ... زدني وذُدِ الصحو عنّي مخمورٌ أنا ... حتى تفيض روحي حبًّا لها ... وتُكتبُ الأبدية لنا ... لكم تمنّيتها ... ألا أيهذا البدن الفاني ... ما العُمر إلا ثوان ... تناثر عشقا في صرح الهيام بسلام ... على جدرانه السرمدية!

هل تطلب الصَّحوَ من قلبٍ بها خَمِرٌ
ما كان ينصاتُ مَن في حُبِّهَا ثَمِلُ
والصّحو ما قابل العشَّاقَ ثانِيةً
زِد نَشوتي في هواها أيُّها الرَّجُلُ

في يوم ربيعي بديع النسائم، وعلى طاولتنا المفضلة بكفتيريا الجامعة من جهتها الجنوبية المطلة على البحر، فوق أشجار الكرمل جلستُ بحضرة الجمال، أغوص بعينيه وأعود حاملا لؤلؤ الشِّعرِ ومرجان القصيد، فألقيه على مسامعه لأغيب في ابتسامته لحظات، مُتمنّيًا لو أغيب العمر كله بين ابتسامتها ونظرتها، فأعيش وأموت وينثر رفاتي هناك، لكن صوت تكسّر

زجاج خلفي انتزعني مما أنا فيه، لألتفت بنصف استدارة إلى يميني فأرى النادلة تتبع كأسا قد سقطت منها، بجانب طاولة يجلس إليها رجل لم يكترث، ولم يتحرك، ولا حتى نظر إلى موقع الكأس التي تناثرت بجانبه، ولا شدّه منظر النادلة، فقد كان مأخوذا بلحظة انتظار، يضع يسراه على الطاولة أمامه، ويمسك بيمناه ساعته محدّقا بها بكل حواسه، بدا كما لو أن عقارب الساعة تَشدُّه وتطوّقه ... ماذا عساه ينتظر؟ ... أي قدر يا تُرى؟ ... انحنت النادلة تريد تنظيف الأرضية من شظايا الكأس المكسورة، وبقي الرجل في عالمه غير آبه ولا مكترث بما يدور بجانبه ... جذب منظره الغريب وتصرفه المريب ناظري نحوه، وهو كمن أدرك هذا، فرفع رأسه ينظر إليَّ بعينين تآكلتا وجدا، هالني لِهُنَيْهَةٍ منظره، فقد كان بلا وجه، لكنه بدا مألوفا، قلّبتُ على جناح السرعة دفتر ذكرياتي فلم أجد له عنوانا ... أو حتى لحظة لقاء بيننا ... ما قصة هذا الغريب القريب؟ ... كان موقفا غريبا، لم أتحقّق حتى من الشعور الذي أصابني لحظتها، فما كان مني إلا أن أشحتُ نظري عنه صوب نور ليلتقي بعينيها مجددا، ونبتسم معا، فأمسك يدها مغادرين الكفتيريا إلى

السماء الخضراء، بفيِّ الشجر الأبيض، حيث افترشتُ العشب جالسا وهي ارتمت عليه مُودِعَةً رأسها فوق قدمي، تنظر إلى قُبّة السماء كأنها تبحث عن غيمة بيضاء تروق لها، لتبدأ حديثها معي، وما هي إلا لحظات حتى وجدَتها فقالت:

- حدثني عن نفسك.
- وماذا تريدين أن تعرفي؟
- كل شيء عنك، كل شيء، حتى أدق التفاصيل!!
- ما أنا إلا معلّم للرياضيات، يحب طلابه، ويرى بهم المستقبل وكل عظيم آت، وإن ارتقيتُ فلا أرى بنفسي غير كوكب يدور بفلكهم الجميل ...

قاطعتني وقالت:

- طلبت منك أن تحدثني عن نفسك لا عن طلابك.
- لكني أرى فيهم ذاتي، وأراهم يحملونها إلى أبعد ما أستطيع أنا.
- لا أظن! العين لا تعلو على الحاجب.
- بالمكان يا صغيرتي، لا بالمَكانة.

- أيها اللوذعي الأريب، أنت تعرف ماذا أريد أن أعرف، وأي حديث أود أن أسمع.

بالوقت الذي كانت تحاول - كطفلٍ صغير - بأسئلتها اقتحام عالمي الذي تحب، والتجوال فيه ومعرفة كل شيء، عَبَقَ أريجُ الكلام بيننا حتى وجدتني أخبرها بأني أحتفظ لنفسي بمكان شبه مهجور على شاطيء البحر، أذهب إليه كلما شَدَّ عليَّ القدر كفّه، وألقى عليّ الدهر صدره، أو اختلجني شعور بالضيق. واقترحتُ أن أصطحبها إليه يوما ما، فما كان منها إلا أن همّت واقفة وأمسكت بيدي ... هلمّ بنا ... لنذهب الآن!

- الآن الآن؟

قلت مستغربًا جديتها في طلبها الفوري هذا، فقالت مؤكدة رغبتها بالذهاب إلى ذلك المكان:

- نعم! وما المانع؟ هيا يا حبيبي، خذ صغيرتك حيث ترغب وتتمنى عليك.

كان قرارًا مفاجئًا، فقد دنت الشمس من المغيب، وكان لا بُدّ من عودة وشيكة إلى مرقدي ... ليس هذا بمانع ... لعلّي أجدُ معها مبعث راحة في ذلك المكان ... اذهب، فما أقصر العمر!

بمحاذاة البحر دعوتها للترجّل ... اتجهَ أمامي ذاك الجسد المتناسق بصغره، والمتباهي بانحناء وسطه، واكتنازه حيث يجب وينبغي عليه أن يكون ليزاحم الجمال موضعا في ذلك البنطال، ويرسم انتصاراته حُسنا على شكل كَفّات أقدام صغيرة فوق الرمال ... وأنظر إلى نور تبتعد عني بضع خطوات، ثم تستدير ضاحكة وتعود مقبلة إلي، فتُودِع ظهرها على صدري وتلتصق بي لأضمّها، ونحن لا ننظر إلى آخر البحر بل نهواه، ونغرقُ في أعماقه، فالذي لا يغوص أعماق الهوى، لا يدرك لذة العيش ولا حلو الحياة، ولا حتى معناها، طوّقتها بيسراي في الوسط، وأزحت شعرها الذي تدلى فحجب عني وجهها بيمناي، أردّه إلى ناحية واحدة ليتجلّى عنقها على الناحية الأخرى من جسدها الشهي، فأرسل أناملي عليه تنزلق ببطئ من أعلاه إلى أدناه، ليلتصق ظهرها بصدري أكثر، ويعلو صدرها أثر تنهيدة عميقة متأثرة بما يجري متأهبة لما هو آت، أنزلت يمناي عن عنقها لتستقر ممسكة

كتفها، وضغطت بيسراي على وسطها أجذبها إلي أكثر، ثم حنيت رأسي نحوها لأغرس في عنقها قبلة طالت، فهي الأولى التي تشهد خلوتي في مكاني، وتسمع أناشيد صلواتي. حَمَلَتْهَا حرارةُ القُبلة لتُحَلِّقَ بسقف معبدي، مغمضة عينيها مميلة رأسها، تود المزيد وتستشعر بكل لمسة مني، وشعرتُ بيديها تبحث عن يدي لتشبك أصابعها بأصابعي، كأنها بهذا تؤكد وتحرص على بقائي ملتصقا بها أبد العمر، وما كان حتى أرحت شفتي معيدا رأسي للخلف قليلا، ببطء شديد، لأراها تعود من تحليقها وسماء النشوة لتحطّ على راحتي سائلة وما أنت؟ وما لهذا المكان يا صفيَّ الروح؟ أتجالس وحدك؟

- بالطبع لا!

فما أنا إلا حالة ... وتلك الشجرة والبحر نُقلّبُ الحال من حالٍ إلى حال ... فنلتقي وتارة أبتعدُ أنا، وتارة أمشي والشاطئ ... وإلى تلك الشجرة تحطُّ أرحالي، فتتساقط همومي، ويُحال الحزن شرابا تمتصّه الشجرة بعيدا عني!

أَلَمَسَتْ نور يدي وشدّتني؟ ... إلى أن نمشي إلى الشجرة وتقول تعال، تعال لتخبر الشجرة بأنك لم تعد وحيدا، فأنا وأنت واحد يسري بخُطى الليل وهدى البدر على مرأى النجم، تقدّم، لا يمحو الثرَى آثار حُبٍّ لقلب واسف، على شاطئ الهوى ودرب العشاق، حبيبتك أنا يا عمر، أتمايلُ وأضحكُ كما يحلو لي.

كل القصائد التي كتبْت، كل القصص التي قصصت، كل الهدايا التي أحضرت، كل ما غدوت، كل ما أتيت، كل ما فعلت، كل هذا لأقول لك كلمة واحدة يا صغيرتي ... كلمة واحدة فقط ... أحاطت بروحي، وتجلّت فيها ذاتي، فلا أرى نفسي بكل لحظة إلا بها، وليس ثمّة لحظة تميزها فيشار لها ويُقال الآن، فهي كل اللحظات، ومعنى العمر في كل آن وأوان ... أحبك ... أحبك ... أحبك يا فتاتي يا حياتي ... أحبك يا عمري الضائع الذي وجدت!

ليس الهوى حَسْبُ نبضٍ عند صدفتها
أو حَسْبُ نيرانِ أشواقٍ بأحشَاءِ
إنّ الغرام هو الذاتُ التي جُبِلَتْ
رُوحًا تَرَدَّدَ بَينَ الحَاءِ والبَاءِ

لقد كانت أجمل من كل من حضر معنا في ذلك المساء، أجمل من ذلك البدر يعلو أضواء السماء، ومن عرض البحر يتلو آيات الأنبياء، ومن نسيم الريح يعلوها أطرافَ فتاةٍ فرعاء ... حسناء هيفاء ... أبدع ما في تلك اللحظات حين وصلنا إليها، فهممت أحملها لأجلسها على غصن تدلى منها، بعد أن ألقيت عليها تحية الصديق، واستأذنت أوراقها بضمِّ نور إليّ وهي جالسة على أدنى غصن منها، يعلو رأسها رأسي بقليل.

- أخبري الشجرة بما تشائين!
- لا أشاءُ غيرك، أيها المجنون، لا أريد أن ينتهي هذا اليوم، أحبك يا فؤادي، وسأطلب منك طلبا، لا تخيبني.
- أطلبي ما تشائين يا حبي الدائم.
- غنِّ لي بقلبك!

ابتسمتُ لطلبها هذا، إذ تذكرتُ صديقي خليل وانزعاجه من غنائي، مع أني لم أكن لأغني لأحد، هو فقط كان يقتنص لحظات أترنم فيها بلا قصد، وأبدأ الغناء ولا أحد بجنبي غيره، لا لشيء،

ربما من سعادتي كنت أغني، أو لأغنية سمعتها في لحظتها، فمازحتها قائلا:

- ذكّرتني بصديقي خليل، كان دائما يطلب مني ألا أغني، ويدعي بأنني بعيد كل البعد عن الألحان وسيئ الأداء، ويطلب مني دائما أن أقول شعرا بدل الغناء. تعليقاته هذه هي السبب في حرمان الجمهور موهبة قد تتطور وتسبق موسيقار الأجيال، بكل تواضع!

ضحكت ملأ الصدر، ثم رفعت حاجبيها كأنها فطنت أمرا وقالت:

- ألا تود أن تعرفني بأصدقائك؟
- بلا، سأعرفك بخليل قريبا، إنه إنسان رائع وصديق بما حملت الكلمة من معنى، ستُسرين بمعرفته والحديث معه بلا شك، أما الآن فسأضمك إلى الجمهور الذي حرمه صديقي موهبتي الغنائية، وأقول لك شعرا بدل الغناء، ما رأيك؟

أومأت بالإيجاب فَرِحَةً بين يدي، وأمالت جسدها للخلف رويدا رويدا، يرغمني حبي لها وخوفي عليها على إمساكها وإحكام ضمتي

لها، كي لا تفقد اتزانها على الغصن، ثم عادت واعتدلت لتشترط عليّ أن يكون من شعري وليس شعرا أحفظه، فارتجلت لها كلمات:

بشعلة نورٍ بددت ظلماتي

بأروقة عشقها دارت حكاياتي

أنا الذي اعتزل الغرام من زمنٍ

على هضاب وجدي نصّبت راياتي

ببحر حبٍّ هائجٍ تغلّفتْ

والقلق بعينيها البريئاتِ

تسائله أأمضي في بحره،

أم أرتقي طوق نجاةِ

لك الزمان لك المكان صغيرتي

لست على أحبّتي منصبا ذاتي

فإن أعياك دوار الحبّ وجدتني

على ناصية الأمنياتِ

وإن اخترت البرّ فإنّه

كُلّ موعودٍ لا بدّ آتِ!!

- أيّها الرجل الغريب!! أنت لا تعلم ما يدور ... لكنك لا تجهلُ ما يُحيّرني ... لن أخبرك إن أعياني دوار الحُبّ وأنا على مركبك، ولن أختار البرّ إن لم تشأ، لا أريد أن أفكر بشيء آخر، أنا أحبك ولا أريد سوى أن أحبك يا عمر، أنت عشقي وجنوني، أنت نبض الوجدان وشقيق الروح.

كانت ليلة حب رائعة أعدتُ مع انتهائها نور إلى سكن الطلبة في الجامعة، وقفلت عائدا إلى بيتي ترافقني سعادتي.

لكن! ... مع كل هذا الحب الذي تدفق بشراييني، والعاطفة التي اختلجت صدري حينها، وسعادتي وغبطتي، بقي هناك شعور يزاحم دفء مشاعري وهدوء خاطري، شعرت بالقلق يتسلّل إليّ، فقد تفحّصت هاتفي الذي غالبا ما أتركه صامتا وأنا برفقة نور،

حتى لا تزعجها اتصالات أحلام، فوجدت أحلام قد اتصلت بي مرات، وبدا لي من تكرار اتصالاتها أنها قلقة، فهي لم تعتد غيابي لساعات متأخرة دون أدنى إشعار... ماذا تراها فاعلة الآن ... هل قادها قلقها لتخبر أحدا من أهلي؟ لا أظن ذلك، لو أن ذلك قد حصل فعلا، لكان أحدهم اتصل بي ... أظنها آثرت السكوت والانتظار ... سكوت قبل العاصفة ... كيف ستكون ردة فعلها عندما ألقاها بعد قليل دون سبب لتأخري ... حتما ستحزن وتغضب ... ثم لا شيء ... ستعود المياه إلى مجاريها ... أو ليكن الطوفان ... لا يعنيني ولا أريد أن أفكر، أنزلت زجاج نافذة السيارة بجانبي قليلا، وأشعلت سيجارة، ثم أخذت منها نفسا عميقا أسدُّ فيه نقص النيكوتين الذي نسيت أمره وأنا بصحبة نور، وشغلت المذياع أبحث عن موسيقى هادئة أتناسى فيها ولو للحظات أمر أحلام، وما قد يحصل بعد قليل، وقد كان أمر الموسيقى هينا في تلك الساعة من الليل، إذ أغلب الإذاعات المحلية أوفتني الغرض، أخذت أقلب بين الإذاعات حتى توقفت عند كلمات سمعتها حينها لأول مرة وراقت لي، فانتابني شعور بالإسترخاء ... "فراشة جئت ألقي كحل أجنحتي ... لديك

فاحترقت ظلما جناحاتي" ... إنه المطرب العراقي الجديد، كاظم الساهر... تذكرت خليل عندما أشاد به، وقال بأنه أعاد جمال الأغنية العربية وجودة اللحن في عمق الكلمات التي يصدح بها، بعد تدهور كل هذا مطلع الـ90.

أوقفت سيارتي بمكانها المعتاد بجانب البيت، ونزلت منها متثاقلا متسائلا، ثم ارتقيت السلالم إلى أن وصلت مدخل البيت، طرقت الباب طرقات خفيفة، ومع كل طرقة كانت تمرّ بذهني قصة مفزعة عما قد يكون، وما قد تفعل أحلام، أهي نهاية علاقتي بها يا ترى؟ وبالوقت الذي غرق ذهني في المصائب ظهرت لي أحلام! على عكس ما توقعت، كانت ردة فعل أحلام هادئة وقلقة بعض الشيء، مختلفة تماما عن الذي توقعته، لم تظهر أدنى شك لغيابي، بل أظهرت خوفها وقلقها علي، وسألتني إذا كنت بخير فطمأنتها، وأخبرتها ألا تقلق. تسرَّبَ إليّ حينها شعور بالندم، هي قلقة بالفعل، أردت أن أعيد لها الاهتمام ذاته، فجلست معها نودّع الليل الهادىء بحديث مبتذل عادي يسوده الكلام الفاتر... إلى أن داهمنا النوم.

زهر الشوق

عَشِقتُ اللّيالي من سوادٍ لشَعرِها

وأحببتُ من وّجنَاتها رِفعَةَ القمرْ

ولمّا رأيتُ العين بُنّيّةً غوى

فؤادي بِحُبِّ الأرضِ وَالتُّربِ والحَجَرْ

فأحببتُ أحجارًا وأُغرمتُ بالثّرى

أشاهَدتَ من يهوى التّراب مِنَ البشرْ؟؟

فإن شئتِ مولاتي وشاءَ الغرامُ لي

فناءً به أفديه نفسي فلا يَذَرْ

عيناها كتُرابِ الأرضِ يسقيه الرّحمن ... ندًى فيه يشبّ بريقًا كعين اللآلئ ...

في صباح اليوم التالي، وفي طريقي إلى الجامعة، دارت أفكار غريبة برأسي تشبه أفكار نور، ماذا لو كنت ظالما بحق أحلام، لقد أبدت حبها وقلقها البارحة، على عكس توقعاتي، أظن تصرفها هذا هو نتيجة لصحّة علاقتي بنور وانعكاسها الجميل على حياتي معها ومع سواها، لولا غيابي وقلة اهتمامي لما بدت أحلام على هذا النحو، سرعان ما تبدّدت هذه الأفكار بعد أن التقيت نور في الجامعة، وأعطتني رسالة مزخرفة وملوّنة، مضمونها ورقة كتبت عليها بحبر أزرق وخط بديع:

ما عدت أملك الإجابات

وليس بحوزتي لاءٌ ولا نعم

ما عدت أكترث لحالي

وليس يعنيني حزنٌ ولا ندم

إن تأخذني لرحاب عينيك

لجزيرةٍ لم تطأها قدم

أو تتركني هنا وحيدة

تحيط بأشلائي الظلم

لست عن حبك أتخلى

وإن جرى على فراقنا القلم

بمحراب عشقك شيدت ضريحي

فلا يثنيني جرحٌ، ولا يلزمني ألم

سررت جدا لكلامها اللطيف، وللحب الذي لاح منها وملأ عينيها، وأصابتني منها عدوى غليان الحب، فشعرته يعمل بدورة دمي الكبرى، فيؤكسده عشقا ويطرق جدران الفؤاد ليضخه بكامل المودة والصبابة لكل خلية بهيكلي الصبِّ، وبخضم الحب الذي جال في بدني وأفعم صدري، اقتربت من أذنها وهمست:

- تعالي!
- لوين؟
- إمشي معي!

أخذتها من يدها واتجهنا صوب أعلى مباني الجامعة، أخبرتها بأني سأهديها منظرا بديعا سنذوب فيه، كقطعتي سكر في كأس الغرام!

كانت نوافذ الطبقة الثلاثين والأخيرة في "إشكول" - أعلى مباني الجامعة - تطل على أحراش الصنوبر على امتدادها، يفصل بين الأحراش الخضراء وبين البحر بنيان شاهق، وشارع واسع أبى رحلته إلى جنوب البلاد قبل التفافه حول عروس البحر حيفا، أما شاطئ البحر الذي زرناه بالأمس فقد استتر خلف بعض العمارات الشاهقة بالجهة المُقابلة للأحراش، لم نستطع رؤيته، ولم آت على ذكره في لساني، لكن انفعالها عندما التصقت بي، وشدت يديها أسفل كتفي، وهي ترسل نظرها لأبعد نقطة في البحر من الجهة الشمالية الغربية، كان كفيلا بأن أرى تذكرها لليلة الأمس. صمتنا قليلا كأننا نتيح لقلبينا أن يتكلما عن الليلة الفائتة، ويتبادلا حرارة الحبّ والوداد، ثم طفقنا ندور من نافذة إلى أخرى باتساع ذلك الطابق الذي صُمّم خصيصا - كما لو كان للحظتنا هذه - ليطلّ وتشرف نوافذه على مناظر جميلة، تشدُّ لباب الناظر إليها، فتسلب منه إدراكه الوقت، ولولا أن نبهتنا

الشمس تلسع وجناتنا عبر زجاج النوافذ في ثورانها عند الظهيرة، لطوينا اليوم هناك.

لم أتوان عن ترك بصماتنا الجميلة في كل مكان بعالمنا الصغير الذي دارت فيه حكاياتنا، وأصبحنا نلحظ كل زاوية حولنا وكل ركن، حتى تلك الأماكن التي كنت أمر بجانبها دونما اكتراث، أصبح لها معالم أخرى بعد أن أهديتها ساعات من الدفء المنبثق من شعلة حبي التي تضمها حنايا صدري وترعاها ضلوعي. تحولت الجامعة من مبان وأرصفة صامتة مجرّدة إلى عروس دَبَّ فيها الألق، وفاحت منها الحياة، رأيت كل شيء فيها فائق الجمال وخلاب، كل مَعلَم وكل كتاب، حتى البرد الذي كان يحيطنا بالشتاء ونحن نجلس على مقعد خشبي ننتظر شجرة صغيرة زُرعت بجانبه لتكبر وتغطينا من رذاذ المطر، كان له طعم آخر. حتى الصباحات كانت فيها بزيٍّ آخر، لشد ما جذبتني إليها باكرا لأستمتع بنقاء الجو ولطيف الهواء، وأرى الضباب المتباينة كثافته في كل صباح يلف وجهها المشرق الصبيح، هناك كنت أقف مغرما عاشقا كلفا، وألقي عليه التحيّة من قلب شغوف عطوف:

صباح الحُبِّ للوجهِ الصَّبِيحِ

لبلسمِها وترياقِ الجُرُوحِ

لوَجهٍ قد تَوطَّن في فُؤادي

هَواهُ النَّبضُ واشتاقتهُ رُوحي

ملأ هذا الشعور صدري، وأردت أن أبوح به للجميع، تخيّلتني فاتحا ذراعيّ ناظرا إلى قلب السماء أقول بصوت مرتفع يملأ الفضاء، ويستقر بأسماع الجميع، قاص ودان، قريب وبعيد، فلا يستثني أحدا، أحبك يا نور ... أحبك يا نور!

تذكرت صديقي خليل وأني أخبرت نور بصداقتنا. قابلته بيوم لطيف من أيام ذات الربيع، بعدما لمحته واقفا تحت لمسات الشمس الحنونة، على العشب الأخضر ينظر إلى البحر، توجهت إليه فرحا لأخبره بالأمر بينما تدور برأسي أفكار عن كيف سأخبره، وإن كان ليتقبل ذلك.

- مرحبا خليل!
- أهلا صديقي، أهلا عُمر، كيف حالك؟

- تعبان، تعبان يا صاحبي!!
- ليش، خير ان شاء الله؟
- مش عارف، كُنت بدي أقولك إشي لكني تراجعت.
- إحكي إذا كان الأمر بريحك.
- بلكي أزعجك حكيي؟
- لا أظنّ أنّ أمرًا يُزعجني بعد، تكلّم يا صاح أثرت فضولي.

فقلت مبتسما لأبدّد الحيرة التي بدأت تبان عليه:

- لا شيء مهم، غير أنّي أردت إثارة فضولك قبل أن أبدأ الكلام.

كان حديثنا تضفيه الإبتسامات، وقد كنت مرتاحا باخبار خليل رغم أنّه لم يخف دهشته واستغرابه، لكنه لم يعترض أو يبد استياء.

لاحقا، وفي جلساتنا كان أمر نور لا يغيب من حديثنا، لكنه لم يكن جوهره، إلا في بعض اللقاءات، كما لم يخلُ من مزاح. كنا نجلس على مقعد خشبي من الجهة الشمالية كما جرت العادة

أن نلتقي من ذلك الفصل، في كبد النهار باستراحة قصيرة اتفقت في برنامجه وبرنامجي على ذات الوقت، وصدف حينها أن مرّت إحدى العجائز أمامنا متبرجة في صورة تبعث العجب، وتلفت النظر، فأومأ إليها خفية وقال:

- شد حالك، إذا تزوجت الثانية فمن المؤكد أن أمر الثالثة أسهل!
- أتقصد هذه العجوز؟
- ليست عجوز يا رجل، لم تتجاوز المئة بعد!
- أنت مخطئ يا فتى الحساب، أراهن أنها ساعدت بنقل الأخشاب لسيدنا نوح!
- هي من المؤمنين إذا، هذا سبب آخر، وربما كان لها من المال ما يجعل الزواج منها غاية، لكني أحذرك يا صديقي، فقد يقلّبُ تبرجها هذا نور وأحلام عليك!
- شكرا على تحذيرك يا صاح! سآخذ به وأتنازل عن موضوع الزواج منها، أنت حقا صديق صدوق!

قليلون هم أمثال خليل، متفهم ورحب، سرّني أني أخبرته، وأراحني ما فعلت. كانت تجتاحني رغبة باخبار أحد ما، ومشاركته سعادتي وأحاسيسي، وقد كفاني خليلي كل هذا، وأسعدني كيف فعل، تشجعت أكثر وتلهفت لتراه نور وأعرفها به، وتساءلت ونفسي خلف جدران باطني عن يوم تلقاه، تخيلت كيف سنجلس ثلاثتنا وأي حديث سيدور بيننا!

كان ذلك اليوم، التقيت خليل وتناولنا وجبة غداء في الجامعة معا، ثم قمنا نسير نحو الكفيتيريا نتناول أطراف الحديث حول تدهور الحال في الضفة والقطاع، وإنذاره لانفجار وشيك، وفي خضم حديثنا اتصلت نور وأخبرتها بمكاننا، وطلبت منها الحضور، ثم اعتذرت من خليل وطلبت منه أن يسبقني إلى الكفيتيريا لأعود مع نور لتتعرف عليه، وذهبت لأحضرها غير بعيد عن المكان الذي افترقنا فيه.

لم أغب طويلا، عدت إليه بصحبة نور بعد دقائق من افتراقنا. جلسنا قريب النصف ساعة وتفرقنا، سعدتُ جدا بهذا اللقاء اللطيف المريح، وهي كذلك، سُرَّتْ جدا كيف أني عرفتها على

صديقي المقرب، كما أخبرتني لاحقا أنها انبسطت بالحديث الذي دار بيننا، وأنها كانت مُرتاحة أمام خليل ولم تشعر إلا بالسرور، كما أثنت على خُلقه وأضافت مفصحة عن رغبتها أن أعرفها على كل أصدقائي:

- شو مع باقي أصدقائك؟ بدكاش تعرفني عليهم؟
- حابِّه تتعرفي على الكل؟

نظرتُ إليها بعد سؤالي لأراها تضع سبابتها اليمنى على شفتها بغنجٍ وتبتسم قائلة:

- آه ... حتّى أحلام ... عرّفني على أحلام!

تبسمتُ لطلبها هذا، وتساءلت غير جاد: لم تودين ذلك؟ فقالت:

- حتّى يتسنّى لي معرفة الأوقات التي تكون فيها حضرتك بأحضانها!

وأردفت ضحكة خفيفة بعد جملتها هذه، فتنبّهتُ لهزلها وأردت مجاراتها، فنهرتها مبتسما ونعتُّ طلبها بالجنون، فقالت:

- أي جنون، بحكي جد!
- إذن هو غباء، وأنت غبيّة!!
- أنا غبية؟
- آه غبيّة!
- مش أكثر؟

ضحكتُ لخفّة دمها ودعاباتها التي استمرّت كل اليوم بعد أن عرفتها بصديقي خليل. فأيقنتُ سرورها مني، وكدت ألمسه بيدي لاطلاعها على هذا الجانب من حياتي، وفخري بها أمام صديقي الأثير والثقة التي أدركتها.

زهر الشوق

لِي بِحَيفا ما يُقَالْ   في لقائي والجَلالْ
في بَهاءٍ قد تعالى   صَرحَ حُسنٍ في التِّلالْ
صبوَةُ القلبِ استَحالت   تَعتَلي أوجَ الجَمَالْ
غَيرَ أنِّي مِن هُيامي   جِئتُ من وزرِ السؤالْ
طِرتُ مِن أرضٍ لأرضٍ   أرتقي أعلى الجبالْ
صَرحُ حَيفا في فؤادي   قَارعَ العَذبَ المُحَالْ
آيةٌ من خمرِ حُبٍّ   صُبَّ في كأسِ الكمالْ

رأيت كل شيء فيها فائق الجمال وخلاب، كل مَعلَم وكل كتاب، حتى البرد الذي كان ...

خليل

حقيقة تفاجأت من أمر عمر، غاب عني هذا الجانب فيه. كما أني لم أخف دهشتي أمامه، فقد أخبره حاجباي كذا التواء شفتيّ عن عجبي عند أول مرة كشف لي فيها علاقته تلك. قد تعرف جانبا بإنسان لازمته سنين، وتخفى عنك جوانب أخرى فيه وبشخصه.

في أحاديثنا وقبل أن تنضم نور إلينا في أول لقاء يجمع ثلاثتنا، كنت أستمع إليه بدهشة في كل مرة كما لو أنه يحدثني للمرة الأولى، غير معترض على أي جملة يقول، ولا موافق لطرح بعينه. أردت أن أعرف المزيد لأقرر أي نصيحة أهديه، وبأي جانب من هذه القصة أرسو، شعرت بأن هذا ما أراده مني، نصيحتي ورأيي، وليس فقط إخباري بقصته.

عمر لم يخبرني عن أي مشاكل بينه وبين زوجته، ولا استشعرت أنا بذلك، لذلك اعتقدت أن حبه هذا وعلاقته بنور ما هو إلا شعلة لن تلبث طويلا أمام محتمات الحياة، وظروفه كونه رجلا متزوجا، وكون الفكرة التي يرمي إليها -زواجه من اثنتين- لا

يستسيغها مجتمعنا في أيامنا، علاوة على أن عمر ليس بالشخص المتعسف بقراراته، ولا هو متهور في أمور حساسة كهذه، بالأخص إذا كان لها التأثير على غيره من قريب أو بعيد، فخلصتُ ونفسي إلى أنه لا بد سيصل إلى تقاطع طرق، يختار بموجبه زوجته وبيته، إذ لا أعتقد أن بإمكانه الجمع بين الاثنتين طويلا بأي شكل من الأشكال.

عندما انضمت نور إلينا كان برأسي صورة مسبقة عنها من حديث عمر، ورغم أني لم أر نور كما يراها عمر، إلا أنها بدت لطيفة وهادئة، تستمع إلينا بشغف ونحن نتحدث عن الجامعة والتعليم وأمور أخرى، وتُشاركنا الحديث بتواضع واقتصاد في الكلام، وتحاول إخفاء ذلك قدر الإمكان، فتستبدل عوضا عن الكلام إيماءات برأسها حتى تنبهنا بوجودها معنا في قلب الحديث والحوار، فنراها تهز رأسها موافقة لرأينا في بعض الأحيان، وفي أخرى تتكلم كلاما يشترك فيه مع لسانها وتحريك شفتيها ولحن صوتها خجل جلي، وحياء وقور ورقيق.

لاحقا بعد معرفتي أكثر بطبيعة علاقتهم انقشعت هالة دهشتي، وتسلل إلي شعور غريب يشوبه بعض القلق على صديقي. لكني كنت أعي أن هذا أمر طبيعي، فقد يترتب عليهما دفع الثمن، فهي تجربة محفوفة بالشغف والمشاعر، وقلما تحت شمس الشغف وبحر المشاعر ما يكون للحسابات والتحسبات معنى. هذا الشعور الغريب جعلني أُسَرُّ بداخلي لأمر عُمر رغم قلقي، وتناسيت لوهلة تشابك أمره في مثل هذه العلاقة. هو رجل متزوج ولديه طفلة، كما أنه يكبر نور بقدر لا يقل عن عشر سنوات، ورغم يقيني بأن كل هذا لا يُشكل مانعا لزواج اثنين جمعتهما تلك العلاقة وذلك الانسجام والتوافق، إلا أن للمجتمع وضغطه رأيا مخالفا، قد يشتق منه رأي الأهل حائلا دون تلك العلاقة.

تحدثنا كثيرا عن طبيعة علاقته وسيناريوهات محتملة، ورغم أنه لم يكن يملك أجوبة لأسئلة مهمة وضعتها نصب عينيه مرارا، إلا أني رأيت العزيمة والإصرار فيه على المضي قدما، وفعل كل شيء لأجل حبيبته، وظفر مراده بالزواج منها. يا لهذا الحب، بالأمس القريب كان عمر بهدوء بحيرة صغيرة وادعة لا يختلجها الموج، ولا هي بعمق البحر وغدره، ولا تعرف غضبه وثورانه فلا

يكترث لأمور كثيرة، واليوم أصبح بعد حبه لنور محاربا جسورا، لا يأبه أن يقف أمام العالم بأسره لأجل تحقيق غايته، كان ينقصه فقط ألا تنثني نور أمام ضغوطات محتملة ومرشحة بقوة من أهلها كما فهمت منه. لكن نور لم يبرحها التردد والاضطراب بين حبها وخوفها من موقف أهلها وذويها إزاء هكذا علاقة يتناحر فيها قطبان عملاقان هما جل ما يميز الورى، الوجدان والنهى. ورغم أنّي أميل إلى البحث عن سبب ما لكيلا أقف بجانبها لموقفها هذا، إلا أنني رأيت حيرتها أمرا طبيعيا، حاولت أن أشرحه لعمر مرارا، الأمر الذي لم يتقبله بالصيغة التي رأيت، ولا بالطرح الذي أتيت. رأى عُمر أن حبا كهذا يستحق كل الشجاعة، وكل تضحية مهما كان ثمنها، فأراد من نور أن تقف على إصرارها عليه صامتة، بالوقت الذي يقوم هو بفعل ما يتطلبه الأمر، إذ لا بد لصمت نور مع إصرارها عليه أن تشار إليه أصابع أهلها متهمة أو سائلة، فينتهز فرصته ليقترب من أهلها ويعرفهم بنفسه، على أمل أن يوافقوا على زواجهما، هكذا رأى، وهكذا كان رأيه. أما أنا فقد استبعدت ما يظنه وما يراه، وكان لي رأي آخر، كذلك اختلفت نور عنا بموقفها.

فاطمة

أيا بُنيّة، في الدّنيا ألوان يراها الناظر لا اختلاف في ذلك، ويتفق الجميع على أسمائها من حيث الدلالة، وإن اختلفت اللغات والمصطلحات، وتبدلت اللهجات وتغيرت الألسن. لكن ما لا دليل عليه ولا إثبات له أو برهان على صحته، هو ثبوت اللون من عين بشر لآخر، فقد يكون اللون الأحمر متفَقا عليه واضحا وضوح الشمس في كبد السماء، ويشير إليه الجميع بالأحمر، لكن المُبهم إن كان كل مشير إليه يراه كما يراه الآخر، ولا أتحدث هنا عن فارق درجات النظر، إنما عن ثبوت اللون من أصله، إذ كيف لك أن تعلم أن الناظر إلى الأحمر يراه أحمر كما تراه أنت، لا كالأزرق الذي أنت تراه، وما قوله عنه أحمر إلا لتلقينه ذلك منذ الصغر، واتفاق الجميع على اسمه غير مناف لاختلاف الصورة بتاتا من ذهن لذهن، وإذا كان اللون إحساسا، فكيف نُشير إليه؟

ما أردت قوله بنيتي إن من الأمور التي اتفق عليها البشر وأجمعوا عليها ليست بالضرورة تظهر لهم واحدة، وإن للناس الحكم على ما يرون بغيرهم، لا ما يرى غيرهم بنفسه، إذ لا سبيل لك لقراءة

آخر إلا بحواسك أنت، فقد يبدو لك شخص ما سعيدا فرحا، وبداخله أرطال أحزان يخفيها، كما قد يختلف وقع أسباب الحزن من شخص لآخر، فمن الناس من يرى في أمر هولا صعيبا، يكون ذات الأمر على آخرين هينا سهلا، وإن سبب هذا قد يكون لعظم نفوس الآخرين وعمق فكرهم وتجربتهم، أو لسذاجة وجهل منهم بأن الجبال من صغار الحصى، وأن عود الكبريت الصغير يحرق الغابة الكبيرة.

أخفيتُ حزني وألمي بعد خلافي مع أمك بمطلع زواجنا، وخفت من كسر الثقة بيننا إلى الأبد، لذلك لم أوفر مجهودا لترميمها وإصلاحها، لكني آثرت لاحقا ووجدت من الأنسب أن أتعلم فن الخسارة والإخفاق، وأتعايش مع الموجود كما هو لاستحالة ترميمه، وكلي يقين بأن ما اختاره الله لي هو أفضل ما كان، وما سيكون. لم أختر التعايش من ضعف أو خوف، إنما هو - اختياري - بمبدأ الطير الذي أتى بركة ماء يريد أن يشرب، وألفى عند البركة رجلا ذا لحية يشرب منها، فقال لنفسه بما أوحت إليه لحية الرجل وحدَّثَتهُ، إنّ الرجل هذا وقور صاحب دين لن يؤذيني، وما حطّ البركة حتى رماه الرجل بحصاة فقأت عينه.

طار بعدها الطير المسكين يحمل جرحه وأذية الرجل له بغير سبب ليشكوه للنبي سُليمان عليه السلام الذي استدعى الرجل بدوره، وقضى بفقء عينه قصاصا له وعقابا على فعلته وأذيته لطير وادع ما أراد إلا ليشرب، وهو ما اعترض عليه الطير مدعيا أن ما خدعني هو لحية الرجل لا عينه، وإن كان لا بد من قصاصه ومعاقبته فإني أرى القصاص الأنسب حلق لحيته.

رغم فقداني لهذا الجانب المهم من أمك، وخيبة أملي المتكررة في أحداث تلت زيارة جدك الجارحة، فلم تغب عني جوانب حسنة بأمك مثلك أنت يا فاطمة. لذلك لم أقطع علاقتي بها وقررت قص ما ساءني ليس إلا، واخترت المضي قدما بانتظار رحمة من الله، أو تغير أمر ما.

*****

عرفتُ تضحيته ومعاناته من رسالته هذه، وهذا ما لم أستطع صياغته في روايتي لتشابك أمري بين حبي له وحبي لأمي، إلا أني لا أخفي ميلي في البحث عن سبب ما لدعم علاقته مع نور، وحتى الزواج بها لو تسنى له ذلك، إذ لا يمكنك تغييب الجانب

العاطفي من إنسان وتتركه ليحيا دونه، فما معنى الحياة إن امتلكت المال والأولاد والأصدقاء والنجاح وكل شيء، إلا الحب والسعادة. لكني أبدا ما تجرأت على التصريح حتى بقرارة نفسي عن دعمي لما فعل، أو عن رغبتي في دعمه، لذلك آثرت الوقوف على الحياد، والحياد في هكذا مواقف متشابكة يكون مخلوطًا بالحيرة، والحيرة إن قرعت طبولها اضطربت النفس واختلت، فكانت مواساتي لنفسي أن الأمر مضى وفات وانقضى، وأنا أنعم ببراءتي وصغر سني حينها، فلا عتب عليّ ولا تثريب، كما أحببت بأبي قراره بالمضي في زواجه ليبقيني بجانبه. كان بإمكانه الطلاق والتخلي عني ولو جزئيا، وعن أمي لأجل تزوجه بأخرى، لكنه فضل وجودي معه على سعادة الحب وأحضان دافئة ... أُقدّر صنيعه هذا ... لا بل كفاني فعلُه شعورَ السوء اتجاهه، وزاد من محبتي له وتجاهلي لاتخاذي موقفا إزاء قصته مع نور ... هي قصة قديمة على أية حال، وما يفعله معي متجدد كل يوم ... أحبك أبي!!

الجُزء الرّابع

الفراق

أيَا قَدَرًا دُمُوعِي مِنكَ تَجرِي
وَعُمرِي قَد أضَعتَ بِغَيرِ عُذرِ
جَعَلتَ لِيَ التي لم يَهوَ قَلبِي
وَأهدَيتَ التي يَهوَى لِغَيرِي
تَرَكتَ النَّبضَ كَي أحيَا عَلِيلًا
بِقَلبٍ قَد ثَوَى فِي غَيرِ صَدرِي
أيَطوِي المَوتُ حَيًّا بَأسَ هَجرٍ
أمِ المَوتُ انطَوَى بِي، لَستُ أدرِي

نور

بدأ النزاع بداخلي يتفاقم عقب إخباري منار - أختي الكُبرى - بأمر عمر، ورغم أنني أخبرتها فقط بعمره فقد بدت على وجهها علامات التعجب وعدم الرضا. لم تسمح لي أن أكمل حديثي، وقاطعتني بتحذيري منه. أرادت إخباري أن مثل هؤلاء من الرجال مثل من يستغل لمآربه، وتابعت كلامها تسرد لي بعض قصص صديقاتها اللواتي قُرصن من علاقات مشابهة اتضحت فيما بعد غاية مدبريها، إذ أرادوا استغلالهن للتباهي أو لقضاء شهوات ليس إلا. وأضافت ناصحة في حديثها بأن في زماننا هذا لا أمان، وعلى الفتاة أن تكون حذرة فلا تستهتر أو تتهاون.

تابعت هي كلامها بينما صمت أنا لوهلة أمامها ولم أتكلم، بل أخذت أجول بأفكاري وخيبة ظني، ولا أدري ماذا أقول أو أصنع. أختي هذه هي أقرب أفراد عائلتي إلي، وهي أكثر من يتفهمني وتوافقني رأيي على الدوام، لم أفهم لماذا فزعت وأخذت تحدثني بسلبية هكذا ... أهي الجامعة؟ ... قد تكون الجامعة تشكل لها عالما مجهولا تشوبه الانفتاحية المقيتة المفزعة ... أم تراها من

حبها لي بالغت بالخوف والقلق؟ ... ظننت أنها بمرحلة ما ستساعدني بإخبار أهلي عن عمر، لكني صُدمت بصخرة قلقها وجدار مُعارضتها للفكرة من أساسها، دون حتى أن تتم لها الصورة أو تكتمل، فاكتفت بما أحدَثَ لها خيالها فأفزعها. وفي خضم أفكاري هذه لاحظت منار هدوئي، فقطعته محاولة إدراك موقف تنَبَّهت إليه، فقالت تشرح موقفها:

- علّه يكون إنسانا جيدا، لكنه يكبرك بكثير، ومثلك يا نور حتما ستأتيه فرصة أفضل. عليك أن تضعي مثل هذه القصص جانبا وتنتبهي الآن لتعليمك، تعليمك سيمنحك السعادة والحياة التي تحبين!

لم يطل الحديث أكثر، هززت رأسي كأني اقتنعت بحديثها، وقررت أن أتكلم بغير موضوع حتى لا يظهر عليّ رفضي التام لكلامها الذي لم يأت عن دراية، وإنما هو اختلاط مشاعر قلقها عليّ وجهلها بعمر. لاحقا قابلت عمر بالجامعة وأخبرته ما قالت منار، فعقب على موقفها وحديثي واياها قائلا:

- مثلُ هذه الأقاويل تكون متوقعة من أقرب الناس إلينا، فأختك تجهلني وقلقها شرعي.

كما عبر عن سروره من حديثي عنه لأختي، فأخبرته بأنني لم أعلمها بأمر زواجه. عندها نظر إليّ كأنه فهم سؤالي، فاستدركت وقلت له بصوت أخفَتَهُ القلق:

- كيف لو أخبرتها؟

لم يحرك ساكنا، علّق عينيه على الأرض أمامه، وخلا وجهه من المشاعر، ورأيت للمرة الأولى أن عمر لا يملك إجابة. اقتربت منه واحتضنته مُلقية رأسي على صدره، شعرت حينها بخوفه عليّ، وقلقه من فقداني. تجرد عمر أمامي بشرا، بعدما كنت أراه ملاكا أو نموذجا للكمال الإنساني البحت. لم يزدني ذلك في ذات اللحظة إلا حبا له، ورأفة به، فوجدتها فرصة لأعطيه من دفئي وأطمئنه، لذلك احتضنته، وتبعني جسدي بإشارات منه يقول له لا تقلق!

بعد تلك الحادثة جرت الأمور بوتيرة سريعة، ولم أنجح في خضمها بطرد كل تلك الوساوس من رأسي، كما زاد خوفي وقلقي على أن أضيع، فقد لا أحظى بعمر!! ربما كانت أختي على حق ... ما معنى الحب الذي يجمعنا إن لم يكلل بزواج ... وهل حقا موضوع الزواج وارد في مثل ظروفنا. هو متزوج ويكبرني باثنتي

عشرة سنة، كما أنه لم يبد ولو مرة واحدة نية بالانفصال عن زوجته، كيف لي بإقناع أهلي به، وكيف سأظهر بأعين صديقاتي وأقاربي إن اخترته، سواء بانفصاله عن زوجته أو بعدمه. لا أدري لماذا لم أهرب من أفكاري هذه المرة، بل على العكس، توجهت لأرض المعركة ثانية علني أظفر بانتصار.

كان يوم السبت، وصادف أن كنت وحدي في البيت في ساعات الظهيرة، جلست على الكنبة في الصالة أنعم برائحة النظافة بعد أن أتممت تنظيف البيت وترتيبه، وبينما أنا كذلك، دخلت منار البيت وألقت التحية، وتابعت سيرها نحو المطبخ، ثم عادت وبيدها كأس ماء لتجدني لم أبرح مكاني فقالت:

- مالك هيك؟ في إشي؟
- مالني؟ فش إشي! عادي! خلصت تنظيف وتعبانة شوي!
- يعطيك العافية!
- الله يعافيك خيتا! ... سامعة ... حابة أحكي معك بموضوع ... بس اسمعيني للآخر إذا سمحت!

طرحت الموضوع ثانية على منار التي أبدت هدوءا هذه المرة، ثم اقتربَتْ وجلسَتْ بجانبي على الكنبة، ووضعَتْ كأس الماء على

الطاولة، وبابتسامة رقيقة أخبرتني أن الذي يجول بخاطري لا يدعى حبا، وإنما هي تراكم مشاعر ورغبة في خوض تجربة جديدة، تأتي غالبا عند الذين هم في مثل سني. ادّعَتْ أن موضوع الانفصال عنه غير مقلق ولا مضن كما أظن، حتى لو توغلت في العلاقة، بل على العكس هو واجب أن يكون حتى أتأكد من صدق كلامها وصحته، وأضافت بعدها بصوت رقيق:

- هو غير مناسب لك، فهو يكبرك بكثير، ولو كنت مقتنعة به لما عدت لسؤالي ثانية يا نور.
- بس أنا بحبه ومتأكدة!!!

قلتها أمامها لأول مرة، أتعبني هذا الرفض، لكني قلتها ولم أنتظر جوابا، قلتها بكل قوة كأن كل خلية بي دفعت كلمة أحبه لتخرج مني، فكانت مدوية، فأدركت بعدها معنى لكل فعل ردة فعل معادية له بالاتجاه مساوية له بامقدار، إذ قالت منار بحدة:

- شو صابك؟ شو هذا الكلام؟ انتبهي لتعليمك إسّا!!!
- منتبهة لتعليمي!

صدقا أنا لم أسألها لأستشيرها بشأنه، كما أني كاملة الاقتناع به، ولا يعنيني فارق العمر بيننا، لسنا أول حبيبين فارق العُمر

شب بينهما. ولأكون صريحة، فأنا لا يعنيني أيضا أنه متزوج، أنا فقط أحبه وأريده، هو كل عالمي وكل ما أريد، وأما الأسئلة التي تراودني فسببها قلقي من أهلي، وخوفي من عدم تقبلهم الأمر، وبالتالي خسارة قلبي.

افترقنا بعد حديثنا هذا، وتمنيت لو أني لم أخبرها ... لا بأس، فهي لن تعود للحديث بالموضوع كما أعهدها!

مر السبت كلمح البصر، وعدت مع صباح الأحد إلى الجامعة، لكني لم أعد وحدي، بل تبعني شعور الحيرة، ورافقه الإحباط هذه المرة ... كيف ستكون ردة فعلها لو قلت لها بأنه متزوج؟

لم أنتبه بالمحاضرات، وكنت شاردة البال، كثيرة الصمت، حتى اتصلت بي أختي. قلقت في البداية، منار تعلم أني بالجامعة، ماذا عساها تريد مني في هذه اللحظة، لم أستقبل مكالمتها، تركتُ جوالي يرن حتى صمت، فعاودتها الاتصال لتخبرني بأنها تريد مقابلتي، فقلت:

- أنا بالجامعة، في إشي؟

- لأ، ولا إشي، فكّرتك بعدك بالبيت، ببقى أشوفك لمّا تروحي!

أخبرتها بأني سأقابلها في نهاية الأسبوع، عندما أعود إلى البيت. دارت برأسي أسئلة كثيرة، واستبعدتُ أن يكون أمر عمر هو ما أرادتني أختي لأجله، لكني تخيلتها بسذاجتي قد غيرت رأيها، وربما تساعدني أمام أهلي على طرح الموضوع داعمة متفهمة. لم أُخبر عمر بأمرها، التقيتها مع آخر الأسبوع في بيتها وكانت المفاجأة.

كانت مفاجأة لي أنها علمت بأن عمر متزوج، وأخبرتني كأنها لا تشك بأني أجهل أمر زواجه، أرادت ربما إنهاء أمر عمر على أنه يخدعني ويخفي زواجه عني، واستثنت بالمرة احتمال معرفتي بهذا الأمر.

لم أظهر اهتماما بالأمر، على عكس ما توقعت هي، لكني كنت متفاجئة لبحثها عن عمر واطلاعها على سيرته، فسألتها كيف عرفت بأمر زواجه، لم يكن الجواب متوقعا، فقد سألت صديقة لها تعلمت بالجامعة وتعرف عمر. لم تضف إلى معرفتي بعمر

جديدا، لكنها الآن صرّحت بأن أمر عمر بات يقف داخل أسوار المستحيل، وجاء سؤالها بغتة:

- إنت بتعرفي إنه متزوج؟

صمت وأطرقت رأسي ... لن أكذب ... عاجلا أم آجلا سيعلمون بأمره.

- بتعرفي أنه متزوج!!! شو صابك؟ انجنّيتي؟؟
- وإذا متزوج؟ شو فيها إذا متزوج؟؟ حرام؟

عم الصمت، وطغت عليها الدهشة وتغيّر لون وجهها، ثم نطقت بصوت شخص متعب مرهق، وكأنها وصلت لتوّها من سفر طويل:

- مين بتتزوج واحد متزوج غير الأرامل والمطلقات والبنات الي فاتهن قطار الزواج؟؟؟ شو ناقصك انت؟ ألف واحد بتمنّاك! انت مش فاهمة شو بتحكي!! هذه تخاريف وسخافات!!

سالت دمعة على خدي لم تأبه أختي بها، بل أعطتني ظهرها وذهبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب فعدت أنا إلى بيتنا ... عدت في

ظل جناح الخوف من المجهول الآتي، وكنف المقت والإحباط الآني!

أخفيت كل هذه التطورات عن عمر، إذ اعتقدت أن الأمر قد يسوؤه، فهو لا يملك الإجابات ولا أنا ملكتها، ولم أعرف ماذا يمكنني أن أصنع. أخذت أشعر بالإختناق من الوقت، وتخيلت نفسي أخفق مع عمر لأجد نفسي مجروحة وحيدة، قد طواها الزمن، وخط على وجنتيها أخاديده بكفه الخشن، ورأيت نفسي سامية بنت الجيران، التي تجاوزت الأربعين ولم تتزوج لأن أهلها رفضوا ارتباطها والزواج من حبيبها سعيد على خلاف قديم بين الأسرتين، ولأن الجميع عرفوا بقصتها لم يتقدم إليها أحد، فبقيت وحيدة حزينة. ما كنت أستطيع التفكير بغيره، لقد رأيت جميع الرجال لا يشبهونه، ورأيت الفرق الشاسع بين كل من قارنته به، كنت أقارنه بزملائي في التعليم وحتى أقربائي، لا أحد يشبهه. أفسد عمر عليّ جميع من عرفت. حاولت الابتعاد عنه قليلا لأرتّب أفكاري، حاولت التقليل من وتيرة لقائي به، لكني في كل مرة أعود إليه بعد انقطاع قصير، يجرّني التوق ويدفعني لظى الأشواق والحنين، كأني لم أره من سنين ودهور، وهو وقف

كمن يراقب ويعرف ما يدور بفكري، دونما اعتراض أو ابداء رأي ... لماذا لا تحرك ساكنا يا حبيب ... ألا تعلم ما بي يا صفيَّ الروح ... ألا تشعر بي ... زاد خوفي من الوحدة، وأين ملجئي الآن، لمن أبوح بمشاعري ... ومن غيره ... قررت مُصارحته فجاء الرد مشحونا بالتوتر، وعاتبني على إخفائي الموضوع إلى الآن، لكنه حاول أن يُطمئنني بأن هذه بداية متوقعة، وما علينا إلا الصمود أمامها، وبدا عليه إنه يقنع نفسه، ويطرد قلقه أكثر من طمأنتي أنا، ولم أخف شعوري هذا عنه، فكان منه أن عرض عليّ مشاركتي بالأمر، كأن يكلم أختي أو أهلي وكأني طرف محايد.

طلبت منه التمهل ولا سبب يجول بخاطري سوى القلق والخوف، أو ربما أصبحت أكثر اقتناعا بأن علاقتنا لن تتم، وأن الفراق بات أمرا حتميا وشيكا، ولا جدوى من محاولته هذه التي قد تكون بالخطورة من مكان يُلقي بي وحيدة مثل سامية.

كانت اللحظة الفاصلة التي أجبرت فيها على تقبل الواقع حين عدت مع نهاية الأسبوع إلى البيت لأجدني أقف في قفص الإتهام أمام والدتي التي علمت بأمر عمر من منار.

جن جنونها، وكادت تفقد وعيها، لم تعد أمي التي عهدت وعرفت، قدحت عيناها نارا وشرارا تناثر أمامي مثل البركان، وقذفتني بكلمات كحجارة من يحموم، وفتحت باب السعير لتلقي بي في نيران الرفض، وجحيم العتاب والتوبيخ.

- ليسَ من المعقول هذا، فهو متزوج ولا يمكن أن نقبل بذلك أبدا، ماذا جرى لك؟ أمجنونة أنت؟ كيف تسمحين لنفسك؟ ماذا دهاك؟؟

أما والدي، فلم أسلم من شحنات ضربه، وكدماته التي تُشابه الصعقات الكهربائيّة، فتوقفُ نبضات قلبي، وبعد أن هاج البحر واسترقد في مكانه، طغى صمته رغم أن نظرته لا زالت هائجة. أما سعاد وسامي فأخذا موقف المتفرج الغارق في صمته، فلم أعرف منهما إن كانا عليّ أم معي، لكنّ عيونهم أخبرتني بأنهما يرأفان لحالي، كما اختفت منار وقتئذ من المشهد، وبانت عن الحدث لتتنصّب سؤالا بذهني "لماذا يا أختاه؟"

في عودتي هذه وعلى أثر ما مررت فيه لزمت غرفتي وبكيت مرارا، لا أريد الابتعاد عن عمر فهو قلبي، لكني لا أريد لأمي أن تبكي

أيضا ... صليت لله أن يدلني إلى طريق الراحة وبر الأمان، وناجيته ليرشدني لما هو خير.

وفي مساء يوم السبت الذي لا أنساه، دخل أبي إلى غرفتي ووقف أمامي صامتا، ووجه حانقا يتطاير منه الغضب والسخط، وما أن التفتُ نحوه بوجهي الكئيب، حتى لذعني بكلامه إذ قال:

- اقعدي في البيت!! أنا بدفع عليك مصاري حتّى تتعلمي مش عشان أعمالك السودة!

ثم صادر أغراضي وهاتفي، ولم يكن بيدي حيلة!

جاء الأحد وبقيت في البيت، وجاء الإثنين ولم أبرح البيت ... أهو جاد ... الامتحانات تقترب ... حدثت أمي لكن لا مجيب، كانت متأسفة حزينة كأنها فقدت ولدها، أما منار فقد اكتفت لاحقا بالاعتذار لي على إخبارها أبي، عللت فعلتها بخوفها لمّا رأت ضياعي كما وصفته.

أعياني الصمت، وقتلتني الحيرة وبدني الخوف ... تُرى أين أنت يا عمر ... حسبت كل طارق باب بيتنا عمر ... لا حيلة لي سأبقى مصرة على رأيي ... إن كنت سأخسر عمر فلا أسف على كل شيء!

دخلت في يوم الخميس من ذات الأسبوع المشؤوم على أبي وأمي في الصالة، ووقفت بوجهي الحزين وقلت لهما:

- أنا بدي أياته!

وانتهى الحديث ...

أخذني أبي من يدي وسحبني إلى غرفتي وكلامه ينهمر عليّ مثل الرصاص، واختلط صوته بصوت أمي تحثه على التأني والتريث، فطالها من لسانه هي الأخرى، ثم قذفني على تختي فرأيت مصباح غرفتي نجوما تدور حولي، وتتسارع بدورانها مجارية تفاقم غضبه، وكثافة سهام لسانه التي استقرت بي في كل موضع ومكان.

بدأ الأسبوع الثاني وأبي على عناده وتعنته، وزاد خوفي حتى كاد يخنقني. انهرت في يوم الثلاثاء، وقبلت بقراره لكنه تفاداني، وقام من أمامي غير آبه ولا مصدق انكساري. خفت على تعليمي، بعد قليل ستبدأ امتحانات الفصل، وأبي صخرة لا تلين، ولا أمل في الأفق ولا بشير. ثم جاء الفرج على يد أمي التي حدثتني بضرورة الانصياع لأبي وحفظ تعليمي:

- أبوك بفكّر إنك رايحة ترجعي تشوفيه إذا رجّعك للجامعة.

فقلت لها صادقة تؤكد صدقي دموعي:

- مش رايحة أشوف حدا، كمان شوي بدها تبلّش الامتحانات.

وافق أبي على عودتي لتعليمي بعد أن حدثته أمي وحذرته من أن بقائي في البيت قد يجلب علينا كلام الناس، وعللت قائلة له: "عاجلا أم آجلا سينتبه الجيران إلى وجود نور الدائم في البيت، وسيسألون عن السبب أو قد يخترعون القصص عنها وعنا، وهذا أمر لن نحتمله ولن ندرك إصلاحه إذا ما وقع". كما أقنعته بأني قد تخلّيتُ عن مرادي، عن عمر، وأن قلقي وخوفي بات محصورا في دراستي وامتحاناتي، فعدت إلى التعليم بعد موافقته الحذرة المشروطة، موافقة كان ينتظر معها أي إشعار ليسجنني أبد الدهر في البيت.

بدأت أتفادى لقاء عمر يوميا، يشدني إليه الشوق، وينتزعني منه القلق والخوف من أبي، فتحججت مبررة غِبّي بانشغالي بدراستي واقتراب الإمتحانات الفصلية، وساعدتني ببعدي هذا لاحقا أيام

العطل، أما عمر فقد بقي على موقفه الصامت، ولم يبدِ أي استياء، رغم علمي بأنه يشعر بالتغير الحاصل على تصرفاتي، لم يسألني بعد أول لقاء لنا عقب موافقة والدي على رجوعي إلى الجامعة، وحتى مع عودتي المنتظمة لتعليمي، وإصراري بداخلي على الإقلاع عن مقابلة عمر ملتزمة بوعدي الذي قطعته لوالدي، وجدت نفسي أقابله بجسد أبلاه الشوق، وعين أرّقتها النوى، فأخذني بأحضانه وسألني عن غيابي بقلق بالغ، فقلت:

- ظننت أنك نسيتني وشغلتك الأيام!

لم يعلق على كلامي! ونظر إليّ كأني لم أتكلم ثم أشاح بوجهه عني، ونظر إلى الأرض مطرقا رأسه، فراوغته مرة ثانية بمزحة خفيفة، وأخبرته بأني أردته أن يشتاق لي، لم يبتسم حتى، لكنه لم يلح في السؤال أيضا بعد أن رآني لا أريد الجواب، فآثر أن يرأف بحالي، ويشفق على دموعي التي أثارتها جملتي الأخيرة، وطغت أخلاقه بين إلتماس العذر وإعطائي المساحة الكافية لأرتب بها أموري وأقرر ما أريد، فصرف الموضوع والتفت لآخر والخيبة لا تفارقه.

في العطلة الجامعية بين الفصلين، وبعد انتهاء الامتحانات لم أكلمه أبدا، كما لم يكلمني هو، فقد هيأت الأمر مسبقا بإخباره أن أختي منار تظن أننا منفصلان، ولا أريدك أن تتصل على نقالي فنثير الشكوك. أعرف أن ادعائي هزيل، مثلما أعرف أن عمر يعطيني المساحة الكاملة لأتخذ قراري بنفسي، لا بتأثير منه ... وإن كان هذا تأثيرا منه، فماذا تريد الأنثى غير رجل متفهم، يتسع صدره لحيرتها ويحتويها، في حلو المواقف ومرها بغير استياء أو تذمر.

كان أمرا صعبا بُعدي هذا عنه، لم يبرح خيالي ولا تفكيري، لكني خضت معركتي ولم أنجح، وأيقنت أني أستطيع الابتعاد عنه، وإن حف الأمر كثير من الألم، فقررت مرغمة قتل الحب ... قتل حبي له ... حبي الذي أدركت في بُعدي قدرتي واستطاعتي على قتله، رغم الألم الجسيم، والشوق العظيم، والأثر المقيم ... كل شيء يولد لا بد يوما سيموت ... لا سيما الحب ... لا سيما الحب ... وكل عزيز لا بدّ مع فراقه حرقة الحنين ... حرقة لن يخفف من حرارتها طول مكوثي في ديار الظاعنين ... "وكم يمضي الفراق بلا لقاء ... ولكن لا لقاء بلا فراق" ... وهل يجوز غير الحزن والكمد

في فراقك ودوام ذكراك أيها الأغرّ الآسر... ألا ليت شعري دام بالعين طيفه ... ألا كيف غير الوجد قلبي يُجيزُ ... وقد أسعدَتْ قلبي ليالي وصاله ... وكل امرءٍ أرضى فؤادي عزيزُ... فكم بالحري أنت أيها العزيز الحميم الحبيب!!

في اليوم الأول والثاني من عودتنا إلى الجامعة، وبعد انقطاعي عن عمر في العطلة، لم أكلمه، ولم أتصل به، كذلك هو. لكن ذلك لم يدم، ففي اليوم الثالث انهارت قواي تحت وقعة الأشواق، وعُصر قلبي في قبضة الحنين، فاتصلت به وطلبت منه أن أراه، كان صوته دافئا أزاح عني حملي وهمي، ووجدت نفسي أبكي بحرارة بعد أن أنهيت مكالمتي معه، لبثت بين أشجاني وأحزاني دقائق بعدها مسحت دموعي، ووضبت نفسي وتحضرت للذهاب إليه. تقابلنا بعد نصف ساعة، ووقفتُ أمامه صامة في مكتبه، أنظر بعينيه وهو يحدق بي دونما كلمات، حتى رميت نفسي بحضنه أضمه بشدة وقوة، ولفظ فؤادي ونطق من خالص الوجد وصافي الشجن، وآجام الوَلَه والحنين على لساني حاله، وحال روحي فقلت له وكلي صبابة واشتياق:

- أحبك!

وأجهشت بالبكاء. شعرت الدمع الدافئ الذي يدفعه النزوع إلى حبيبي من خلف عيني يرطب خدي. بعدها لم أعد أشعر بشيء، وغاب الوجود من حولي، فقط يديه تلامس أسفل رقبتي وظهري، ولم أعد أسمع صوتا غير صوته - وهو كل ما أردت - يهمس بحنان:

- أحبك نور.

كنت كأني أسمعها لأول مرة، فدام عناقي له دقائق، تمنيت لو أنها عمري كله، بعدها رفعت رأسي أنظر بعينيه البنّيّتين العميقتين قد حبس فيهما دمعه، ابتسمت لما رأيت ذلك ورقَّ فؤادي له أكثر وأكثر... لا انثنيتَ عن العهد يا عمر... لا ابتلعك الهجر وغيبك الفراق يا حبيبي ... وابتسم هو الآخر، تحدثنا قليلا ثم اصطحبتنا السعادة ورافقنا السرور إلى الكفتيريا المفضلة لدينا، وجلسنا على الطاولة المعهودة، على الشرفة، تحت كنف الانشراح والمسرة، وهالات الهناء على أثر اللقاء، يلاطفنا نسيم عليل، ويسوق لنا ندى التلاقي ويلقيه على لظى الرحيل، نظر إليّ مبتسما وكله توق واشتياق، يعنونه الغرام والهيام، وقبل أن يبدأ كلامه أشعل سيجارته، فأخذت أستمتع برائحتها التي غابت

عني أياما، وأنا أحدق بعينيه تحدثاني عن حبه الوارف، وعشقه الجارف.

افتتح الكلام بسؤال متوقع عن كيف كانت العطلة، أراد فقط أن يبدأ الكلام، وقد بدا متوترا، رأيت ذلك في عينيه، عندها تغيرت ملامحي وزالت ابتسامتي، فحولت نظري عنه إلى سطح الطاولة مطأطئة رأسي كما لو كنت مذنبة، وكان ردي أكبر خطأ سأندم عليه لاحقا، وستلاحقني لعنته سنين.

- أنا على ما يُرام!

صمتُّ بعدها، ولم أتمالك تعابير وجهي، ولم أنجح بإخفاء حزني ... لا شيئ على ما يرام ... لا شيء أبدا ... وصمت هو الآخر فأردفتُ أقول:

- لا أستطيع الابتعاد عنك يا عمر!
- هل تفكرين في الابتعاد عني يا نور؟
- أهلي يرفضون علاقتي بك.
- سيوافقون!
- لا أظنهم!
- هل استسلمت بهذه السرعة يا نور؟

- حاولت كل شيء، ماذا باستطاعتي أن أفعل يا عمر؟

وعاد السكوت يلقي ظله علينا ... ليس لديه جواب ... لا أريد الكلام أكثر ... شعرت باختناق في حلقي، كأن كلماتي ترفض الخروج من حنجرتي، فقلت بصعوبة بعد أن نظرت إليه واقعا في حيرته: "عليك أنت أن تنهي علاقتنا فأنا لا أستطيع" وخانتني دموعي التي حاولت أن أخفيها، وشعرت بيده تلامسني، ثم غاب الشعور عني بعد أن أبعد يده ووقف ليَصُبَّ عليّ كلماته الأخيرة، لم أدرك ماذا قال، لكنّ الأمر كان جليا ... لم يعاند ... لم يحاول ... لم يقاتل ... لم يحارب ... لم يرفض ... لم يرفض لي طلبا، حتى بهذا، توقعت كلماته من لمسة يده وابتعادها، وكانت تلك آخر مرة أجالسه فيها ... ذهب بهذه البساطة ... مثل الحلم ... حتى أني لم أُتبِعهُ نظري عندما استدار ومشى صوب المخرج، أردت أن أُخفي دموعي، فما كان مني إلا أن قمتُ بعده أمسح دموعي بصمت، وأستر وجهي من الحضور بخصلات شعري لأتوارى وأغيب عن العالمين بين أحزاني بغير اتجاه.

مر الفصل التعليمي الأخير بطيئا جدا، ولم تسعفني نجاحاتي من آلام فراقه، ولا نسيت يديه ولا عينيه، ولا رحابته أو تفهمه،

وجدت نفسي وحيدة، لا حبيب يلاطفني، لا أريب يرشدني، لا قريب يضمني، لا رشيد يتفهمني. وحالت الأيام بيننا بعد تخرّجي من الجامعة ... وطويت صفحتي معه ... وشمّعها بختمه القدر وأعلن فراقنا صارما عازما، غير مكترث بحبي، ولا آبه بقلبي ... إليك يا فؤادي السقام ... وعليك يا حبيبي السلام السلام.

يا نور من قال أنَّ الدهر شاغلني

والبُعد إن ضمَّني فالقلب ينساكِ

إنِّي لَصَبٌّ مِنَ الأشواقِ خافقهُ

لا بارك اللهُ في قلبٍ تناساكِ

ظننت أنّك نسيتني وشغلتك الأيّام!

عُمر

أدركت التغير الحاصل بتصرفات نور في تلك الفترة، وجلست أفكر مليا في كيفية التعامل مع هذا التغير المقلق، والباعث في النفس حيرة من معضلة محتملة، وخوفا من فراق وشيك، ولأتجنّب حسام الحيرة وطارق الأفكار، أقنعت نفسي في البداية أنها ولادة جديدة لا بد لها من اضطرابات في السلوك وآلام، وقررت أن أفعل ما يمكن للرجل أن يفعل حين الولادة، سأكون بجانبها بأي قرار تتخذه، سأمسك يدها لتشعر بقربي، وسأبقي لها المساحة الكافية لتتخذ القرار.

طردت جميع وساوسي وأغلب قلقي، وتمسكت بالحب الذي عادني بعد غياب مرهق، وراهنت عليه، كما خلعت الأنانية المنبثقة من دافع الخوف والقلق، هي أيضا حياتها، وأسلم ما يمكن أن يكون هو تشبثها هي بالذي تريد، واختيارها بلا أي تدخل مني أو ضغط. تعلمت أن الأمور التي يغيب فيها صوت العقل، وتصرخ فيها المشاعر من كل صوب، من الأسلم لك أن تتركها تجري بأعِنَّتِهَا، وترفع عنها يدك.

حدثت صديقي خليل بهذا، التقيته بيوم ألقت فيه الشمس أشعة دفئها الجميلة، وصفا لها جو الجامعة يستريح تحت لمساتها بهدوء، على عكس ذهني وخاطري الذي أحاول فيه سد النوافذ والأبواب أمام أفكار تطرقه، وريح قلق صرصر تعصف به من كل ناحية بأعتى الخواطر وأشد الأفكار. أبدى تفهما وتعاطفا، كان ينظر إليّ تارة، وتارة أخرى يجعل عينيه إلى الأعلى معبّرا عن تأثره بما يسمع. شبك يديه وقال بعد تنهيدة ملأت صدره:

- نحن في زمن وبيئة تختلف كل الاختلاف عما كانت ذات مرة، فلا تجد من يوافق على زواج ابنته الفتاة الجامعية برجل متزوج، يكبرها باثنتي عشرة سنة، لذلك فإن فراقكما وعدم نجاح هذه العلاقة وارد بشدة، وسيرافقه بلا شك شعور سيئ.

صمت قليلا ثم أضاف:

- هذا أمر سيتلاشى وقعه مع الزمن، وهو إحساس طبيعي بعد فراقك عزيزا، وما عليك سوى الإنتظار.

- لا يا صديقي، أنا أنتظر منها أن تدرك ما تريد، وأن تشعر بمشقة البُعدِ والفِراق حتى تلازم مراد قلبها ولا تبرحه أبدا. الأمر بيدها!
- أنت تلقي عليها حملا ثقيلا بانتظارك هذا، وهي لن تقوى عليه.
- ستقوى عليه إن كانت تحبني بصدق.
- أظن أنها كذلك، لكني أشك بقدرتها على مجابهة الأمر والوقوف أمام ضغط أهلها وإرادتهم.

لم يقنعني كلامه، أعتقد أنه لا يرى تضحيتي في وقوفي هذا، ولا يرى معاناتي من بعدها وغيابها عني، ليس الصمت بالأمر السهل، وكذلك هو الإنتظار على مضض، كان ولا زال أعتى عدو للراحة والطمأنينة وسواس الفكرة، ليس هينا طرد هذه الوساوس والأفكار عن شخص لا يسلو عنه كمد الفؤاد، لا بل دأب يذكره بحاله مع كل نبضة.

*****

لم تلحظ أحلام فقط تغيرا بي، بل لاحظتُ نفسي كذلك، فأدركتُ أني لم أعد مني بشيء ... وحين أصبحتُ وأدركتُ مُلازَمَة

نفسي، بدت هواجسي وجوارحي تجول بيني وبينه، وكأنَّ الآن حصل ... لكن أحلام لم تبد اهتمامًا، أو هكذا أرادتني أن أظن. ونور التي اعتدتُ أنا وهي جسدان بقلب واحد أن نتلاقى، أصبحنا اليوم ثلاثة ... أنا ونفسي وعُمر ... نتلازم الواحد مع الآخر ولا نُدرك ماذا نُريد، ولا نلتقي وبيننا شأن سعيد، أو لقاء بهيج، وما انفك الاستقرار عنا يبتعد ويحيد، وأمسى منزل الأمل محض سراب وخيال، وشأو الوصول إليه غاية في حكم المُحال ... آهٍ كم تكون القسمةُ عادلة بين اثنين فقط ... ولكن موازين القوى تنقلب إذا أصبح الوارثون ثلاثة ... وأهملَ كل شيء تقريبا بما فيهم أسرته، فأصبح شارد البال جل الوقت ... لقد استنزفتني الحيرة نهارا وقاتلني الشوق ليلا، فأفقداني طعم كل شيء، واستمرت الأطعمة الجميلة تتساقط من لساني كما تتساقط الأوراق عن الشجر إبّان الخريف، فلا أشعر إلا بأغصانه العارية يحيطها الهواء المُغبرّ... لا يجد سبيلا لمنفس فراحة جزئية سوى بالكتابة ... وماذا أكتب ... اعتقدَ في البداية أن ليس هناك ما نكتبه في هذه النفسية وهذه الأجواء الخريفية الكئيبة، وما بدأتُ الكتابة حتى تفطّنتُ إلى أنّ الكتابة ما هي إلا ترجمة مشاعر

اختلجت الصدر، وكم كانت مشاعرهُ هذه جسيمة وكثيفة، فتفجّرت منها الكلمات وانسابت من لُبِّها قصائده. كتبَ لها الرسائل، ولكني لم أجد سبيلا لإرسالها ... أو أنه لم يشأ ... فقد قررتُ أن أعطيها المساحة الكافية لتختار، وآثر هو الاحتفاظ برسائلنا. كما أنه لم يجد صديقا ليحدّثه بأنين آلامنا سوى ابنتي فاطمة، ابنة الثلاث سنوات.

وجدت لاحقا أن خروجي من البيت أمر فيه حرية من بعض القيود، وبدلا من محاولاتي البائسة اليائسة لإخفاء مشاعري عن أحلام، عدت أرتاد شاطئ البحر فأناجيه ... هناك حيث تقبع الشجرة الوحيدة ... لكني حينها أدركتُ أنني أنا الوحيد، فحسدتها البحر رفيقها الدائم، يلازمها ليل نهار ويغازلها بلمسات أمواجه بكل لطف ورقة، فتخجل وتبدأ أوراقها تنحل تترى، لأرى تضامنها الصامت معي، ويختلط أمسي بيومي وما أشبه اليوم بالأمس.

كذلك أخذت أرتاد الجامعة، وأجلس في الكفتيريا بمحاذاة طاولتنا المعهودة، كانت الجامعة شبه خالية، إذ أن العطلة لم تنته بعد. ومثلما كان كرسيها الخالي بالكفتيريا حزينا في صمت

الجامعة المدقع، كان هو منظر الشاطىء كذلك ... وفي لحظة ربَتَتْ على كتفي تفض بعض أحزاني وهَمَسَتْ بأذني لستَ وحدك، فسألتها إن كانت تتذكر لحظتي، وكيف لا، وهي تتذكر أقدم قصص الحب، وغابر حكايات العشق، وسالف أخبار العشاق، وكيف دار منهم حولها، وسطّر غيرهم ملاحمهم على مرأى منها، وآخرون حدّثها البحر عنهم، لكنها لم تحنِ لسواي غصنًا ليُجلس قلبه عليه ... ثم عادت تنظر لآخر البحر كامرأة تنتظر عودة زوجها الذي أبحر وراء الشمس قبل سنين، دُونما إدراك لعدد السنين التي مرت عليها. نور الفتاة الصغيرة ابنة العشرين، قلبت حياتي وحركت مشاعري بجمال روحها، وما هي إلا لحظات حتى عدتُ جسدا بغير روح، تمرُّ عليه الأيام بخطوات ثقيلة غير آبهة به. كم تخيلت العالم خاليا إلا من نور، كم تمنيت لو أني لا أعرف سواها، وكم كان جميلا كل شيء هي فيه. إن الأماكن تفقد جل جمالها إذا زارها وحده، حتى تلك الخلابة منها تصبح قبيحة إذا عادها منفردا بعدما اعتاد زيارتها مع من يحب، وكما تعوّد بعدها، جلس باكرا على كرسي يتوسط البحر الأخضر من الجهة الشمالية للجامعة، يتمعّنُ عروس البحر وخليجها،

أشعل سيجارته لتمتزج رائحة التبغ مع عبق الصباح، وعطره الفوّاح، لكنَّ أكثر ما يشد حواسي فيه من كل مرة هي رائحة الشوق، رائحة الحب، له قلبُ مُحبٍّ وروح عاشق، ينتظر الخلاص بلحظة قدومها، لا يثنيه الزمن، ولا تحطُّ من عزيمته المسافات، دأب يرفع رأسه موازيا للسماء الزرقاء، ويقول بصوته الأجَشِّ ما يقول كل صباح: إلى العينين نبض الفؤاد، إلى الشفتين أزهار القُبَل، إلى حضرة الجمال خميرة الروح، إلى هاتيك الفتاة أينما كانت ... سلام المحب ... سلام المُشتاق ... لكن هيهات هيهات، لم يصل السلام، ولم تتواضع بينهما المسافات إلا لتتمدد بعدها أبدا. ماذا حصل ... غابت فجأة ... تأسفتُ لها بقلبي على أن جعلتها تحمل كل هذا ... أرهقتها الحيرة ... كيف لك أن تطلب من فتاة رقيقة أن تصبح مقاتلا جسورا في ظرف أيام ... لا أعتقد أن هناك طريقا أفضل من هذا ... سأتخلى عن كل شيء لأجل نور، وسأحارب العالم لو اضطررت ... لكن عليها هي أيضا مساندتي بوجودها ... أو الصمت بحزم على ما تريد، فلا تبرح المُراد ولا يساورها الشك أن مصيرنا في غيره!

مرت الأيام كنزع الروح، وتوقفت عند بداية السنة الجديدة وتجمدت، فكان أصعبها أول يومين من افتتاح الجامعة بعد العطلة، إذ أن نور لم تتصل بي، بل آثرت على ما يبدو إبقائي في حيرتي، وفي جُبِّ المُعاناة وهوّة الألم. لم يسعفني حبي للتدريس من التخلص لو للحظات من شعور الأسى هذا ... لا رغبة لي بلقاء طلاب جدد ... لا طاقة لي على الابتسام لمن أحببت دوما ... هذا تغير شاسع ... إني أرى الفرق في نبضات قلبي ... قُبيل دخولي قاعة المحاضرات في السابق، وفي طريقي إلى إلقاء محاضرتي كانت المسافة تتناسب مع ابتسامتي عكسيا ... لكن الآن لا شعور شبيه بذلك ... لا أدري بماذا أشعر ... لا قلب ليخبرني ... بدأت الألوان حولي تتلاشى ليطغى عليها الأسود، وقبل أن يعود العالم بلونين فقط ... اتصلت نور!

كل شيء تبدل حينها، كأنّ حزنا لم يكن، اعتلتني فرحة من كاد يقتله العطش بالماء. تقابلنا نجر وراءنا أثقال الغياب، وأوزار النوى. كان اللقاء حميما ودافئا في بدايته، فظننت أنها لن تكرر ما فعلت، وأنها اتخذت قرارها في المضي بعلاقتنا ... لقد عادت ... لن يكون بعد عودتها هذه فراق ... ربما نور الصغيرة أقوى مما

ظننت ... قد بددت الحيرة ... لكنه لم يكن ... خاب ظني ... بعد معاناتها التي أبكتها بأحضاني من أثر البعاد، طلبت مني أن أنهي العلاقة بدعوى أنها لا تستطيع، وكان طلبها كمن يريد منك إنهاءه برصاصة الرحمة حتى لا تطول معاناته ... القتل الرحيم ... هل يجوز هذا ... ألا سبيل للشفاء؟

تكالب الصمت علينا وقتها، وزادت دُموعها، وفهمتُ أن أهلها يرفضون الفكرة من أساسها، وأن أمرهم فوق كل أمر، فوجدتُ نفسي في دائرة لا خروج منها، فقد أصررتُ سابقا على أننا سنتزوج بموافقة أهلها حتى يبارك الله لنا في زواجنا، كما أن نور لم تتربَّ إلا على طاعتهم لما أعطوها من حب، وأيّ فتاة ستكون إن لم تكن كذلك. لست أنا بالرجل الذي أحضها على معصيتهم، ولا أريد لها المعاناة. ترجلتُ حينها عن مشاعري، وطلبتُ منها أن تنساني، بكلمات خلت من روح ونبض، كلمات أشبه بالأموات في صمت القبور، أو نئيم بوم في ليل دامس أدهم. نهضتُ بعدها أسير مبتعدا دون حتى أن أودعها، تخيلتها تناديني بلحظة، ولم يكن، لم أسمع صوتها سوى في مخيلتي، ولا رأيت

صورتها بذهني إلا مدبرة يخفيها منحنى الفراق، ولم ألتفت إلى الوراء، ومضيت إلى لا مكان مبتعدا.

ذهبت بغير إرادة إلى مكتبي، وجلست وحدي أغرق في أفكاري ... ماذا حصل مع أهلها ... ماذا أخبرتهم ... من أهلها؟ أهي أختها؟ أتعلم أمها؟ وأبوها، ماذا قال؟ ... عليها الوقوف على اختيارها ... لماذا لا تريدني أن آتي لزيارتهم والتحدث مع أهلها ... ماذا تخشى ... وجدت نفسي قد نهضت أركض إليها عائدا والإرتباك يعلوني، حان الوقت لتدخُّلي، هي اختياري أيضا ... سأطلب منها وأحثّها على أن أحدثهم، لا ضير في هذا بل لا بد منه.

ركضتُ نحو المكان الذي فيه تركتها، وعدت حيث كنّا نجلس، لكني لم أجدها، فوقفت صامتا أنظر المكان خاليا، كالذي يقف حدادا على خِلوّ الدار من أهلها وسكانها، وهل أستطيع أن أشتري أهلا غيرها يملأُ الفراغ الذي حل؟ لا أعتقد أن كلامي مع ذويها سيغير في الأمر، لو كانت حقا ترى أملا لطلبت مني ذلك ... ها قد غادرتْ المكان بسرعة كأنها تقبلتْ الأمر وأعدّتْ إليه مسبقا ... سقطتْ مني الرغبة في التحدث لأهلها، وتوقف عقلي عن التفكير

في حَلٍّ كأنه تقبَّل فكرة النهاية، نظرت نظرة أخيرة إلى مكاننا الأثير، وأسدلت ستار النهاية عليه، ثم فتحتُ أبوابي لجيوش التوق في لحظتها تغزو فؤادي، وتمنيت لقلبي الوئام ولنور السلام!

إن تحمل عقوبة بقتل الحب، ولوم النفس أحيانا، فيه لذة يستنشقها العاشقُ، ليُعيد ولو للحظة ذكرى وصال. أرادتْ أن أقتله بيدي، وكذلك فعل. كُنت لأحمل ذاك الحُزن وأي ألم بأسناني راحلا كمن يحطُّ قلبه برحْلِهِ ... حتى ذلك الألم في أسباب الغياب، ما كنت لأتوانى عنها لحمل أوزارها. في تلك اللحظة مررتُ بحياة أحداثها متسارعة وصلبة، يقبع فيها غياب النور خلف غيابها ومعاناتي الدائمة ... لم أعرف حينها ماذا يمكنني أن أصنع، لقد تخلتْ من أول مواجهة، أبهذه البساطة يا نور؟ أين هو الحب الصادق؟ أين هي العزيمة؟ أنت حتى لم توافقي على أن أحدّث أهلك، ولم تفصحي لي حقيقة موقفهم ... لا يا عمر ... لا شأن لنور بهذا كله ... خرج الأمر من يدها وفاق عزيمتها ... تلطف بها يا صاح ... آه من هذا الصراع، إذ لم يوافق القلب صاحبه، ولم يستقر العقل على قرار، وملأت الحيرة

الأرجاء حتى غطت السماء، فَتُقتُ منفسا وَرُمتُ فسحة، لكن لا دواء لمن أعياه الشوق، ولا طبيب لمن فارقه الحبيب ... هي الآه فقط ... آه تتردّد في أحشائي ولا مجيب ... لا آس لمن نآه الحميم القريب ... فلا من يخلفه ولا الخاطر عنه ينيب ... وعصفت بنفسي أفكاري مثلما عصفت قبلها مشاعري، وبين كمدي وحزني لاح ضوء أنيس ... تذكّرت صديقي خليل، فهاتفتُه.

زَهْرُ الشَّوْقِ

عُدتُ الهوى عندما ضاقت بيَ السُّبلُ

ذكرى فتاةٍ بشطِّ الحُبِّ تَرتَجِلُ

أهدَيتُ من فرط شوقي قُبلَةً كَلِفًا

شطًّا عليه استوى من قُبلتِي الخَجَلُ

ماذا عَسَانِي بِنار البُعدِ عن دَعَتِي

إنّي لِحُبِّي وشوقي بالهوى ثَمِلُ

قد أخجَلَتْ قُبلَتِي شطَّ الغَرَامِ كَمَا

ما قَبَّلَ الشَّطَّ قَبلِي بالهوى رَجُلُ

عدت أرتاد شاطىء البحر فأناجيه ...

خليل

جلست وعُمر يوم انفصل عن نور بالكفتيريا، يومها لم يخبرني أنهما انفصلا وإنما بدا طبيعيا، لكني أدركت أنه انفصل عنها لاحقا. ولما سألته إن كان يظن أنها ستعود أجاب بالإيجاب، وعبّر عن خشيته من أن تعود بعد فوات الأوان. عرضت عليه أن يبادر فهو أبٌ لمثل هذه المواقف، لكنه على غير عادتِه رفض معللا رفضه بقوله:

- لازم تعرف إيش بدها لحالها، إيش يعني إذا أهلها قالوا لأ في البداية؟ إنتهى الموضوع؟ لو كان عندها نيّة وحبها كان قويا كما تدعي، كانت ما رضخت من أول جولة، أم كانت تظن أن أهلها سيوافقوا بهذه البساطة؟ أعتقد أنها استساغت رفض أهلها ففيه خلاصها من حيرتها، وراحتها من خوفها وقلقها!

وحين سألته إن تبدلت مشاعره تجاهها أو إذا كان يشعر بالغضب لما ظن بها أجاب:

- لا بل بالعكس! أنا أحبها، أعتقد أنها أهدتني أجمل لحظات حياتي، وليس ذنبها أنها صغيرة ورقيقة، لا خبرة لها في الحياة ولا طاقة لها لمجابهة ومقاومة حِمل كهذا، لكني لا أخفي خيبة أملي منها!

أنا أكيد بأنه سينساها يوما، وأن الزمن كفيل بإسعافه من حزنه وخيبة أمله، وما بدا عليه من حزن هو لحداثة فراقه ليس إلا، ولما واسيته وقلت له لا تحزن، لديك من أسباب السعادة ما يكفيك، قال: على المرء أن يعطي الفراق حقه، عليه أن يحزن إذا استدعاه الأمر للحزن.

تناقشت كثيرا وعمر حول هذه المسألة، ولم نخلص أبدا إلى اتفاق، كان مؤيدا لرأيه بأن على المرء أن يفعل المستحيل لأجل حبيبه، وألا يفترق عنه لأي شيء كان، بل كان يدعي بأن هذا جُبن، وأن الحياة وإن طالت بنعيمها بغير حب ينبض به القلب هي أشبه بإنسان جميل ميت.

عن نفسي لا أظن ذلك، بل أعتقد أن الحب ما هو إلا شعلة تضيء وتنطفئ، كما لم أوافقه على أن موقف نور كان جُبنا، إذ

لا أرى منطقا بما أراد منها، بأن تقف في تلك المعركة الصعبة أمام أهلها الذين رعوها وأحبوها لسنين لصالح رجل أحبته لسنة أو اثنتين. لكن هذا لم يمنع إثارة تساؤل بنفسي عن طبيعة حبهما، وهل هذا النوع من الحب أقوى أنواع الحب بين البشر، أهو أقوى من حب الأم لفلذة كبدها، أو حب الأشقاء وحب الابن لأمه ... كم سمعنا عن فتاة تحدَّتْ أهلها وتزوجت ممن أرادت، أو رفضت من أرادوا ... وكم حالات مشابهة لم نسمع بها ... على الأغلب هي حالات شاذة، ومن منا لم يشعر بالاستياء لمثل هذه القصص!

كلي يقين بأن الإنسان لا تكتمل حياته إذا خلت بتاتا من حب مشابه كهذا، إنما بحكم تجاربي أدركت أن المرء يستطيع أن يعيش حياة سعيدة لفترات طويلة بغير هذا النوع من الحب. أحببت مرات، وفي كل مرة في خضم العلاقة كنت أشعر بأن هذا هو الحب الذي أنتظرته، وما أن تخبو شعلة هذا الحب لسبب أو لآخر، حتى أفقد هذا الشعور وأنساه، إلى أن يعود بعودة خفقان قلبي لفتاة أخرى.

هذا ما لم اتفق عليه وعمر، فتركت الأيام لتثبت له ذلك عندما أصر على أنه سيحبها للأبد، وأنه يشك بأنّ قلبه سينساها، ورأيت تفكيره هذا مرحليا سينتهي عما قريب، وينسى حبه، فكل ما يُولد يموت لا محالة، ومن جملة هذا الحب.

على العموم، هناك أمور لتثبت صحة رأيك فيها لغيرك، عليك أخذه برحلة عبر الزمن، فليس مثل الواقع برهان، وهذا ما لا يستطيعه بشر، لذلك وقفتُ على رأيي أمام عمر غير مصر على أن يوافقني إياه، وحريص على ألا أجرح مشاعره، وأكثر من هذا، أردت مساندته في وقته العصيب هذا، فلزمت قربه ودأبت على لقائه، تاركا للزمن والأيام أن تنسيه وتشفي كِلامه، وتطمس أثر الفراق.

نُور

لم يكن من السهل أبدا أن أفارق قلبي، عانيت طويلا وبكيت لياليَ وأياما بعد انفصالنا، واعتزلت الجميع تقريبا مدعية انشغالي بدروسي وتعليمي، على معرفتي بأن أهلي يعزون هذا الاعتزال لما قابلته منهم، وأنهم ينتظرون يد الزمن لتمسح غيبوبتي فأصحو... لم آبه ... لست بغيبوبه ... لن أخشى العقاب ... فأنا ميتة بدونه ... هو روحي وما أنا بدونه سوى جسد في فِنَاء الفَنَاء ... معتادة عليه، فليس عليك الموت أكثر من مرة لتعتاده ... أنا أحبه، ولا أظن قلبي سينساه بهذه البساطة التي يظنون، لقد كان رائعا متفهما واسعا، وأعطاني كل تقديري وبالغ الاهتمام ... ليت أهلي ... ليت أبي ... كنت أراه بين النجوم، وفي البحر وجدران الجامعة، وكتبي وزجاج الحافلة وحتى فنجان القهوة، لكن ما حيلتي، لا يمكن أن نكون معا ... أما يرغب بنا القدر؟ ... وما شأن القدر... بلى، يرغب بنا متفرقين بعيدين عن بعضنا، خارج بيت الحلم، تحت صقيع الألم، في صفوف الظاعنين، أليس هو قدرنا أن نكون ولا نكون ... أن نحيا ولا نحيا ... أن نريد ونتمنى ولا نحقق غاية أو ندرك مبلغا ... كم نحن

تعساء ... لا ... ليس بُعد من تحب عنك بتعاسة ... بل هو أمها وأبوها!!

جلست على حافة سريري في غرفتي، كل شيء ساكن حزين، حتى صور الأولاد من نافذة الغرفة المقابلة لسريري وهم يلعبون كانت ساكنة ... لا رغبة لي بأن أرى أحدا ... غاب الجميع ... لا شيء يتحرك ... كلٌّ أخذ هيئة واحدة، في قالبها الجمود، وفي قلبها الفراغ ... حتى أقلامي التي فزعت إليها سكنت ... إلا جانبا واحدا كان يتحرك بشدة، ويتفاقم مع كل لحظة تمضي ... شوقي له ... شوقي يتقد ... والبُعد بيننا يتمدّد ... وعيني على منوالها تغرف الدمع من شقائي، وتنثره على خدي، بلا هوادة ولا كلل ولا ملل ... تمنيت لو أغمض عيني لتسبح روحي بمكان غير الذي أنا فيه، لترتقي فوق الغيم الأبيض وتحت زرقة السماء، حيث لا ألم ولا أحزان، أردت الهروب بأحلامي وأوهامي، لكن طيفه كان يلاقيني في كل ناحية من كل حلم، كأنه سكن فكري وبالي، أو كأني أنا التي تبحث عنه ليحدّثها ويؤنسها في وحدتها، كان هروبي هذا منه وإليه يشقيني ويسعدني ... أيها الحب أيها الشوق، يا نبض الفؤاد ويا صفيّ الروح ... رَضِيتُ مِنكُم حَدِيثَ الطَّيفِ بَعدَكُمُ ... في

صَبرِ عَاني الهوى بالطَّيفِ آمالُ ... وَإن تَرَامَت مَسَافَاتٌ تضُمُّكُمُ ... بِالبَالِ أيَّامُكُم لا بَل هِيَ البالُ ... يا لشقائي وبأس توقي وبؤسي ... هلّا أخبرته يا شوق!

يا شوق ناءٍ تَحَمَّل من لظى باسي
قد غاب حِبّي وغابَ العينَ جُلَّاسِي
ما بالوداعِ وما بالهجر من ظُلَمٍ
لو كان يُجدِي بليلِ الهجرِ نِبراسي
لكنَّ حِبّي إذا ما قام مرتحلًا
غابت لوَجدِي وجوهُ الخلقِ والنَّاسِ
قل للحبيبِ بُعَيدَ الهجر ما سَكَنَت
عيني ولا لان بالأشواقِ وَسوَاسِي
إنّي لشوقي بقلبٍ أجَّ موقدُهُ
عاقرتُ نار الهوى من حكمك القاسي
تأبى دموع الجوى هجران محبرتي
والوجد قد شاب أقلامي وقرطاسي
هَلَّا بِوَصلٍ يشوق القلبُ موردَهُ
أفديك للوصل وجداني وأنفاسي

بعد أن قررت الانفصال، رأيت أن تخرجي القريب من الجامعة قد يساعدني على تجاوز أزمتي وإن جزئيا، لذلك أخذت بما علمني إياه عمر، وهو الهروب إلى التزاماتي من حزني وهمي، حينها انشغلت بدراستي وكتبي أكثر من المعتاد، وأبليت بهذا الهروب من تلك السنة بلاء حسنا بتعليمي، ومع هذا، فلم يكن هروبي منه بالأمر الهين والسهل، فقد رأيت عمر بين الأعداد والأرقام، والمعادلات وفي كل صفحة من كل كتاب ... انظُر صغيرتك تمشي على دربك وتتسلق نحو القمة منجزة ما ترتب عليها يا عمر ... ورغم إنجازاتي وإنهائي اللقب الأول الذي لم يشفع لي بشيء أمام أبي، ولم أحظ منه بغير الصمت والتجاهل في تلك السنة، إلا أنها كانت أصعب سنوات عمري، لم تكن فرحة إنهائي التعليم كما تخيلت، تخيلتني أقفز وشهادتي بيدي، فرحة كوردة حمراء، سطعت في بستان العلم البديع، لقد كانت فعلا وردة جميلة لكن لا روح فيها، كانت لتكون سنة جميلة لولا خسارة قلبي ... لماذا يعتني أهلنا بتعليمنا ... ما هو التعليم إن لم يغيّر بنا ... أهو من جملة ما نرتديه أمام غيرنا ليحسنوا عنا الكلام، أو لنعطيهم نظرات تخبرهم من نحن ... آه لنحن!

لا أظنني سأنسى هذه اللحظات من عمري، ولا أظنني أنسى اللحظات التي فيها كنت ألحظه بأروقة الجامعة بعد فراقه، كانت تلك هي الأصعب، فكلما رأيته كان قلبي يقفز من مكانه بغير سابق إنذار، لأشعر بعدها برغبة في البكاء متوارية بغير اتجاه، أتساءل لم عليّ الهروب من أكثر إنسان أحببته وأحبني، لماذا أُجاهد نفسي على قتل حبي، لكن صوت العقل يطغى ... أي عقل ... كان لا بد من الأمر، ولو عرف عمر بموقف أهلي من علاقتنا حق معرفة وما قالوه لي، كان لا شكّ سيعذرني، لكن هل يا تُرى سأعذر أنا نفسي ... أو ما تبقى منها؟ ... وما أنا إن دارت بخلد حبيبي الظنون ورأى بي ما ليس بي ... أعذرني يا حِبّي ... أعذرني يا روح الروح!

مع مرور الأيام بدأت أشعر بصدق ما كان يقوله، أصبحت حياتي شبه خالية من ابتسامة، وكأن لا نبض فيها، تعرت كشجرة تين بأوج الخريف، تداعب قشرة أغصانها رياح جافة، تاركة أخاديد الوجد وخطوطا أشبه بخطوط الدهر على الوجنات، شعرت بذلك كثيرًا في اليوم الذي استلمت فيه شهادتي الجامعية بعد حفل مهيب حضرته عائلتي، سطا عليه اللون الرمادي، وآلمني

فيه الأحمر على رايات تحمل شعار الجامعة ... وحدثتني الألوان عاتبة على عمر ... حضر الحفل المئات من الطلاب وذويهم، وتتطايرت بينهم البسمات وفرحة مرور الطريق. أخذتُ مكاني في الصفوف الأمامية المخصصة للخريجين، بين مدرجين تكدسا بشرا، ينظرون أبناءهم بنشوة المنتصر، وجال بصري المدرجَين أبحث عن لون عمر بين الحضور، وأستدل بقلبي عليه، قلبي الذي فقد دليله، وعصفت فيه المشاعر مغرّرة إيّاي أن أجده ... ولم يكن ... وربما كان ... فهو الذي ما غاب عني لحظة، وما فارقني خياله، ولا سلاني طيفه، أو سها عني شوقه، ولا كان ليسهو.

في ذلك اليوم عندما اتجهت وأهلي نسير قاصدين مركبتنا بعد انتهاء الحفل واستلامي الشهادة ... أردت بصميم قلبي أن تطول مسافة سيرنا، شعرت بأنه اليوم الأخير الذي فيه من الممكن أن أراه ... رغم أني كنت أتألم عندما تلتقيه عيناي ... تذكرت يوم لمحته في أحد أروقة الجامعة قادما باتجاهي، تأرّجَ أناقة دون الحضور يتبعه عبق الماضي، وجمال أيام الوصال كطفل لا يقوى على فراق أمه، أتى عارضا شريط حبنا، بحلو شهده وأزهار

القُبل. علّقتُ نظري عليه يدنو مني بحضرةٍ بذّت جميع من حولنا، كأنها سيل أو إعصار، أو طوفان قادم صوبي، يحمل حقيبته الجلدية ... لم يغيرها ... لا زالت رائحتها بأنفاسي، كأنني مطوية فيها ... اشتقت لرائحتك يا عمر ... وتأهبتُ للسيل يجرفني، وللإعصار يحملني، وللطوفان يغرقني بعد أن سقطت كلماتي وتهاوت من حنجرتي في جب الصمت ... ورُبط لساني وأحالني طفلة لا تجيد الكلام بهيبته ... لكن لا عليكِ يا نور ... بالتأكيد لديه الكثير ليخبرني ... وما هي إلا لحظات حتى طويت المسافة بيننا، وصار بُعد متر أو أقل ... بدأتُ أشعر بتيار هالته يجري بأحشائي ... لكنه ... مر ولم يرني ... ومر بمروره الألق وعادت الدنيا مقفهرّة ... وضاق الفضاء ... واسود الضياء ... كان يوما لن أنساه ... استمر بي وأهلي السير ونحن نطوي المسافة بيننا وبين المركبة في موقف السيارات الفسيح بين الحرم الجامعي ومساكن الطلبة من الجهة الشرقية، وتقلّبت ذكرياتي بكل مكان نمرُّ فيه، ونأتي عليه فيأتي عليّ، أنظر خطواته على الثرى الناعم في جانب الطريق، وعلى العشب الأخضر يضمنا لعالم العشاق وقصور الأحلام ذوات الشرفات الوردية ... تهاوت

الأحلام ... وتبخر المنى فور وصولنا السيارة لنغادر الجامعة التي أبقيت فيها قلبي، ليستقل جسدي السيارة وأهلي قافلين بالرجوع إلى بيتنا. ورغم أنه إنجاز مفرح إنهاؤك اللقب الأول بامتياز، شعرت بداخلي الحزن الشديد يُثقل جَبِيني. رمقتُ الجامعة نظرات أخيرة بعد أن بدأنا السير، وقبل أن تغيب عن ناظري مبانيها القديمة التي ضمّت لقاءاتي بعمر، وشهدت سعادتي بين يديه، ورعتنا حينا بأحضانها، وأهدتنا أجمل المناظر وأروع اللحظات والأوقات، راجعت شريط ذكرياتي معه، وتذكّرت ابتساماته ونظراته ... رويدا رويدا غابت المباني وبقي المبنى العالي ينظر إليّ مودعا ومنظره يتعهد لي بأنه سيحفظ لقاءنا إلى الأبد ... وغابت الجامعة متوارية خلفنا يصحبها أجمل فصل في حياة فتاة أحبتك يا عمر... هناك، وفي لحظة غيابها ودّعت قلبي الذي تركته فيها أردّد بأعماق نفسي بألم وحزن: إلى قلبي، سلام ووردة ... سلام ووردة!

هَرَعتُ إِلِى الأقلامِ من وَقعِ شَوقِهِ
فَما خَطَّتِ الأقلَامُ حَرفًا مِنَ الألَمْ

وَما كُنتُ بالأشواقِ إلّا قَصيدَةً
ولكنَّ أقسَى الشَّوقِ مَا حَيَّرَ القَلَمْ

حتّى أقلامي التي فزعت إليها سَكَنَت ...

في مساء ذلك اليوم، فور وصولنا إلى البيت صعدت إلى غرفتي وأهديت الجدران الكئيبة دموعا صامتة. أدركت حينها أن فقدان الحب هو فقدان طعم الحياة، لكني عَوَّلتُ على الأيام والزمن ليساعداني بالرجوع إلى حياتي مجدّدا، وكذلك عوَّلَتُ أمي تضبط غضب أبي في طريق عودتنا بنظرات حائرة، أرادها أبي ليصمت في ظل حزني الملحوظ وشهادتي بيدي ... لا يحتاج حزني إلى شرح، ولا إلى تفسير أو بحث ... كان سببه واضحا ملتصقا بصخرة رفضهم، خالية المعنى بمقدار صلابتها وخشونتها ... ما معنى أن يكون متزوجا ... ليس هذا بداعٍ ... لكنه تخلى عني ... لماذا أنت صامت ... أين أنت بقوتك وحنكتك لتمسح عني أحزاني كما عودتني ... أين حبك ليبدّد دجى القهر وقتامه، وينصر حبيبتك المستضعفة كما عوّدتها ... أين أنت ... تعال أقنعهم كما أقنعتني ... تعال اسحرهم كما سحرتني ... هل عليّ إخبارك بما أنت خبير بفعله ... أما عَلِمتَني ...أين فروسيتك لتترك حبيبتك وسط الأحزان مكلومة الروح كسيرة الجناح!

زهر الشوق

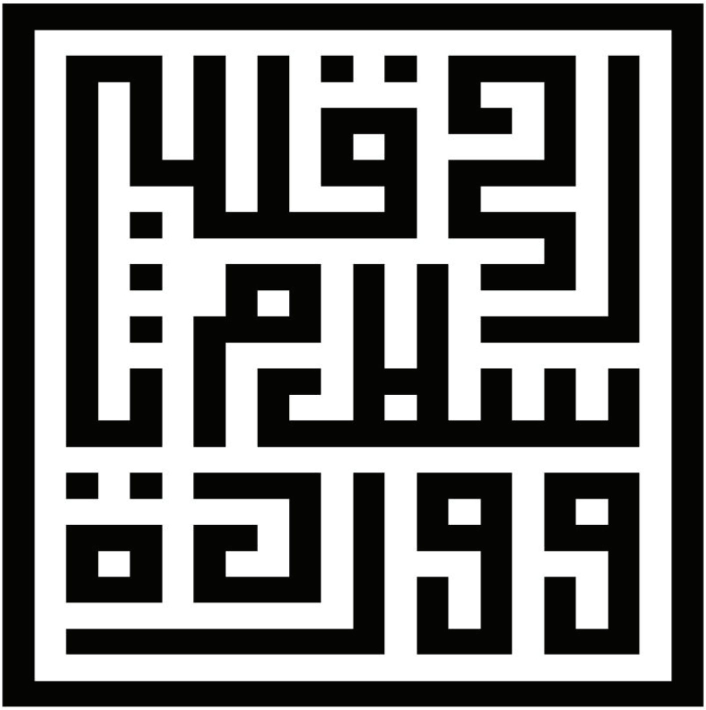

إلى قلبي سلام ووردة

عُمر

رغم أني مررت بإخفاقات عديدة وخيبات أمل سابقا، إلا أن وقع انفصالي عن نور كان الأكثر ألما والأشد وقعا، والأثقل وطأة عليّ، شعرت أن قلبي نُزع من مكانه كنزع الروح من البدن. أحببت نور وعرفت معها معنى الحب والأشواق، وطعمتُ الحياة من وجودها معي وبجنبي. انتظرتُ عودتها بأي لحظة في البداية، بالوقت الذي لازمني قلقي بأن تعود بعد خيبة أمل صدمتها، أو تجربة مريرة خاضتها باختيار نابع من ألم الفراق. ثم بدأ أملي يغيب ويتلاشى بعودتها بعد أن أنهت تعليمها، وتخرّجت من الجامعة، كان يوم تخرّجها الفارق والفاصل، لن أنسى ما حييتُ شعوري في ذلك اليوم. واسيت نفسي بأني جلد على الأحزان، وأن الأمر لا يمكن أن يكون أسوأ من سابق عهده قبلها، فهربتُ إلى كتبي ودفاتري بين قراءة وكتابة، بين رسائل لنور وأخرى لفاطمة، ومثل نبتة صغيرة على سفح جبل، لم تُخَيَّر مكانها ولا اختارت شكلها، أراها وردة، وآخرون لربما، لكن غيرهم قد لا ينتبهون لها، فَيَمُرُّون فوقها بأقدام ثقيلة، غير آبهين، هكذا مضت أيامي التي نزفتها مضطرا مرغمًا، متعبا مرتاحًا مرهفا حزينا، لأُخرِجَ بها ما اختلج

بصدري من أشواق وحنين، وأحزان وأشجان، وأحفظها كذلك، بِحُلوِهَا وَمُرِّهَا، ليستمر شعوري بأني حي.

علاقتي بأحلام لم يتبدل شيء فيها، إلا أنها شعرت بحزني ولم تعرف لماذا، بعدها دارت الأيام واختفت هالة السعادة التي بالأساس سببها حبي لنور. جلستُ طويلا في أماكننا المعهودة بالجامعة، ولم أجرُؤْ على الجلوس إلى طاولتنا المعهودة بالكفتيريا، بل اخترت الجلوس إلى طاولة بمحاذاتها، أنظر إلينا كيف كنا وإلى أين اليوم أُلْتُ. تبدلت حياتي بعد نور تدريجيا، وبدأتُ أحب العزلة والكتابة أكثر، ومرّت بعدها السنون، واحتفظتُ لها بحبي كما بالرسائل، وعدتُ إلى حياتي السابقة قليلة الألوان، أنتظر انقضاء الأيام عل مضض، وأعطي من بقاياي لفاطمة التي أبقت على ما تبقى مني وعلى نفسي الوحيدة في هذه الحياة البائسة. لم أتخيل أن أصعب أمر سأواجهه في حياتي هو فقدان التي عرفت منها معنى الحب، وكيف لا يكون ولا أظن أصعب على قلب محب أن تسلبه أسباب حبه ليختنق بما فيه من عطاء ومحبة. وكم مرة مررتُ بذات الأماكن بعد غياب نور، لألقاها تختلف تماما عما كانت عليه ونحن معا،

هناك حيث جلسنا ساعات وتبادلنا البسمات، عدت إلى هناك مرارا، نظرت إلى مقعدنا ... فارغا ... تفَحَّصتُ المكان ... خاليا كئيبا، ومختلفا قليلا، لقد نَمَت الشجرة الصغيرة وتشابكت أغصانها، ورغم رقّة جذعها وحداثة عمرها، أخذتها أغصانُها المتشابكة باتجاه مقعدنا، تحاول بائسة في كلّ مرة لَمسَ الفراغ.

كان حبي لنور هو القلب لما أصنع، وهو المعنى لكل شيء مررت به وكل حدث صادفته، وكانت نور هي النبض له والروح. لا أظنني يوما سأنساها، وكيف لي وقلبي يردّد حبّها مع كل نبضة وعيني تراها في كل مكان ... وما أنت صانع، ضاقت بك الحيل ... علَّ القلم يخفف من وقع الرحيل، كتبتُ لها أشكو أمري، كتب لها في الرسائل التي لم أرسلها ولم تصل إليها، ولا أظنها ستصل يوما، كتبت لأكتب، ناجيت الليل وحدثت القمر، وقلبي ... قلبي الحزين ... قم إليها ... هي هناك بين دفاتر الذكرى، أنظر ابتسامتها، لا عليك إن ذرفت الدموع، فشوقك هذا مدعاة المآقي، وكيف لها وحبّك يذكيه ... هل أتعبتك الأشواق يا خافقي ... مهلا أيّهذا الشوق!

لُطفًا بِنَا مَا أدرتَ الكَأسَ يَا سَاقِي

وَالذِّكرُ نُورٌ وَيَأبَى الوَجدُ إعتَاقِي

وَيحُ الليالِي نَأت حِبًّا على عَجَلٍ

دَعوَى عَذُولٍ عَلَى مَن حَازَ خَفَّاقِي

خُلِّفتُ بِالشَّوقِ أشكُو لَوعَتِي وَلَهًا

شَكوَى عَلِيلٍ وتَوَّاقٍ وَمُشتَاقِ

تَجرِي عَلَى حَالِهَا نُورٌ تُلَوِّعُنِي

ضَنَّت بِبُعدٍ عَنِ الشَّاكِي بِتِريَاقِ

أطلَقتُ مِن نَارِ أشوَاقِي لَهَا قَلَمًا

مَا أضيَقَ العَيشَ لَولَا بَعضُ أورَاقِي

إنَّ الغَرَامَ الذي أذكَى بِهَا مُهَجِي

إزهَاقُ قَلبٍ عَلَى كَيِّي وإحرَاقِي

يُذكِي عَلى مَا تَبَقَّى بِالنَّوَى دَئِبًا

نَارًا لِأشوَاقِ أشوَاقٍ بِأشوَاقِ

قُم يَا فُؤَادِي مِنَ الإقتَارِ مُبتَهِلًا

أمنًا لِنُورٍ وَإن وَصلِي بِإملَاقِ

قُم يَا فُؤَادِي وَخُذ دَمعِي لِغَالِيَتِي

مَا صَحَّ حُبِّي إذَا سَاغَتهُ أحدَاقِي

فاطمة

انتهيت من كتابة الرواية، وكنت سعيدة بهذا الإنجاز، كما كنت فخورة بأبي الذي ساعدني على نشرها وكتابتها، أطلقتُ عليها اسم الرسائل لما حوته رسائله من عواطف وجمال للكلمات أجج بقلبي حب الكتابة. أذكر اليوم والتفاصيل، كان أخر يوم من شهر مايو يسبق رمضان بأقل من أسبوع، في مساء ذلك اليوم بالكاد نمت ليلتي من لهفتي، تذكرت أيام الرحلات المدرسية بصغري وكيف قبل يوم الرحلة يفارقني النوم من اللهفة والأفكار السعيدة، سبحتُ بأفكاري وأحلامي، وكيف سيكون حفل إشهار روايتي غدا ... سيكون رائعا وحافلا حتما ... كل أمر يرعاه أبي جميل ... لكن ليس هذا وحسب، بل عملتْ على التفريق بين جفني والوسن أفكاري التي انهالت عليّ ليلا، بعد زيارة أم خالد - زوجة عمي جميل - تشكو لأبي غياب أخيه، وعدم اكتراثه باقتراب رمضان وما يتطلبه ذلك من مصاريف واهتمام بالبيت والأولاد الذين أهملهم بغير مسؤولية ... كان عمي جميل ودودا بتعامله، لكن هذا لم يشفع له أعماله التي لم يوافقه عليها أحد. مسكينة زوجته، عانت الكثير ورضيت بالقليل، هي حقا مثال

يحتذى به في الصبر، لم تتخل عنه يوما رغم أفعاله وإهماله، فرغم معاناتها منه باستمرار كانت تستقبله في كل مرة بعد عودته على أثر غياب في أحضان نزواته وكأنه أقلع عن صنيعه للأبد وأعلن توبته، وإذا طال غيابه ذهبت هي لتبحث عنه كأنها ليست ذات المرأة التي تتوعده على العلن، غاضبة ساخطة، معلنة أمام الجميع عزمها على خلعه والانفصال عنه. واساها أبي ووعدها بأنه سيكلمه، وطمأنها بأن ترتاح ولا تقلق من إقبال رمضان والعيد، ووعدها بأن هذه الأيام ستمر على خير إن شاء المولى، فعادت أدراجها ترتقب عودته، وتنتظر من أبي أن يكلمه ويحثه على التزامه ببيته ومسؤولياته المحتمة عليه.

قارنت ما كان أبي عليه مع نور وما عمي عليه الآن، ورغم اختلاف النتائج، ونجاح أبي بالفصل بين عوالمه، ورغم أن عمي استسلم لرغباته ونزواته، غير آبه بعلم الجميع واستيائهم منه، ورغم اتساع الفجوة بين الاثنين، إلا أني لم أر مكاني ولا موقفي موافقة أبي موافقة تامة على ما كان عليه حينها.

في مساء اليوم التالي ذهبت بصحبة أبي لمكان الحفل بعدما تأنّقت وأبديت زينة لطيفة، قابلت أصدقاء أبي وأصدقائي وتبادلنا السلام والكلام حتى دقت ساعة الحفل معلنة بدأه.

ألقى أبي ومدرس اللغة العربية في مدرستي كلمات جميلة عن الكاتبة والرواية، وتشكرت الجميع بدوري ... يا لروعة الشعور!! سعدتُ جدا بانجازي هذا، لكن سعادتي الكبيرة كانت بعلاقتي الفريدة مع أبي، وكيف كان ينظر إليّ منذ صغري على أنني صديقته المفضلة وليس فقط ابنته، وازددت سعادة أكثر عندما تجلّى لي ذلك الجانب منه قبل ست عشرة سنة. أهديت له الرواية بعبارة جميلة استوحيتها من كتاب قرأته مسبقا، ولا أنكر أن الإهداء أيضا كان دافعا قويا لأتمّ كتابة الرواية، ففي كل مرة أنظر إلى الإهداء في الصفحات الأولى على حاسوبي أزداد رغبة في الكتابة ... سيكون مسرورا جدا وفخورا بلا شك بابنته ... تراه كم سيسر لذلك ... كتبت له: "إلى الرجل الذي يقود ونحن نيام، إلى والدي العزيز"

أنهيت الرواية ونشرتها، ورغم ذلك وصغر سني وقلة تجربتي حاولت أن أصدق أن للحب ذلك الأثر على حياة الإنسان، قد يبدو لك المرء على خير ما يرام، لكنه يغيب إذا غاب حبه، وتصبح حياته بلا معنى، لكن ما معنى أن أبي أعطاني رسائله وكشف لي الستار عن جزء حساس من ماضيه، وأنا ابنته، ماذا أراد مني أن أدرك وأتعلّم من تجربته، هو لم يفعل هذا الأمر جزافا، كلي يقين بأنه تفكّر فيه، وأدرك إيجابية تأثيره عليّ وعلى خياراتي، ربما كَشْف رسائله لي كان بحَدِّ ذاته الرسالة الأخيرة التي أراد أن يوجه إلي من خلالها غاية ما، ربما أراد مني أن أدرك معنى الحب، وأن أعتني بقلبي ومصادر السعادة، وربما أراد أبعد من هذا، لا أدري! كل ما أعرفه أنني أنهيت الرواية ونشرتها وما زالت تدور بذهني أسئلة كثيرة بغير أجوبة.

الجُزء الخامس

الجرح

يَا شَاكِيًا نَزْعَ زَهْرِ الشَّوقِ لِلرَّوضِ
هَلَّا بَكَيتَ فِرَاقَ القَلبِ لِلنَّبضِ

نور

بعد أن أنهيتُ تعليمي وبدأت مزاولة مهنتي كمدرّسة للرياضيات في مدرسة ثانوية بعدما أتى تعييني سريعا، لم ينجح انشغالي بتخليصي من شعوري بالأسى على فقداني لعمر، حتى قبل هذا وأنا بقمة انشغالي في إيجاد مدرسة تحتويني، وأوج تحضيري للأوراق اللازمة لذلك، لم يراودني شعور بالشغف والقلق من انتظار الرد، فقد سيطر على أغلب مشاعري شعور بالفتور والخيبة بعد ابتعادي عن عمر، وبعد أن أيقنت وصول علاقتنا لنقطة النهاية وفصل الختام. على العموم، لم يكن قبولي بمدرسة حكومية بالأمر الصعب الذي تخيلت، فموضوع الرياضيات مطلوب بشدة، وفرص قبول معلم للرياضيات عالية جدا، على خلاف كثير من المواضيع، بالأخص إذا كان المعلم من المتميزين بتحصيله، ومن خريجي جامعة وليس كلية. لكن ليس هذا شغلي الذي شغلني، إنما هو رفض داخلي لفكرة فراقي عمن أحب، لا أريد أن أصدق بأن هذه هي النهاية، لا أدري لماذا لا زلت أتخيّله سيأتي إليّ يوما مُصرّحا بأنه لا يستطيع أن يحيا بدوني، وأن أهلي سيقدّرون محبتنا هذه ويوافقون عليها، تخيلته يتصل

بأبي ويتفق معه على لقاء يتمخض عن تعديل أبي رأيه، وإعجابه بعمر وشخصيته وبالتالي موافقته على زواجنا، لكنها أحلام أطفال، ورغم يقيني بأنها كذلك ليست إلا، فقد تفننت وتنوعت بها متخيلة شتى القصص والأحداث التي تتفق على نهاية واحدة، وهي زواجنا ... لكن ... أهلي لن يوافقوا مطلقا ... وعمر ... آهٍ عمر ... خذلني في هذا ... طلبت منه إنهاء العلاقة وهذا ما كان ... تركني رغم الآلام ... بكل سهولة ... تركني لأحلام الأطفال ... لكن ما المانع من بعض هذه الأحلام والتمنيات إن كانت تلطف القلب قليلا في ظلّ الوجد والجوى، ذلك القلب الذي فقدته كليا بعد زواجي بوقت قصير.

في تلك الفترة عاد ربيع إليّ على غير المتوقع يخبرني بأسفه. صادفته في المدرسة، كانت مصادفة غريبة وغير متوقعة، دهمني لقاؤه، ودهمني معه شعور العجب والدهشة، طلب مني أن أسامحه على حماقاته، واعترف بحبه الدائم وأظهر حسن نيته بفتح صفحة جديدة معي. أذكر صدفتي به، بعد أن ألقى عليّ التحية سألني:

- ألا زلت غاضبة مني؟

غاضبة؟ أنا نسيتك يا رجل، لكني تذكرت أني يجب أن أغضب منك، فقد عاهدت نفسي ألا أسامحك أبد الدهر لفعلتك تلك، لكني نسيتك كما نسيت كل شيء!

- ماذا تفعل هنا؟

حبذا لو يكون جوابك صادق ولا دخل له بي!

- جئت في طلب من المدير لإصلاح عطب في شبكة المياه.

آه، نعم كيف لم أنتبه لملابس الصيانة وصندوق الأدوات الذي يحمله، قلّما شددتَ انتباهي ... حتى في زمن الألفة.

- ألا زلت في هذا العمل؟ ماذا عن حلمك بأن تصبح طبيبا؟

- لا أدري، تخلّيت عنه، ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه! أنا سعيد في مهنتي هذه، وهي تدرّ عليّ المال الكافي!

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... آه لهذه الجملة ... إسألني أنا عن صحتها وصوابها ... إسأل فؤادي، سيأكد لك أن كل ما يتمنى المرء لا يدركه ... لا يدركه وإن كان بقرب حبل الوتين إليه، لا يدركه إلا حالما ... طيفا ... خيالا أو سرابا.

- لا زال الوقت يسمح لك، لا تعجل في التخلي عن أحلامك.

ما أسخفني، لم أجد غير ربيع لأنصحه بنصيحة أنا آخر من قد يقتدي بها، وآخر من يؤمن بصحتها!

- خسرت ما هو أثمن، لا أسف على حلم الطبيب!
- ماذا خسرت؟
- أنت!

ابتسمت لقوله "أنت" ... نجح ربيع بنزع ابتسامة مني رغم كل ما أمر به وما كان منه في الماضي، واستمر بنا الحديث دقائق ثم بعدها بأيام عاد اللقاء وتكرر الكلام، لمست منه نضوجا وأسفا، ظننته تغير، واكتشفت لاحقا حماقتي حين ظننته تغير وأن علاقة قد تربطني به ستغير من حزني وستنسيني عمر. ظننته صادقا لمّا وافق على القدوم وطلب الزواج مني أمام أهلي.

في ذلك اليوم، عندما دخل ربيع بيتنا لأول مرة بعدما تكلّمت مع أمي بشأنه، والتي بدورها أبلغت والدي الذي لم يبدِ اعتراضا، كنت سعيدة، ولمست سعادة أبي الذي سُرَّ بربيع وأبدى رضاه أمامي، وكذلك هي أمي، وأنا بدوري أقنعت نفسي بأن عودته

رحمة لقلبي المتعب، ومفتاح باب للسعادة بعد فراق لم يزل أثره بعد. وحتى إن كان، فلم أكن أكيدة من إقدامي على فعل صواب، فقد شد انتباهي على الدوام ولم يغب عن بالي قول عمر أن على المرء أن يعطي الفراق حقّه، وألا يختار شريكا أو حبيبا ما دام في قلبه بقايا حبّ لآخر سابق. قال هذا عندما سألته مازحة معه يوما ماذا كان سيصنع لو افترقنا. لكني لم أفعل بقولك يا عمر، لا أستطيع، أعذرني، فقد يكون العُمر كله حق فراقك يا عمري ... لم آخذ بنصحه ورأيت من الضروري أن أغيّر مجرى حياتي، فاخترت المضي مع ربيع، وليتني ما فعلت.

رويدا رويدا يا قلبي إنسَ عمر، وعادت نبضات قلبي إلى انتظامها، كان هذا في فترة الخطوبة، لم تدم طويلا، كان ربيع جاهزا، لديه مهنة وبيت، وسار كل شيء سريعا ومنتظما، قضيت وربيع أسبوعا جميلا بعد يوم الزفاف في أنطاليا، ثم عدنا لنستقبل أهلي وقد حملوا معهم بعض الهدايا الجميلة، مباركين لنا زواجنا. جلست في مساء ذلك اليوم أفتح رزم الهدايا بعدما غادرنا الأقارب، وشدّت انتباهي زهرية زجاجية زرقاء، مطرّزة بأحجار سوداء جميلة، رفيعة وطويلة بعض الشيء، علمت أنها

اختيار والدي وضحكت وقتها، لم أعتقد أن أبي سيهديني مثل هذه الهدية يوما، غلّفت الهدايا مجدّدا ووضعتها في علية بيتي ... لم ينقص البيت شيء ... كل شيء مثالي ... وغمرني ربيع بحبه ... سرني ذلك ... لكن هذا لم يدم طويلا، وسرعان ما انقلب كل شيء رأسا على عقب. لم نفلح في التعايش، لم يحتوني برحابة، وأصبح سريع الغضب وكثير التذمر، بل تطوّر به الأمر إلى إهانتي بكلام ناب وعنيف، لأتفه الأسباب. عيّرني ذات مرة بعلاقتي بعمر أيام الجامعة، وحزنت حينها كثيرا، واستمر حزني بعدها اذ شعرت أن شيئا كسر بقلبي ... ليتك تعلم ما أنت بعيني ... لم أردك يوما ... أنت ما اختارته الظروف ... لا صفة فيك تشبهه ... لا أستطيع إعطاءك كل هذا الاهتمام ... لست لعبتك!!

حرمني ربيع حق قدري، وكثرت المشاحنات بيننا بين مدّ وجزر، وفي ظل هذا رزقت منه بولدين، هما سبب بقائي معه بصمت غير آبهة بكل شيء، إلا بولديّ وبعض الكتب التي كنت أهرب إليها من روايات وأدب.

مرَّت السنون سريعا، كبر ولداي كمال وفادي، واقترب الكبير - كمال - من الإنتقال للمرحلة الثانوية، تفصله سنة عنها، أما أنا

فانشغلت بعملي وأدمنت القراءة، فصادفت العشاق والبؤساء، وقابلت العظماء، وعشت تجارب سنين لأدباء وشعراء في أيام قليلة، بين صفحات كتبهم ومنشوراتهم التي كنت أشتريها من أي معرض كتاب، وأي مكتبة.

*****

- مرحبًا عمي نجيب، كيف أصبحت اليوم؟
- أهلا أهلا أم كمال، أهلا بالمعلمة الفاضلة، أنا على خير ما يرام، كيف حالك أنت؟
- الحمد لله، هل لديك جديد؟
- طبعا، كل يوم لدينا جديد، لقد وصلتني روايات جديدة لكتاب محليين وعالميين، وضعت القليل منها على الرف الثالث هناك ريثما أتفرغ قليلا لأرتب جميعها على الرفوف، بإمكانك إلقاء نظرة عليها ربما تستحسنين بعضها.
- حسنا!

كان هذا اليوم الذي عدت فيه إلى مكتبة العم نجيب القريبة من المدرسة، بعد انقطاع قصير، يوما جميلا مشرقا من أوائل

أيام الصيف، وأواخر أيام السنة الدراسية، اليوم الذي رأيت فيه رواية الرسائل، نظرت إلى كاتبها كعادتي بين الروايات الجديدة على الرف الثالث حيث أشار لي العم نجيب، واعتقدت في بادئ الأمر أن الكاتبة جديدة علي، مددت يدي لأرجع الرواية إلى مكانها بعد نظرة خاطفة على غلافها المرسوم عليه فتاة بملامح شرقية، ورأيت اسم الكاتبة ... مهلا ... تذكرت أن فاطمة حازم هي ابنة عمر... نعم إنها هي ... ابنته ... ابنة عمر... شعرت بقلبي يدقّ بوتيرة عالية، كقلب مولود حديث أتى لتوه إلى هذه الحياة، وانطلق أمامي تاركا إياي خلفه، ورأيت مقعده بالكفتيريا، ذلك المقعد الذي جلس عليه يسمعني تراتيل الغرام، وحلّقت كعصفورة في سمائه عندما أشار إليّ وادعى أن الشعر كُتب لأجلي، وكل القصائد، كان أمامه على الطاولة خاليا إلا من كتبه وبعض قصاصات الورق، صفراء مُزجت بالأسود، ناديته، ردّ لي قلبي، ردّ لي قلبي سيدي!

دهشت وكانت دهشتي أكبر عندما قرأت الرواية، إنها بالفعل أنا من تتحدث عنها، أبعد ستة عشر عاما لا زلت يا عمر تذكرني؟ شيء ما دفع دموعا حارة على خدي، شيء من الماضي الغابر،

أهو الحنين والوفاء؟ أم تراها العودة إلى الحياة؟ لست أدري، لكني أدركت يقينا أن عمر لم يبرح قلبي أبدا ... ربما كان في سبات ... ربما حفظه قلبي وأخفاه بين جدرانه ليتسنى له العيش والمضي قدما في هذه الدنيا التعيسة ... لكنه لم يبرح قلبي ... أتشتاقه يا فؤادي؟ ... أتشتاقه؟ ... لن أمنعك هذه المرّة ... زد الشوق ما شئت ... لا تسأل لماذا ... ولا تكترث لأحد ... فما العمر إلا لحظات!!

زِد يا فؤادي لا تَسَل أين العِبَرْ
واشدُدْ أسًى مِن لَوعَةٍ ضَربَ الوَتَرْ
واذكُرْ حبيبًا كُلّما لاح الهوى
واسفك دُموعِي من جوى لمّا هَجَرْ
واعزف أناشيدَ الهوى من ذكرهِ
أيقظ سهاد اللّيل في وقت السَّحَرْ
وارقُب طيورَ الحُبِّ من أشواقِهِ
واجعل سنًا من لهفتي مِلءَ النَّظرْ
لا تلتفت يوما لأقوال الورى
ما نحن في هذي الرّحا إلّا بَشَرْ

أعادت الرواية إليّ ماضيا جميلا رائعا، هو ربما أفضل أيام عمري، إذ في ذلك اليوم الذي فرغت فيه من قراءة الرواية -

وهو اليوم الذي بدأت فيه قراءتها - كنت أجوب بيتي بكل سعادة، تارة أجلس على الكنبة مبتسمة، وأخرى أتنقل بين النوافذ بأجواء "انساك ... ده كلام ... انساك يا سلام" التي صدف بثها على التلفاز ذات اللحظة ... أين تراك يا عمر ... أشتاقك ... أشتاق ليديك تمر بلطف على خدي ... ولقصائدك ... وأبيات الشعر تأسرني ... وتتركني محكمة القيدِ ... أشتاق لبحر عينيك البني ... وبساتين أحضانك والوردِ ... وأن أبوحِ لك بحبي ولا يسعفني الكلام ولا يجدي ... أشتاقني ورقة شجر في مهبّ عواصفك ... أشتاق لكل شيء منك ... حتى لحزني ووجدي.

خطر ببالي أن أبحث عن عمر في الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي، وقد كان من السهل جدا أن أجده وأجد عنوان بريده الإلكتروني، تصفحت صفحته الخاصة، ورأيت منشوراته العلمية وبعض صوره ... تغيرت يا صديق ... أصبحت أجمل ... يا لشيبك الذي يخالط سواد شعرك ... ثم وجدت نفسي أكتب له:

"مرحبا عمر،

أردت أن أخبرك أن رواية ابنتك جميلة جدا، لست ناقدة لكني أقرأ الروايات وأتذوقها.

لا أدري ماذا يمكن أن أقول عن الكاتبة، أنت تعرفها أكثر مني، لكنها بلا شك رائعة، كيف لا وأنت أبوها"

أرسلت له هذه الرسالة البسيطة رغم علمي أن بامكاني كتابة رسالة أجمل وأغزر، لكني أردت أن أرسل له ما شعرت رغم البساطة.

أتى رده سريعا، أرسل إليّ بضع كلمات قرأتها بغبطة مرارا.

"نور!! أي مفاجأة، كيف أنت؟ كيف حالك؟

من أين أبدأ؟؟ أنا مسرور جدا لرسالتك، وستسرّ فاطمة أيضا بلا شك عندما أخبرها!!

لا أعرف ماذا أقول، لكني مسرور جدا!!

شكرا نور، شكرا من قلبي!!"

آه يا قلبك الجميل، ببساطة كلماته شعرت الدّمَ يجري في عروقي، يا لتواضعك يا عمر، يا لسحرك. تخيلته يقول لي هذه الكلمات وهو جالس أمامي أنظر بعينيه وتعابير وجهه، تبادلنا الرسائل بعدها لأيام كُنَّ الأجمل بعد زواجي، كنت سعيدة جدا،

كأني لم أفارقه يوما ... ربّما أنا كذلك ...دبّت بأوصالي الحياة، حتى أني استعدت نشاطي، ونهضت من خمولي وسباتي، فَبَدَتِ السعادة والراحة عليّ، كما وغيرْتُ بعض أثاث البيت، وكان ذلك في يوم من أيام عطلة الصيف، استيقظتُ وكلي نشاط وغبطة وسرور، حضّرت وجبة الإفطار لربيع، وانشغلت في نظافة البيت بعد مغادرته هو دون إشعار، انتهيت من البيت بسرعة لأجد نفسي أفرغ العليّة من أغراضها ... مرّت أعوام على هذه الأغراض ... كساها الغبار... تخلّصت من كل ما كان عليها إلا من الزهرية التي أهدانيها أبي بعد زواجي، لا لشيء، لكني شعرت بشعور غريب فور رؤيتي لهديّته، وأخذتني ذاكرتي لتلك الأيام ... رحمك الله يا أبي ... أردت في البداية أن أتخلّص منها ومن شعور امتزج ببعض الأسف والخوف، لكني فضلتُ أن أبقيها ذكرى من أبي، فجعلت فيها بعض الزهور الملوّنة، ونصّبتها على طاولة المطبخ بعد تنظيفها ... سعيدة أنت يا نور ... من قال إن المرء يولد مرة واحدة ... تغيرتْ حياتي من جميع نواحيها إلا من ناحية ربيع، لكني لم أنتبه أن ربيع انتبه لهذا، وجرت في ذهنه الشكوك فبدأ يبحث عن السبب!

في آخر أيام الصيف، وقبل أن تفتح المدرسة أبوابها معلنة بداية سنة دراسية جديدة، قررت أن أراه، قررت هذا علما أن بهذه الأيام تكون الجامعات شبه خاوية من الطلاب. راسلته وأبديت رغبتي بلقائه في الكفتيريا الخميس القادم في ساعات الظهر، فأبدى سعادته بهذا.

كان يوم الثلاثاء الذي أرسلت له هذه الرسالة التي عبّرت فيها عن رغبتي بلقائه، وقد اخترت الخميس لأفكّر ماذا يمكن أن أقول لربيع. فكّرت مليا وأخترت أن أخبره أن يوم الخميس يتوجّب عليّ حضور اجتماع في المدرسة، ظننت أن هذه القصة هي الأمثل، كون المدرسة ستفتح أبوابها قريبا، وأن كثيرا من اجتماعات المعلمين تكون في مثل هذه الأيام، وأن ربيع لا يطيق أمور المدرسة، فلن يسأل أو يستفسر عن اجتماعي هذا في المدرسة، كما لم يسأل يوما عن أي حدث يتعلق في مكان عملي، لكني لم أحسب حسابي لأمر مهم غاب عني في ربيع، أمر كشف لربيع عن كذب انعقاد الاجتماع المزعوم، وكيف لي أن أحسب حساب أمر كهذا أو أفكر أو أظن بما ليس بي، عذرت نفسي إذ يظن المرء ما فيه، لكن الأقدار لم تعذرني.

أَتَحسَبُ نور عيني الحبَّ فانِ
وأنّهُ رَهنُ أرحَاءِ الزَّمانِ
لعمري إنَّ حُبِّي مَدُّ عُمرِي
أُفَادِيهِ الدّقَائقَ والثَّواني
ولو دامت لِقَلبِي كلّ حينٍ
وَمُلِّكتُ الزَّمانَ لما كَفَانِي

أبعد ستّة عشر عامًا لا زلت يا عمر تذكرني؟ شيء ما دفع دموعًا حارّة على خدي، شيء من الماضي الغابر، أهو الحنين والوفاء؟ أم تراها العودة إلى الحياة؟

كنت أعلم أنّ لربيع علاقات دنيئة مع فتيات لا يرتقين أكثر من علاقاته تلك، لكن لم يخطر ببالي أن يكون على علاقة مع إحدى المعلمات الزميلات في ذات المدرسة التي أدرّس فيها، والتي أخبرَته بأنها لا علم لها بأي اجتماع للمعلمين ... يا لدناءتك أيها الفاسق ... كم تُراني عشت وتلك المعلمة القذرة تنظر إليّ بعين الاستهزاء والسخرية ... ماذا أخبرها عني ذلك الوضيع؟ وكما لم ألحظ نظرات تلك المعلمة التي لا ترتقي أن تكون نفاية في كبرى المزابل، فلم ألحظ ازدياد شك ربيع مع رؤيته سعادتي في تلك الفترة إلا متأخرة، أدركت ذلك عندما رأيته مساء الأربعاء يبحث في حاسوبي، وأنه لا شك بحث في هاتفي أيضا. لم يطمئن قلبي، من ناحية هو لم يبد أي تصرف غريب، لكن الهدوء الذي ساد حينها كان أشبه بهدوء قبل العاصفة، قبل الإعصار، قبل الزلزال.

من ذات الليلة بوقت متأخر بعد منتصف الليل، وبعد أن تيقنت نومه من شخيره الخفيف، نهضت من السرير وأخذت هاتفه الذي يضعه في الشاحن بجانبه بحذر وخوف شديدين، ثم خرجت من الغرفة بهدوء لص محترف، واتجهت إلى المطبخ ورأيت رسائله في هاتفه ... كانت المرة الأولى التي أبحث فيها

بهاتفه، علمت بعلاقته بتلك المعلمة القذرة بعدما رأيت رسائل نصية منها وإليها، لم أكترث لهذا رغم استحقاري فعلتها، ربما هي السبب في تعاليه هذا، وعدم اكتراثه، وإرادة تملّكي وكثرة شكوكه ... لم يعد يعنيني هذا ... كل ما أردت هو أن أقابل عمر، فقررت المضيّ إليه بشبه اقتناع أن ربيع لم ير رسائلي مع عمر في البريد الإلكتروني.

وجاء الخميس، استيقظت لأجد القلق لم يبرحني بعد أن صارعته ليلا، فليس من السهل العودة للنوم مع كل تلك الأفكار والهواجس، حتى بزوال الخوف وجزء القلق بعدما أعدت هاتفه إلى الشاحن وكأن أمرا لم يكن. وجدت ربيع مستيقظا يجلس في المطبخ صامتا على غير عادة، ووجهه قد اسوَدَّ وكأنّه يشتعل غضبا ... لا سلام ... عتاب وكلام من طرف واحد فقط ... كلام تعلو نبرته سريعا، وفي لحنه الغضب العظيم، وعلا الصراخ حتى بلغ مسامع فادي وكمال بلا شك، لكنهما لم يأتيا، هما يخافان هذه اللحظات، ويفضلان الانزواء عنها بعيدا، بل أتى ما لم يكن متوقعا ولا بالحسبان، ولم أعد أسمع أصواتا بعد أن رأيت الزهرية الزرقاء تهوي على رأسي مفارقة أزهاري الملونة التي

تطايرت في الهواء وتبعثرت على أرض المطبخ هنا وهناك، لم أدرك عدد المرات التي ارتفعت بها يد ربيع في الهواء وهي تمسك الزهرية التي ترتفع معها لتنزل بسرعة الضوء على رأسي، لم أعد أدرك شيئا، ولم أعد أسمع شيئا بعد آخر صوت سمعته، صوت تكسّر زجاج الزهرية، ثم رأيتُني بين يديه ... لماذا أنت حزين يا حبيبي ... ألا تريد أن تبقى على طاولتنا ... أرجوك ... لا أريدك أن تذهب ... أنا أحتاجك ... لا تبتعد ... ارجع إليَّ ... سأبقى حيث تركتني ... أمسح الدموع في وحدتي وأردّد كلاما حدّثتني ... يا من أيقظتَ في وجداني برعم الهوى ... ومن كأس الغرام أسقيتني ... أنا لن أنسى قصائدك ... أعدك يا قلبي ... ولن أنسى الحب الذي علمتني ... ارجع إليّ ... ارجع إليّ يا عمر ... لا تبتعد ... لا أريدك أن تذهب ... لا أريدك أن تحزن ... أعذرني يا حبي ... سامحني!

عمر

بعد ستة عشر عاما، يدق قلبك مجددا ذات الزائر الذي بعث فيك الحياة في ضنك تلك الأيام برسالة صغيرة جاءت على غير المتوقع، كأنها ملاك هبط من السماء بكأس ماء على من أعياه العطش، كيد شقّت قتامك مُدّت من ربيع الماضي، لتتشبّث بها هاربا من غابر العيش وخريف المشاعر... ولادة أمل جديد!

كانت فرحتي عارمة برسالة نور التي أشادت فيها بالرواية، أعربتُ لها عن غبطتي وسعادتي، وتبادلنا بعدها الرسائل بأمور عامة وحديث بسيط، لم نذكر الماضي برسائلنا، ولم نعد بحديثنا لأيام الجامعة، وكأننا لا زلنا نتذكر كل حدث بيننا، فلا حاجة لنا بالتذكير، أو هو الخجل والارتباك، كان حديثنا يقتصر على سلام وسؤال عن الأحوال والأعمال، وكل جديد. ورغم اقتصاره على هذا فقط، فقد عاد قلبي في تلك الفترة ليرقص فرحا، بعد صمته الطويل.

تحدثتُ مع فاطمة حول رسالة نور الأولى، وأخبرتها أنها أعجبت بها وبالرواية، حينها ابتسمت فاطمة ابتسامة عريضة وقالت:

- أحقا راسلتك نور؟

لم أعرف وقتها إن كانت مبسوطة لرأي نور بروايتها، أم لرسالة نور إليّ.

- نعم، لقد راسلتني قبل أيام قليلة، كنت سأخبرك وقتها لكني انشغلت!

سألتني وقتها بغنج وابتسامة إن كنت أظن أنها لا زالت تحبني، ضحكتُ وأخبرتها أن الأمر ليس هكذا بالضرورة، قد تكون تحتفظ لي بالاحترام، لكنها ربما أرادت إبداء إعجابها بروايتك ليس إلا، لقد مر الكثير من الوقت على مشاعرها، ولا بد أنها نسيت كل ما كان بيننا. أصرت فاطمة على رأيها أن نور لا زالت تحبني فقالت:

- أنظر نفسك، أنت سعيد جدا، وأنت ذاتك الذي أخبرتني بأن المرء يستطيع أن يعرف شعور شخص تجاهه بنظره لشعوره هو في قلبه، لا بد أنها بسعادتك الآن.

- أرى أنك من فرط سعادتك تريني سعيدا جدا.

قمت أتفكر بالذي قالته فاطمة الصغيرة، بعد أن أصرت على سعادتي بنور ومازحتها قائلا: نحن يا فاطمة بشر، تسعدنا الابتسامة، ويؤذينا صغار الشوك. لم أحدثها عن نور بعدها، حتى تلقيت منها رسالتها الأخيرة. لن أنسى أثر تلك الرسالة والشعور الغريب الذي اختلج صدري حينها، أرسلت نور إلي بأنها تريد أن تقابلني، فوافقت وسألتها متى وأين، وكان جوابها بضع كلمات أعدنَ لي ماضيا عتيقا، أجابت في الكفتيريا على طاولتنا، يوم الخميس في ساعات الظهر، وأضافت لاحقا، إلى الأبد! لم أفهم مرادها بكلمة إلى الأبد، لكني لم أسمح لخيالي بالغدو بعيدا، ولم أشك بأنها تمازحني جميلة الروح التي لم أرها منذ ست عشرة سنة. بعد هذه المحادثة أخبرتُ فاطمة بأن نور ستذهب لزيارة الجامعة يوم الخميس، وقد اتفقنا أن نلتقي. لا أدري لماذا أخبرت فاطمة بهذا! لكني كنت أريد أن أحدث شخصا، فقد بدا الخميس بعيدا.

في صباح اليوم الموعود، استيقظت باكرا مفعما بالسعادة، وذهبت إلى خزانة ملابسي أختار منها أجملها، وضعت الملابس على كرسي في البيت وحضرت فطوري بنفسي. في تلك الأثناء

استيقظت أحلام وسألتني إلى أين أنت ذاهب، وما كل هذا؟ أخبرتها بأن لقاء مهما ينتظرني في الجامعة. لم أكذب، ولم تبد اعتراضا، فكثيرة هي لقاءاتي في الجامعة، وكثير منها مهم، لكن هذا اللقاء كان الأهم. ورغم أن ساعات الظهر لا زالت بعيدة، إلا أنني قررت الخروج باكرا إلى الجامعة.

في طريقي شعرت بسعادة بالغة في قلبي، لم يحدث أبدا أنّي كنت بتلك اللهفة للوصول إلى الجامعة سوى بأيام علاقتي بنور، وما أشبه اليوم بالأمس، أشعلت سيجارتي وأخفضت صوت المذياع قليلا، أنتظر انتهاء فترة الدعايات لأستمع بعدها لأغنية ما، لم أكلف خاطري بالبحث عن إذاعات أخرى فقد اعتدت أن أبقي مذياع السيارة على موجة راديو الشمس، وأقنعت نفسي أن أي أغنية - بعد فقرة الدعايات - ستكون جميلة، فقد بدا كل شيء جميلا حينها. بعد أن أخفضت صوت المذياع قليلا ريثما تنتهي فترة الإعلانات والدعاية، وفي الهدوء الذي ساد وطاب لذهني، أخذتني ذاكرتي إلى عودتي من ذلك المساء الذي سهرت ونور فيه على شاطئ البحر، تذكرت وقتها أني أشعلت سيجارة كان لها طعم آخر حينها، فلعنت التبغ والتدخين، وتمنيت لو أقلعت عن

هذه العادة المميتة، وسرعان ما تناسيت أمر التدخين فقد فات الأوان على الإقلاع عنه وتركه، وتذكرت موقف أحلام الذي أتى مخالفا لتوقعاتي، عندما كانت قلقة عليّ وقابلتني بحرارة المحب، وقتها رقّ قلبي وحاسبت نفسي على أعمالي وتجاهلي إياها، لكني مضيت في صباح اليوم التالي إلى نور في الجامعة، وحسنا فعلت، لا شيء تغير من أحلام إلى اليوم.

قبل وصولي إلى الجامعة مررت بإحدى البلدات واشتريت وردة صغيرة، أردت إهداءها لنور. وصلت إلى الجامعة باكرا، فقررت إشغال نفسي حتى يأتي موعد اللقاء، طفت بالجامعة وزرت أماكنَ كنّا نجلس فيها معا، بعضها تغيّر كثيرا، وآخر تلاشى تحت أساسات بناء شيدوه منذ سنوات.

قبل موعد اللقاء بساعة تقريبا ذهبت إلى الكفتيريا وطلبت قهوتي لآخذ مكاني بمحاذاة طاولتنا المعهودة، لم أشأ الجلوس لطاولتنا وحدي، لم أجرؤ بعد كل تلك السنين، لكن اليوم سآخذ مكاني منها وجنبي نور مجددا، سأجلس وإياها في المكان المعتاد ونعيد الذكريات الجميلة.

مرّت تلك الساعات بسرعة وأنا أحدّق بالطاولة وأتخيل اثنين يجلسان بانسجام ويذوبان حبا، كانا عمر ونور من سنين خلت. تساءلت كيف تراها تكون نور اليوم، بحثت عنها في مواقع التواصل الاجتماعي من هاتفي لعلّي أرى لها صورة، لكني لم أجدها. أخذت أتخيّلها ولم أفلح أن أراها غير ابنة العشرين التي باعدتها الحظوظ منذ ست عشرة سنة. انتبهت لاحقا أنّ الساعة قد حانت وأنها ربما ستأتي في أي لحظة. علّقت نظري على مدخل الكفتيريا لأي قادم أحسبه نور، كانت الجامعة خالية تقريبا في ذلك اليوم، ولم يأت الكثير إلى الكفتيريا حينها. بدأ انتظاري يطول والوقت يتقلص ومعه سعادتي، قلقت قليلا، وبدأ قلقي يزيد، ومعه اضمحلال الأمل مع كل دقيقة تكتمل بعد موعدنا المحدد، وزاد تصاعد القلق حتى سبق في تصاعده الدالَّة الأُسِّيَّة للثابت الطبيعي، وتفاقم إلى أن أدركت أنها لن تأتي ... يا حسرة الخيبات ... ماذا حصل لها ... بالتأكيد لن تأتي، فقد مضى على موعد اللقاء قريب الساعة ... بحثت لها عن رسائل في بريدي الإلكتروني بهاتفي، ولم أجد جديدا. وبدأ الخوف يتسلّل إليّ، وغبت في قلقي وخوفي حتى كاد يخرجني منه صوت تكسّر زجاج

بجانب طاولتي إثر سقوط كأس من يد النادلة بقربي، لكنّي لم أكترث، بل نظرتُ إلى طاولتنا، حيث اختلف المنظر إلى فتاة شفافة، بلا لون، جالسة وحدها شابكة يديها كأنها تصلّي وتناجي أحدا ما ليبقى معها فلا يبقيها وحيدة ... لا تبتعد ... لا أريدك أن تذهب ... لا أريدك أن تحزن ... ثم توارت مخلّفة اعتذارا!

هممت بالعودة إلى سيارتي أجرّ شعور خيبة ممزوج بألم وقلق وخوف، وأجاهد نفسي بالتماس العذر لها. كم هو مؤلم ذلك الشعور ... لماذا ... هل من الممكن أن تكون على غير ما يرام، ثم لماذا لم تراسلني؟ ماذا حصل؟ أي عذر ألتمس؟ أهي بخير يا ترى؟ بطريقي إلى سيارتي أرسلت لها رسالة إلى بريدها الإلكتروني أسألها ماذا حصل. وتأسّفتُ على أن تواصلنا كان فقط عبر البريد الإلكتروني، رغم اتساع الإمكانيات في هذه الأيام، لكني كنت أعلم أن تواصلنا عبر البريد الإلكتروني هو ما أرادته نور دون أن تصرح به خوفا من أن يساء فهمها من زوجها والإحراج.

جلست بسيارتي أنتظر أن ترد على رسالتي واهبا حواسي للمذياع خوفا من أن تكون قد صدمت سيارتها، أو حصل لها مكروه على

الطريق، قد يأتي بأخبار الإذاعة، وكان ذلك، لكن بغير ما ظننت ... بغير ما فكّرت ... بعيد كل البعد ... بعيد حيث لا أتمنى ولا أريد ... لم يذكروا اسمها، ذكروا عمرها ومكان سكناها. لم أتوقّع أبدا أن هذه المصيبه هي المكروه الذي خفت منه ... لا يُمكن ... علمت أنها نور رغم محاولاتي تكذيب نفسي، وأنه الأحمق زوجها، وأن للأمر علاقة بي ... آه يا صغيرتي ... آه يا ملاكي.

صدمت حينها، ومع حزني الشّديد ودموع أحصرها بعينيّ، استطعت أن أصل إلى البيت وأتوارى خلف مكتبي وأكوام أحزاني وأطنان الكمد.

فاطمة

لا أدري كيف شعرتُ حينها، كان شعورا غريبا يشوبه القلق المفزع، كنت أبحث عن أبي في الأرجاء رغم علمي بأنه ذهب إلى الجامعة ليقابل نور، تذكرتُ عينيه العميقتين كم كانتا سعيدتين عندما أخبرني سابقا بأنه عما قريب سيلتقي بنور. لقد قالها بابتسامة عريضة وغبطة ملحوظة، وأضاف بأن الفضل لروايتك، وكان مسرورا لهذا أيما سرور، كان كمن وجد ضالته وأدرك غايته بعد مشقة أعوام وجهد سنين.

لا زلت لا أدري ما الذي يجعل أبا يخبر ابنته ويشاركها بكل تلك الأسرار، ويقاسمها هذا الجانب من حياته، ولا أدري كيف أتقبلها منه، وكيف قلبي لا يعترض على ما يفعل، لكني كل ما أعلم أني أريد سعادته.

قرأت وسمعت تناقل الناس للخبر عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ولم أشكّ بأنها نور، قلقت جدا وحزنت، لم يكن شعوري بالحزن أمرا جللا أمام قلقي البالغ على أبي. قلقت عليه، كيف سيكون شعوره عندما يعلم بالمصيبة، وهل

تراه يعلم؟ أردت أن أراه، أردت الاتصال به لأطمئن عليه، لكني لم أفعل، قلقت أن يكون مستاء بانتظاره لنور، أو أن تخونني عاطفتي، فيشعر بقلقي وحزني. مرّت الساعات كأنها أعوام ودهور، عاد وجلس بمكتبه، ترددت قبل الدخول إليه. وقفت بعيدة عنه قليلا أنظر لتعابير وجهه، بدا حينها مهموما حزينا جدا، كان يجلس على كرسيه حانيا ظهره وملقيا نظره على ورقة أمامه وهو يمسك بقلمه، بدا وكأن قلمه لا يبرح مكانه على الورقة ... ماذا يكتب ... ماذا يشعر ... أدركت أنه يعرف، كان ذلك أكيدا من منظره الحزين، فقلت بغصة وصوت منخفض كما لو كان من حنجرة مخنوق:

- لقد ماتت، قتلها، قتلتها الكلمات يا أبي!

لم يرفع رأسه عن الورقة، وصمت طويلا قبل أن يجيبني.

- لا! هي لم تمت، ولم تقتلها الكلمات يا فاطمة.

وصمت مجددا كأنه غرق بأفكاره، ثم عاد من أعماق أحزانه وأضاف:

- هي فقط أصرّت أن تبقى الجرح الذي من خلاله يدخل النور إليّ.

كانت نور هكذا منذ البداية، منذ تعرّفتَ عليها، من أول لقاء لكما في الجامعة، وبقيت كما هي، بقيت نورك وجرحك الذي من خلاله يدخل النور إلى قلبك الحزين، إلى عالمك المظلم ... قال هذا وقام من مكانه متجها نحو النافذة ينظر عبر الزجاج إلى عصفور صغير يقفز على عتبة الشباك، وما إن اقترب من الشباك حتى سكن العصفور وخفض رأسه، وكأنه يشاطره حزنه ويتقاسمه أساه، تخيلت العصفور سيطير في أي لحظة لاقتراب والدي وتقدمه نحو الشباك، لكنه بقي مكانه، لا بل سكنت حركته، وكأنه فضل مشاركة أبي ومشاطرته أحزانه وآلمه. لم أعرف ماذا بإمكاني أن أضيف، لقد زال بعض قلقي، لكنّ حزني تفاقم. وجدت نفسي أنظر بالغرفة التي وقف فيها أكثر رجل أحببته، كان ينظر من زجاج النافذة وظهره إليّ، لم يكن ظهره إليّ أبدا، لكن هذه المرة مختلفة، سأفسح له المجال ليحزن، سأتفهمه، لا أظن أن باستطاعتي فعل شيء مفيد له غير الصمت.

أخذت أتأمله وأتأمل ما في الغرفة، حتى انتبهت وقتها إلى الورقة التي كانت أمامه على مكتبه، رأيت عليها بعض الكلمات، فاقتربت نحوها لأجده قد خطّ عليها بخطّه الجميل:

أمُوتُ هوًى غَرِيقًا فِي غَرَامِي
يَطِيبُ لِحُبِّهَا أَلَمُ الحِمَامِ

فَيَا كَلِفًا بِجَنَّةِ عَينِ نُورٍ
أدِروَجهًا إلى نَارِ الهُيَامِ

فَلا بِيَومٍ خَلَاهَا ذُقتَ أمنًا
فَزِد فِي شَوقِ نُورٍ مِن ضِرَامِي

عَلَيكَ إلى لِقَاءِ أعَزّ رُوحٍ
"سلامٌ في سلامٍ في سلامِ"

- تمت -